كتاب
النادي الأدبي الثقافي
1



الدكتور عارف قياسه

شمعة على الدرب

بسم الله الرحمن الرحيم

النادي الأدبي الثقافي

جدة ـ المملكة العربية السعودية

ص.ب: ٥٩١٩



كلمة النادى

● بين دفتي الكتاب الذى نقدمه اليوم .. احدى ثمرات كاتب وشاعر ، عرف باسلوبه الرشيق ، ودقة التعبير ، لانه طبيب ، ولأنه ناقد ، فهو يتلمس اللفظة التى توائم المعنى فى حيز محدود من الكلمات ، ولعل تموجات المناخ فى حماة ، مربع الصبا ، ودمشق الفيحاء .. فى عهد شرخ الشباب وعنفوانه ، ومناهل الفكر الغربى ، وقراءات الادب المهجرى ، بالاضافة الى مطالعات الشاعر الكاتب فى الادب القديم ، حققت لكاتبنا الشاعر .. هذه الديباجة المشرقة ، والتعبير السلس المجنح ، والاسلوب المتميز .

والدكتور عارف قياسه .. الذى نقدم كتابه هذا الى القارىء العربى « شمعة على الدرب » احد الادباء الذين استهواهم الادب رغم انهم متخصصون فى علم او فن بعيد عنه ، فصاحبنا طبيب ، وليس الادب حرفته ، ومع ذلك نجده يكتب المقالة الادبية ، ويمارس النقد الادبى ، الى جانب انه شاعر رقيق ، محلق ، له صورة جميلة ، ولمحات بارعة ، ومعان .. فيها عمق التأمل ..

ولعل كتابه الذى بين يدى نموذج من النقد ، الذى يكشف الاخطاء ، ويعنى بالبحث .. عن الجمال المعنوى والتعبيرى ، فى اطار واضح ، لا التواء فيه ولا غلو ، ولا تحامل ..

لذلك نرى كاتبنا .. قد ملك سبل النقد المنهجى ، فجرد قلمه لتتبع الاثار التى جذبت اهتمامه .. من قراءاته فى النثر والشعر ، فعمد الى هذه الوقفات المستأنية ، يحلل ، ويدرس ببصيرته المحاسن .. فيشيد بها ، ويتلمس الاخطاء اللغوية والفنية ، فينبه اليها بمقاييس الناقد الحصيف ، والكاتب النابه ، والمتتبع اللبق . لوفرغ الدكتور قياسه للادب .. لكان له دور كبير فيه ، كما له مواقف فيما اتاحت له مطالعاته . غير ان العمل الوظيفى يشغل وقت وطاقة الاديب الموهوب ، ثم ان الادب

فى عالمنا العربى سلعة كاسدة فى سوق الحياة المعيشية ، ليس موضع اعتماد حياة فى ابواب الرزق ، وانما هو حصيلة .. اقرب الى الترف . يركن اليها المتأملون .. الذين يستهويهم جماله ، وروائعه ، وعلو شأنه ، وهو جمال للانسان ، وكمال فيه ، وفرص الى الشهرة المعنوية ، فصاحبه يتصدر المجالس ، وحديثه يجتذب الالباب ، ويخضع السامعين .. الذين وهبوا نعمة تذوق الجمال .. الى الاصغاء والاحتفاء به ، واكباره ، وحبه ، رغم ما يجد من حسد على هذه النعمة التى نالها . وكان الاديب يرتاد مجالس الكبار .. فيجد مكانته من التقدير والاعجاب والحظوة ، بعيد الصوت ، ذائع الشهرة . وعلى قدر الاهتمام بالادب يرتفع شأنه .. وشأن الادب ، وحين تنصرف الامة عن الادب .. يدركها الفراغ النفسى ، ويدركها الافلاس ، ولن يغنى نفوسها المال .. اذا اتيح لها ان تنال نصيبها منه . فهو كما قيل « غاد ورائح » غير ان الادب ثروة باقية ، لانه جمال متجدد ، وشباب حياته كلها ربيع ، ولانه اشعاع .. وضياء يهدى السارى ، وينبوع صاف .. فيه حياة ، وقيمة للحياة الدنيا ..

اننى سعيد بتقديم كاتب وكتاب ، من منبر نادينا الادبى الثقافى ، ارجو ان يتجدد لقاؤنا بقارئنا العربى فى سلسلة كتب مختارة ، يجد فيها طريقه نحو ثقافة اسلامية عربية ، تصل الماضى بالحاضر ، وهو دور تضطلع به انديتنا الادبية ، الى جانب دور النشر الاخرى .. التى تشارك فى هذه الاصدارات ، فى وقت انصرف فيه الناس عن القراءة ، والقراءة الجادة بوجه خاص ، ولكن البقاء لن يكون الا للمحصول الذى ينفع ، فالحياة مادة وروح ، والحياة فكر ، قبل ان تكون اقتصادا ومالا ، او اى شىء آخر . واذا طغى جانب على جانب اختلت الموازين ، ذلك ان الاعتدال هو المقياس السوى ، والمنهاج القويم ..

عبدالفتاح أبومدين

كيمياء الشعر (١)

للشعر كيمياء خاصة به ، كما ان هناك كيمياء تتناول بالتحليل خصائص الاشياء .. ولماذا لا ؟ أليس الشعر فنا ، واذا كان لفن الطبخ مثلا قواعد ، فلماذا لايكون للشعر ايضا قواعد تشير الى كيفية انشائه واتقانه وتجويده ...

للفن الذى يشبع المعدة مبادىء ومناهج ، أفليس فن الشعر الذى يبل ظمأ الروح أولى بأن يكون له قواعد يسترشد بها ، وأصول تنير لهواته الطريق ، وتدنويهم من الهدف الاسمى ؟

الموهبة فى الشعر هى قبل كل شىء ... وكل شعر خلا من الموهبة جامد لا حياة فيه .

قد تستطيع ان تكون تاجرا بارعا ، وقد تستطيع ان تكون طبيبا ماهرا ، وقد تستطيع ان تكون على جانب عظيم من الثقافة والخبرة ، ولكن لن تكون شاعرا حقا اذا لم تكن تملك فى اعماقك تلك الجذوة المتقدة : الموهبة .

ان اكبر جامعات العالم لاتقدر ان تصنع شاعرا .. قد تصقل العقول ، وقد تزيح الغبار عن الافكار ، وقد تربى الاذواق ، ولكنها ليس فى استطاعتها ان تمنح المواهب لمن لايملكها .

فالشاعر لايمكن ان يصنع صنعاً ، وانما يولد وفى قلبه مافى حنجرة العندليب من ميل للتغريد والتطريب ، وما فى أوراق البنفسج من بث للعبير والنضرة . وما فى مياه الجداول من حب للتدفق والوسوسة ...

ولكن هل كل موهوب يكون حتما شاعرا ؟

قد يكون وقد لايكون ، ذلك منوط بالظروف ، فاذا اتيح لهذه الموهبة الجو الملائم لتفتحها نمت وترعرعت وبسقت ، والا انكمشت وضمرت وتلاشت ...كأنها البذرة فى جوف الارض قد تتحول الى دوحة عظيمة ، وقد تتوارى فى عالم العتمة والنسيان تحت اطباق الثرى .

وكم من موهبة انطفأت فى مهدها قبل ان تملأ باشعاعها الآفاق .. ولعل اكبر حوافز الموهبة هو الحرمان ....

فالحرمان هو الذى يجعل بحيرة النفس تتموج ، كأنك القيت فيها بحجر ، ثم لاتلبث دوائر الموج أن تتسع ، وان تجيش كأنما فيها زلزال ، ثم لاتعتم ان تفيض على الشطآن ، وان تتحدى القيود والسدود ، فيكون من ذلك الهيجان المضطرب ، التعبير الشعرى الصافى . الشعر اذن عاصفة فى النفس ، وبعد زوال العاصفة تنبثق القصيدة .

ولعل الحب ، بما فيه من عوالم خصيبة عجيبة زاخرة بشتى العواطف ، هو اقوى مايفجر الموهبة الشعرية ، ويجعل امواجها تتلاطم ، وترمى بدررها على الشطآن ..

وانا لا اكاد اصدق ان شاعرا كبيرا لم يعرف الحب طريقه الى قلبه ، بل لم ينغمس فيه حتى اذنيه فى يوم من الايام ...

فالحب هو النواة التى تتبلور عليها الموهبة الشعرية .

واكاد اقرر بأن لاشعر بدون حب ... ويجىء دور الطبيعة الهام فى تكوين الشاعر ، ولاسيما فى طفولته اللاهية .. ففى تلك الحقبة السعيدة من العمر تترك الطبيعة الساحرة فى مخيلة الشاعر الموهوب اثرا خلابا لايمحى ..

أليس هو ابنها البار ، وعاشقها المتيم ، وتربها الذى لايمل عشرتها ، فعنها يأخذ اصباغه ، ومنها يستعير ألوانه ، وعلى قيثارها يعزف الحانه ، وهو فيها كالنحلة الدؤوب ، وكالفراشة الطائشة ، وكالعصفور النزق ، ينتقل بين خمائلها وازهارها ، وبين غدرانها وظلالها ، وبين جبالها ووديانها ، وبين انوارها واعطارها ، دون ان يسأم ، بل يزداد على مر الايام لها حبا وبها شغفا ، وهو يختزن كل ذلك فى ذاكرته الطرية ، ليتخذ منها بعد ذلك مادة لشعره ، وزاداً لسفره فى عالم الخيال .

فالصورة الشعرية ــ وهى فلذة من فلذ الطبيعة ــ هى العمود الفقرى للشعر . وكل شعر خلا من الصورة الشعرية هو شعر هزيل ، قد يهز العقل ولكنه لايستطيع ان يهز القلب والخيال ...

فالتجريد هو بلا ريب عدو الشعر الاول .

قد يلائم التجريد العلم ، وقد يلائم الفلسفة ، ولكنه اذا دخل عالم الشعر افسده وافقده النضارة والتحليق والروعة ..

ولاشك ان اول مايبعث فى السامع دهشة الاعجاب هو الصورة الشعرية الطريفة الحية .

قد تكون المعانى مطروحة على الطريق كما قال قديما ابن رشيق ، ولكن ميزة الشاعر المميزة هى الباس تلك المعانى المبذولة حللا جديدة ، وعرضها عرضا ملائما فى فن ينم عن ذوق الشاعر ، وتفاعله الحميم مع كنه الحياة .

ولقد يظن بعض الناس ان الموهبة هى كل شىء فى الشعر ، وان الشاعر الموهوب ليس عليه الا ان يهز بجذع النخلة لتساقط عليه الثمرات الشعرية اليانعة .

وهذا ولاشك ظن خاطىء ، فالموهبة شرارة مقدسة لابد منها لانضاج العمل الشعرى .

ولكن الشرارة وحدها لاتكفى الطهوالوجبة التى تلتهمها العين قبل الفم . ان النفس خلال ثورتها تقذف بالرغوة والصريح ، بالتبر والتراب ، بالدرر والصدف ، فلابد من عقل واع ، ومن يد صناع ، دائبة الجهد ، لعملية التنقية .

وكم من قصائد يشع من ثناياها الجمال كالكواكب ، ولكن النفس لاترتاح اليها جملة ، لانها تترك القبح يتسلل اليها فى استحياء .

وهل الحسناء فى اطمارها البالية مثل الحسناء فى زينتها وطيبها ؟

فلابد اذن من الكدح ، وتنقية الحقل الشعرى من الاعشاب الضارة ، والعوسج الشائك الذى يغض من اشراق الزنابق ، ويحد من تفتح الورود .

كيمياء الشعر (٢)

قلنا فى مقالنا السابق : ان الصورة الشعرية هى العمود الفقرى للشعر ، واليوم نضيف فنقول:انها ايضا الجناح الذى به يطير ، ويحلق فى السماوات العلى.
ولعل من ابده البدائه ان الشعر الساحر هو الشعر الذى تنبثق منه الصورة انبثاقا عفويا ، كما تمتد الفروع من جذع الشجرة الحية .

أما الشعر الذى يجرى فيه صاحبه وراء الصورة جريا ليرصف بها شعره كما كانت ترصف الجدارن القديمة بالفسيفساء ، فهو شعر يظل بينه وبين القلب حاجز صفيق لايخترق ، لانه شعر .. يضج بأصباغ الصناعة وضوضائها ولايوحى بما توحى به الطبيعة السمحة من تداخل بين خلاياها واجزائها .
وانما يبدو كبعض الاشجار الاصطناعية التى الصقت عليها الازهار الملونة الجامدة الصاقا ، والصورة الشعرية ليست فى ذاتها هدفا وانما هى وسيلة هامة لتوضيح المشاعر ومجال رحب لصب اللامتناهى فى اطار زمنى محدود ، وهى ضرورة للشعر لاغناء له عنها ، لانها فى مكانها شلال من الالوان والانغام يقتحم الحدود والسدود ، ويصل بين الارواح بصلة وثيقة تبلغ الاندماج .

وافسد مايفسد الصورة الشعرية هو الترهل ... فالصورة الشعرية ينبغى ان تكون رشيقة الحركة ، مشيقة القامة ، مكتنزة الاجزاء ، ليكون لها قدرة السهم على الانطلاق ... وقد اهتمت الرمزية برشاقة الصورة اهتماما كبيرا ، فحذفت من الصورة ادوات التشبيه ، .. وجعلت اجزاءها يرتبط بعضها ببعض ، بخيوط خفية لاتكاد تبين .

وقد انتقل هذا الحذف الى الشعر العربى الحديث ، فسعيد عقل يقول فى (المجدلية) :

شاعر رفه الـــرضى شفتيه ينثر الياسمين فى الكلمات

بدل ان يقول : ينثر فى الكلمات مثل طيب الياسمين ، فاختصر ، فجاء بيته ارشق وابلغ .
ويقول سعيد عن العذارى

وانفرطـــن حـــوله بـــاقـــة من الشـــرر

فحذف اداة التشبيه ، فجاء بيته اقدر على الوثب والحركة ...
ويقول بولس سلامة :

البطولات معصم قد من صخر وسيف على الكواكـــب تائه

ولم يقل : البطولة هى ان يكون لك معصم قد من صخر .
فلاشك ان هذا الايجاز زاد من حيوية البيت ، ومن قوته الاندفاعية .. وليست قيمة الصورة بقدر انطباقها على الــواقع فالشاعر ليس مصورا فوتوغرافيا والا جاءت صوره مهما كان بارعا أقل رفيفا واقل نضرة ، من صور الطبيعة الخصبة التى لاتجارى . وانما الشاعر يركب صوره فى معملـه الكيماوى ، تركيبا خاصا ، يأخذ من الطبيعة شيئا ، ويأخذ مما قرأ شيئا ، ويضيف من تجاربه اشياء ، ويمزج ذلك كله بألوانه ، ويطبخه على نار قلبه فتخرج الصورة وعليها سماته وملامحه ، وعليها ايضا مسحة الطرافة لانها تعبق برائحة مشاعره الخاصة .

أما الصورة التى تنقل عن الشعر القديم أو الحديث ، دون تفاعل مع أغوار النفس ، فهى صورة جامدة ، باردة ، لانها صورة قد افرغت طاقتها ،

واستنفدت اشعاعها ، وبالتالى فان قدرتها على اشاعة الهزة فى الجوانح تكون قد ماتت .

ولقد يظن بعض الناس ان التشبيه يجب ان يكون كالصورة فى المرآه المجلوة ، تنقل ملامح من كان امامها نقلا امينا ، بلا زيادة ولانقصان ، والا كانت تلك المرآة صدئة مشوهة ، .. جديرة بان ترمى وتحطم ..

ولاشك ان هذا الظن القديم البالى ينحر الشعر ويجمد أجنحته ... وخوفا من مثل هذا الرأى الضيق المتزمت ، قال الشاعر الفرنسى رامبو :

خــذ البلاغـــــة   والو عنقهـــــا

فالشاعر ليس قطارا يسير على القضبان الحديدية الممتدة أمامه وانما هو طائر غرد يتنقل حيث يحلو له التنقل ، والمهم قبل كل شيء ان يشدو فيطرب ...

والرسام الماهر لم يعد يحتاج اليوم الى رسم كل شيء فى وجه المرسوم ، ليقدم لنا صورته الرائعة وانما هى خطوط بارزة من هنا ، وظلال قاتمة من هناك فاذا الصورة تكاد تتكلم ..

فقيمة الصورة الشعرية اذن هى بمقدار مافيها من ايحاء وجده ... ومن هنا يجهد الشاعر فى مزج الالوان والظلال لينقل صدى وقع الاشياء فى اعماق وجدانه ؛ ومن أجل ابراز الصورة التى تستطيع نقل حالته النفسية يعمد الشاعر الى شتى الوسائل التى تزيد فى تفجير المقدرة الايحائية لتلك الصورة ، والتى قد لايستسيغها النثر الواعى المغرم دائما بالتسلسل والوضوح .

فيغدو الشاعر وكأنه فى حالة حلم ، تمر امامه الحوادث دون ترابط منطقى واضح ، أو كأنه طفل سادر فى تخيلاته الغريضة الاولى . فالاشياء الجامدة تتحرك والاذن ترى ، والعين تسمع ، وللظل عبير ، وللصدى رائحة ، وللشعاع طعم ، وهو مايسمى باختلاط الاحاسيس ، وهو نوع من النشوة الصوفية الغامرة يسبح فيها الشاعر احيانا ، فيتخلص من رقابة العقل الآسرة ، ويزيد من ثروته فى التعبير والايحاء .

ولكن هذه الومضات اللامنطقية وإن كانت احيانا تمد الشعر بدم جديد ، وطاقة متألقة ، فانها اذا كثرت فيه أفقدته رصانته وجدواه وجعلته الى الخرافة والاساطير اقرب .

فالصورة الشعرية اذن هى من أهم خصائص الشعر ، وهى على ايجازها تتفجر فى البيت .. الشعرى فتضيئه ، كما تتفجر الاسهم النارية فى الليالى الظلماء فتتكشف عن رؤى ساحرة ... وليس الكلام الكثير فى الشعر افضل وسائل التعبير .

فالشعر لمح تكفى اشارته وليس بالهذر طولت خطبه .
كما قال الشاعر القديم
فكم من نبرة ممزقة تنم على الاسى اكثر مما تنبىء عنه الدموع الغزار .
وكم فى قارورة الطيب ، على ضآلة حجمها ، من عطر نفاذ لاتنفح به حديقة كاملة إبان الربيع ...

كيمياء الشعر (٣)

واذا كانت الصورة الشعرية هى من أهم خصائص الشعر ، فما لاريب فيه أن الوزن والقافية هم السمتان المميزتان له ، وهو بهما يتفرد عن سائر الفنون الادبية .

فقد توجد الصورة الشعرية فى النثر ، ولكن الوزن والقافية معا لايوجدان الا فى الشعر . وليست كل قصيدة ذات وزن وقافية شعرا .

فالوزن والقافية اناء شفاف كالكأس البلورية ، يمكن أن يملأ بالعلقم ، ويمكن أن يملأ بالماء المصفى .

ولقد يحسب بعض الناس أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، دون أى اعتبار لمضمونه ، وهذا الظن الضال يسىء الى الشعر كل الاساءة ، وهو الذى حمل بعض الشعراء على التحرر من قيود الشعر ، والتمرد على اوزانه ، كرد فعل ازاء الجمود الذهنى عند المتشاعرين الذين لاهم لهم سوى رصف الفراغ الشعرى باجترارهم الممل السقيم .

ان لهؤلاء الشعراء المتحررين الحق كل الحق ، فى ان يعتبروا كل نشاط ذهنى ادنى الى الشعر من الكلام الموزون المقفى المحنط كالمومياء .

فالوزن والقافية ليسا غاية فى حد ذاتهما ، وانما هما وسيلة تزيد من خصوبة الشعر ، ومن قدرته على النفوذ الى اعماق النفوس .

ولا ريب ان هذا النغم الرتيب المهدهد الذى يستجم عنده الشعر فى نهاية كل بيت ، يرتفع بالنفس الى ذروة روحانية شامخة تجعلها اكثر ميلا الى تقبله والتهامه .

الا ترى المغنين كيف يستهلون اغانيهم بمقدمات موسيقية صامتة تنقل السامع من عالم المادة الى عالم الروح ، وتجعل أوتار نفسه اكثر استعدادا لتلقى الغناء والطرب ؛ كذلك القافية فى الشعر لها المهمة نفسها ، لذلك كانت ضرورية للشعر اذا فقدها فقد عنصرا هاما من عناصر التطريب .

وشيمة اخرى للقافية هى انها احيانا لاتجىء عفو الخاطر ، بل يمعن الشاعر فى الجرى وراء القافية الملائمة التى تزيد من قوة البيت التعبيرية . ولكن جهوده احيانا تذهب سدى ، ولايظفر بطائل ، فيصرف ذهنه عنها بعض الحين ، ويترك الامر لعقله الباطن ، فيقوم هذا فى الخفاء بعمله الجبار الذى لاينقطع ولا يهدأ ، ويقدم القافية الملائمة فى لحظة سعيدة .

وليست القافية الجيدة هى التى تستطيع ان تملأ فراغ الروى ، فكم من بيت جميل اسقطته قافية باردة ، بل هى التى تتمم جمال البيت ، وتمنحه اجنحة خفية تزيد فى تحليقة .

والشاعر الشاعر يعرف قبل كل شىء من قوافية الحسان .

وآية القافية المليحة أن تحتل مكانها دون اكراه ، وليس معنى ذلك ان تجىء من المحفوظ المألوف بحيث يحزرها القارىء او السامع قبل ان تنتهى اليه ، فليس اقتل للشعر من فقده عنصر المفاجأة ..

فالتعبيرات الجاهزة ، والجمل المحفوظة اذا صلحت فى الخطابة او النثر ، فانها تقضى قضاء مبرما على الشعر .

والشاعر الذى يعتمد على ذاكرته يندر جدا ان يلمع فى شعره . فالشاعر نحات قبل كل شىء ، ازميله خياله وذوقه ، فهو يكيف تعابيره حسب هواه ومشيئته ، ولا يقبل أن يستعمل تراكيب غيره ، قديمة كانت ام حديثة ، لانجاز عمارته الشعرية والا كانت تلك العمارة تتسم بطابع القدم وتفوح بروائح المتاحف الاثرية ، او كانت صورة طبق الاصل عن غيرها ، مما يجعلها لاتنفرد بأية ميزة .

وليست الموسيقى ، وهى رئة الشعر التى لايمكن ان يعيش بدونها ، تنبع وحدها من الوزن والقافية ، فطريقة تركيب الجملة الشعرية يضفى على البيت جرسا عذبا يساهم فى خلق جوقة موسيقية رائعة يتهادى الشعر بين انغامها .

ولذلك كان للشعر كيمياء خاصة تعرف كيف تمزج بين الالفاظ ، وتوفق بين اصدائها ، لتستطيع ان تفرغ اكثر ما فيها من الطاقة النغمية الكامنة .

يقول الشاعر امين نخلة :

احبك فى القنوط وفى التمنى   كأنى صرت منك وصرت منى

فتكرار النون فى هذا البيت يوشحه بجو موسيقى حزين اشبه مايكون بحنين الناى فى ضوء القمر ....

ويقول الشاعر صلاح لبكى فى (ديمة) :

هل فداك الـــدفء هل   ياديمة الامل المطل
غدك الـــربيع بما به   من ميعة ونعيم ظل

فهذه الدالات واللامات والعينات المتلاحقة تغنى البيتين برفيف موسيقى ساحر .

والشاعر هو الكيماوى الذى ينفض الغبار عن الكلمات ، ويركبها تركيبا خاصا يرجع اليها تألقها الحى يوم انبثقت عن الطبيعة ، فكثير من الكلمات علاها الصدأ على مر الايام ، وخرجت عن معناها الاصلى الذى يملأ كيانها ، وليس غير الشاعر بذوقه المرهف ، وحدسه الملهم ، يستطيع ان يعيد اليها نضارتها الاولى .

ولذلك تراه يصطفى الكلمات اصطفاء ، ويضعها فى الموضع الذى تستطيع فيه ان تشع وان تسطع ، ويختار من الكلمات ماينسجم مع تموجات شعوره ، فهو يرق فى الغزل والرثاء ، ويجزل فى الحماسة والفخر ، حتى ليكاد صدى الكلمات يقذف بمعانيها قبل ان تنشق عن مضمونها ، وتفرغ مافيها . ومن البديهى ان الشعر الذى يتغنى بالبنفسجة اللطيفة هو غير الشعر الذى يصف اهوال الحرب ، فهذا يرعد ويجلجل ، وذاك يومئ ويهمس . والشاعر ينتقى البحر الذى يجرى فيه زورقه الشعرى ، حسب درجة امتلاء شعوره قبل النظم ، فآنا ينطلق فى بحر متحرر سريع التوثب ، وآنا يتهادى فى بحر هادىء اللجة ، صافى الزرقة ، حتى لتكاد تسمع فيه ايقاع المجذاف على صفحة الماء

الساجى ، وهذه ميزة فريدة للشعر لايملكها سواه ، تمده بعمق وثروة ، وتجعله احفل بالامتلاء والاتساع من سائر الفنون .

هذه بعض الاضواء ، لعلها تنير جزءا من الطريق أمام محبى الشعر ، وتكشف عن بعض اسرار صناعته ، وان كان الشعر فى نظرى خضما لاساحل له يحده ، ولا افق له ينتهى عنده ، فمن العبث وضع اى قيد فى مداه المترامى ، لانه لايأبه بكل هذا .

حسبه أنه يجعلنا بعد قراءته اكثر تآلفا مع الكون ، وابعد نفوذا الى اغوار الحياة ، واشد انسجاما مع الطبيعة المتجددة .

انه صياد الهنيهات الهاربة من أنامل الزمن ، تلك الهنيهات الملأى التى تمر ولا تتكرر ..

أما كنهه ، كنه الشعر ، فلعلنا بعد كل هذا ، لانعرف عنه اكثر من ذلك الاعرابى الساذج يوم سئل عن الشعر فقال :

هذا شىء يابنى يجيش فى صدورنا ، فتنطلق به ألسنتنا وما أصدق قوله ..

أضواء على النقد

النقد الادبى البناء فى صحفنا ، مفقود او شبه مفقود حتى اصبح يصول ويجول ، فى ساحة الادب ، كل من استطاع أن يمتشق القلم ، ويجد الحبر ، ولا احد يقول له ماذا تفعل ، ولا احد يهتم بما ينشر ، كأن الفكر قد هان واصبح عندنا مثل تلك الاوراق اليابسة التى تذروها رياح الخريف ، أو كذلك الزبد الابيض الذى يتطاير على شواطىء البحر ، فهو يلهى النظر ، ويطرد الفراغ ، ويهدهد السأم ، ولاشىء بعد ذلك ، فلا احتفاء بالرائع ، ولا تبرم بالتافه ، والليل صار مثل النهار ، والصيف غدا كالشتاء .

لقد تجرأ على النشر كل من شاء ، مع ان كبار الادباء يتهيبونه ، وكأنهم ، حين يقدمون عليه ، يقدمون على بحر هائج الاشداق ، متلاطم الامواج ، لان النشر يكشف خفايا العقول ويفضح اسرار الضمائر ، والمرء مزيج عجيب من القوة والضعف ، من الرقة والعنف ، من السمو والانحطاط ، من الخير والشر ، وبالتالى فهو لايحب ان يطلع غيره الا على اكرم مافيه من مزايا ، واحسن ماينطوى عليه من صفات .

ولذلك كان لابد من النقد . ولكن النقد امر عسير مطلبه ، فهو فن معقد من فنون الادب ، يشترك فيه الاطلاع ، والثقافة والذوق ، ولاشىء يختلف فيه الناس كاختلافهم فى اذواقهم ، فبعضهم يميل الى اللون الداكن ، وبعضهم يميل الى اللون الزاهى ، وبعضهم ينظر من هذه الزاوية ، وبعضهم ينظر من تلك ، ومنهم من يعشق هذا النوع من الطعام ، ومنهم من لايكاد يستسيغه ، ولذلك كان ارضاء كل الناس غاية لاتدرك ، لاختلاف الميول وتباين الاهواء .

والناقد منقب ماهر فى اثار الادباء ، فهو يقلب الكلام على مختلف وجوهه ، ويديره على شتى معانيه ، فلعل فيه فكرة تستحق التقدير ، ولعل فيه ابداعا خفيا يستحق الابراز ، ولعل فيه لمحة مضيئة تستحق التأمل .

انه لايمر بدنيا الادب مرا سريعا كراكب فى قطار ، وانما يتأنى ويتمهل ، ويقف عند كل منعطف .

وانها لرحلة ممتعة وشاقة فى آن واحد ، تلك الرحلة التى يرافق فيها الناقد المنقود ، فهو يشاركه فى عملية الابداع ، فى كل مرحلة من مراحلها ، من البداية حتى النهاية ، وهو يتقمص شخصيته ، ويمر بكل الادوار التى مر بها ، فتارة يضحك لضحكه ، ويقطب لعبوسه ، وتارة يتصبب معه عرقا ، وحينا يستطير من الفرح ، وحينا يستشيط من الغضب ، وبالاختصار يندمج فى شخصيته اندماجا تاما حتى ليكاد يطلع على ادق اسراره ، واخفى اخباره ، وقد يجد له العذر حيث لايجده غيره ، وقد يرى منه تصرفا لايقره ، ولايرضى عنه ، فيستنكره ، مؤيدا كل ذلك بالادلة المستمدة من العلم او الذوق ، او داعما رأيه بالشواهد النابعة من الموازنة والمقارنة ، او الاجتهاد .

ومهما يكن من امر ، فان النقد وسيلة ناجعه من وسائل التحرير الذهنى ، فهو يفتح على غرف الحياة الموصدة نوافذ جديدة ... يدخل منها الهواء النقى ، وتتسلل منها اشعة الشمس المحيية ، كما ان النقد يظل يبصرنا بالحسن ، وينفرنا من القبح ، فتنشرح صدورنا للحسن ، وتنقبض نفوسنا للقبح ، وبذلك تتحرك الاوتار النبيلة الهاجعة فى اعماقنا قبل ان يعلوها الصدأ ، ويركبها الغبار ، وهى مهملة فى زوايا النسيان ، لاتمر عليها أى انامل رقيقة .

والنقد بعد ذلك يعلمنا براعة التعبير ، ودقة الاداء ، ولطف الاشارة ، ووزن العبارة بميزان الذهب الحساس ، فلا تعود تكال كيلا ، او تنفق جزافا بسخاء مابعده من سخاء .

واذا لم يكن للنقد من نفع ، الا انه معرض حى لتحرك الافكار ، وتصارع العواطف ، وتبادل الاراء ، وتنوع الاداء ، لكفى .

فالنقد يفتح الذهن ، ويجنح الخيال ، ويربى التروى ، وينمى ملكة الاختيار ، ويرهف الذوق ، ويشحذ الاحساس ، ويجعل القلب يهوى الجمال حتى فى الكلام ، وماهذا بالشىء اليسير .

ولكن النقد ليس بالمركب السهل ، فهو يكسب الاعداء ، ويفقد الاصدقاء ، والانسان العاقل حريص بطبعه على تقليل اعدائه ، وزيادة اصدقائه ... غير ان الناقد يظل مع المنقود بين امرين :

فهو اذا سكت عن عيوبه ، وتجاوز عن سيئاته ، سقط من عينه ، وان يكن قد ارضاه ، واذا دل عليها ، وكشف الغطاء عنها ، سقط من قلبه ، وان يكن على حق ، ولا يسلم الناقد من هذا السقوط الذريع الا عند كبار النفوس الذين رفعوا الحق فوق اهوائهم ، وزرعوا الجمال فى حنايا افئدتهم ، وما اقلهم فى هذه الايام !

ومع كل ذلك فان تجربة النقد هذه تستحق المحاولة ، فهى وحدها التى يمكنها ان تفرق بين الغث والسمين ، وتميز بين الحقيقى والمزيف ، وتجعل الجو الادبى يتنشق على الاقل بعض نسمات الحرية التى لاغنى له عنها .

الشعر والرسم

يعتمد الشعر قبل كل شيء على الصورة والنغم ، فهما الجناحان اللذان بهما يحلق .

وهناك علاقة وثيقة بين الشاعر والرسام . فالشاعر رسام ريشته الفاظه ، والرسام شاعر اوزانه الوانه .

واذا كانت موسيقى الشعر تنبع من تركيب الالفاظ ، فان موسيقى الرسم تنبع من تناسق الالوان .

الا أن الشعر يظل اكثر اطلاقا للخيال من الرسم . فالرسم يثبت احساس الرسام وانطباعاته فى حدود اللوحة التى رسمها ، وبقدر مهارته ، يأسرنا فى أطار لوحته ، حتى لنعود ننظر بعينه ونسمع بأذنه وقليلا مايترك لنا حرية التجاوز اما الشاعر فيقول كلمته وينصرف منشدا مع المتنبى :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فالقصيدة الواحدة لاتوحى الى الجميع بشعور واحد .

فكل صورة لها فى تخيل ابعاد والوان تختلف عن أبعادها وألوانها فى تخيل آخر .

وكل لفظة لها فى ذهن معنى يختلف عن معناها فى ذهن آخر وذلك حسبما تثيره فى العقول الباطنة من مشاعر واحاسيس فى ذلك الوقت .

واذا كان الرسم يقيد الخيال فان الشعر يطلقه ، ويجعله يتموج على هواه دون تقييد لحريته .

ومن هنا كانت ميزة الشعر على الرسم ومع ذلك يظل الرسم ادنى الفنون الى الشعر ، بل واكثرها به التصاقا والشعر الذى لايعتمد فى تركيبه على الصورة يبقى ضيق الافق ، شاحب التعبير ، ضئيل القدرة على اشاعة هزة الطرب .

فالتجريد يضعف نبض الشعر ، ويخمد رونقه ، وهو وان استطاع ان ينقل الفكرة بامانة ، الا انه يظل بعيدا عن اثارة النشوة التى هى من أول أهداف الشعر .

فالشعر لم يوجد ليخاطب العقل وحده ، وانما وجد ليخاطب ملكات النفس المتعددة جميعها وليحمل اليها السعادة ايضا .

ولا شيء أقدر من الصورة على نقل الفكرة واشاعة النشوة فى آن واحد .

يتغزل شاعر بوهيمى أسبانى فيقول فى بساطة مؤثرة :

حين دخلت بيت التنورياحبيبى وجدت ألـــف رغيف طازج

ولـــكنى لم أجد بينها كلها واحدا أشقر كشقرة خدك

ولا واحدا محروقا كحرقة قلبى

ولو لجأ ذلك الشاعر الى التجريد لما زاد على أن قال انه أحب حسناءه وتألم ..

ولكن ما أبعد الشقة بين القولين ، فالاول شعر يغنى فيطرب والثانى نثر مهيض الجناح لايقوى على التحليق ، ولايستطيع اثارة الشجن .

ويمر الشاعر الفرنسى بودلير بحالة نفسية اليمة حزينة فيرى شبابه قد ولى ، وموهبته قد بدأت بالجفاف ، والزمن الذى لايرحم يقتات من دمه ، ويعيش على اشلاء قلبه ، فيقول فى قصيدته (العدو) :

شبابى لم يكن غير عاصفة مظلمة تخللتها هنا وهناك شموس ساطعة . الصواعق والامطار خربت كل شيء : فلم يبق فى حديقتى الا اليسير من قرمزى الثمار . هاأنذا الامس خريف أفكارى ، وعلى أن استعمل المجرفة والمشط لأجمع من جديد الاراضى التى غمرها الطوفان ، حيث حفر الماء ثقوبا واسعة كالقبور ، ومن يدرى ان كانت الازهار التى بها احلم ستجد فى هذا الثرى

المغسول كرمال الشاطىء ، الغذاء الخفى الذى يهبها القوة .

أيها الالـــــم ! ... أيها الالـــــم !

الزمن يأكل الحياة ، والعدو القاتم الذى يقضم قلوبنا ، من الدم الذى نفقد ، ينمو ويتقوى ...

والرمز فى هذه القصيدة واضح شفاف يعتمد على حركة الصورة ، ويستند على بث الظلال والالوان ، مما يساعد على ابراز تلك الفكرة الحزينة التى رغم مافيها من مرارة متناهية لاتستسلم للقنوط ، وتظل تحلم بشعاع من الرجاء .

وشعرنا العربى القديم منه والحديث فيه الكثير من الصورة المتحركة المعبرة .

فحين يقول الشاعر :

وانى لتعرونى لذكـــراه هزة　　　كما انتفض العصفور بلله القطر

يرسم لنا فى خطوط قليلة لوحة كاملة لتلك الهزة فلو اقتصر على صدر البيت (وانى لتعرونى لذكراه هزة) لما زاد على النثر شيئا ، ولكن الذى رفعه الى مستوى الشعر هو هذه الصورة الرائعة الحية كما انتفض العصفور بلله القطر ، هذا هو الفرق بين النثر والشعر ، فالنثر همه ان ينقل الاحساس باللفظة المعبرة ، والشعر لايكتفى بذلك .. بل يستعين بالصور والظلال والالوان لينشر حوله نوعا من الفتنة تنضم الى ميزته الموسيقية التى تجعله يدخل القلوب بلا اذن ولا استئذان ، وان النثر الفنى الجميل لايستغنى بدوره عن الصورة وان كان أقل حاجة اليها من الشعر ، ولو أمعنا النظر فى اكثر الحكم والامثال لرأيناها تعتمد على الصورة الفنية اعتمادها على الرنة الموسيقية ، مما يجعلها بالقلب أعلق وبالذهن الصق .

وفى القرآن الكريم ، وفى الحديث الشريف من بدائع التصوير وروائعه ، مايعجز عنه ابلغ البلغاء ، وأبرع الشعراء ، ولذلك فإن الشاعر الذى يلجأ الى التجريد يحرم الشعر من عنصر حيوى من عناصره ، الا وهو الخيال .

والخيال بلغته الطبيعية الساحرة ، قادر على مخاطبة النفوس على اختلاف الاعمار ، وتباين الاهواء .

فهولذة الطفل الصغيركما هو متعة الشيخ الكبير ، وهو نزهة ساكن الكوخ ، كما هو تحفة صاحب القصر .

وما أجدر الشعر أن يحمل بين يديه الى كل هؤلاء : الفرحة والعزاء والسلوى .

مثلنا الأعلى فى الأسلوب

يقولون ان الكاتب الذى لديه مايقوله يلجأ الى الطريقة الكلاسكية فى التعبير ، أما الذى ليس لديه شىء فانه يلجأ الى الطريقة الرومانتيكية .

ولكن ماذا نقول نحن فيمن يلجأون الى أبعد من ذلك فيذروننا نعمه فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لا أول لها ولا آخر .

اننا مانكاد نشرع فى القراءة حتى نصاب بما يشبه الغثيان .

فنحن نسمع جعجعة ولكن لانرى طحنا ...

لاشك ان مانقرأ يدل على نشاط ذهنى . ولكن هل الأدب نشاط ذهنى فقط ؟

هل الادب مادة يفرزها الدماغ كما تفرز المعدة عصارتها اثناء الطعام ، وما على الكاتب الا ان يدير مفتاح ذلك الخزان الملآن حتى يسود بياض الصفحات الناصعة .

ان بعض مانقرأ يدل على الاطلاع ولاشك ، ولكن هل الأدب هو حفظ واطلاع فقط ؟

هل الادب هو ان ننقل من هنا وهناك دون ان نهضم ماننقل ، ونتمثل مانطلع عليه ، ودون أن نحيله الى جزء حى من كياننا ، وذرة دافئة من دمائنا .

وكيف نستطيع ان نبدى رأينا فى شىء غامض لانفهمه ، بل كيف يمكننا ان نفيد منه ، أو نعجب به ؟

مادمنا مصرين بالحاح على الاعجاب الأعمى بالأدب الأجنبى ، والجرى وراءه ، والسعى الى احتذائه ، والنسج على منواله ، فلن يكون لنا ادب واضح مستقل ، بل سيظل ادبنا متشحا بالغموض الذى يستر هزاله وتفككه .

نحن عرب مسلمون ، دستورنا فى الحياة القرآن ، فلماذا لايكون مثلنا الأعلى فى الأدب الاسلوب القرآنى ؟

لماذا لاندرس القرآن دراسة ادبية عميقة ، لنتذوق حلاوة عبارته ، وطلاوة صورته ، ودقة بيانه ، ونورانية افصاحه ، ولنكتسب من تلك الدراسة زادا لأسلوبنا ، وضياء لافكارنا ، بدل ان نعمه فى ظلام دامس ، ونجعل غيرنا يعمه معنا مرددا مع ابى العلاء :

وبصير الاقوام مثلى اعمى فهلموا فى حندس نتصادم

قيل انه بعد بزوغ فجر الاسلام ، لم يبق على الكعبة من المعلقات السبع سوى معلقة امرىء القيس ، ولكن ما ان سمع احدهم قوله تعالى :
وقيل يا ارض ابلعى ماءك ، وياسماء اقلعى .. حتى قام مسرعا ونزع تلك المعلقة .

فشتان بين : (يا ارض ابلعى ماءك) وبين (بمنجرد قيد الأوابد هيكل) .
فالأرض التى تبلع ماءها والصبح الذى يتنفس ، والشعر الذى يشتعل شيبا ، كلها صور قرآنيه فوق كل شعر ، وفوق كل روعة وسحر .
أفيكون عندنا مثل هذه الثروة التى لاتحد ، وذلك البيان الذى لايوصف ، ونروح نمد ايدينا بعد ذلك ، الى غيرنا ونستجدى ؟

هؤلاء أصل البلاء

تحدث احد النقاد عن عمر بن أبى ربيعة فقال : مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر .

ولكن ذلك الناقد تركنا حائرين ومضى ، ولم يبين لنا ما هو الشعر فى نظره ، وسمع غيره شعر عمر فلم يملك نفسه من أن يعجب به ويهتف قائلا :

هذا الذى نشدته الشعراء فأخطأته .

وبكلمته هذه ، زادنا تشوقا الى شعر عمر ، ولكنه لم يزدنا ، به معرفة .

لابد لنا إذن من البحث عن ناقد أخر يلقى ضوءاً اكثر على شعر ابى الخطاب .

وسرعان ما اطل ذلك الناقد يقول :

شعر عمر بن أبى ربيعة كالفستق المقشر . الآن برح الخفاء ووضعنا يدنا على مفهوم النقاد القدامى للشعر .

الفستق المقشر هو ولاشك الشعر اللذيذ الطعم ، اليسير الفهم ، السهل الهضم .

ولا غرابة فى ان يعجب العربى الاول بالشعر السهل الواضح البين الملامح .

فقد عاش طيلة حياته فى بيئة صحراوية لايكتنفها الغموض ولا الابهام . الشمس تشرق عليه كل صباح .. وتغرب عنه كل مساء ، نقية صافية .

والسماء تمتد فوقه زرقاء لازوردية والسحب مهما تلبدت وتكاثفت لا تلبث ان تدر ثم تنقشع . كل شىء حوله شفاف ومضىء .

ونفس العربى صافية شفافة كالصحراء التى يعيش فيها ، وكالشمس التى تشرق عليه وتغرب ، وكالسماء التى تمتد فوقه خيمة لازوردية لاحد لامتدادها ولا نهاية . ولذلك احب العربى الصراحة والوضوح ، وكره التعقيد والتكلف والتحذلق .

وكان من اول عيوب الشعر عند العرب الغموض والابهام ، والتداخل والالتواء .

ومرت الاعوام ، وهجر العربى الصحراء وخيامها ، وعرف المـــدينة وقصورها ، واختلط بسكانها ، وتأثر بالحضارات المختلفة ، والثقافات المتباينة ففقد شيئا من خصائصه الصحراوية ، ومزاياه الفطرية .

لقد فقد بعض صفاته وصراحته . وقد انعكس ذلك على شعره ، فداخله احيانا شيء من التعقيد والابهام لم يألفه العربى فى حياته الاولى ، حتى ان احدهم سأل مرة ابا تمام لم تقول مالا يفهم ، فأجابه ابو تمام على الفور : لم لاتفهم مايقال ؟

وهكذا رأينا احيانا ، ظلالا من الغموض والتعقيد فى شعر الطائى والمعرى ، وغيرهما من الشعراء .

ولكن الغموض عند هؤلاء الشعراء لم يكن ناتجا عن عدم وضوح الرؤية ، ولا عن اختلاط النور بالظلام ، وانما كان ناتجا عن الغوص وراء المعانى البعيدة والافكار الجديدة .

وجاء العصر الحديث ، ونهل العربى العلم والمعرفة من الغرب ، واعجب بحضارته وثقافته ، واطلع على آدابه فراح ينسج على منوالها ويقلدها دون الالتفات الى خصائصه الذاتية .

لقد نسى صفاءه الاصيل الذى انتقل اليه من اجداده عبر السنين ، ومازال يجرى فى عروقة ، فجاء شعره مزيجا عجيبا من الفوضى والاختلاط .

لقد جاء شعرا مضحكا مبكيا فى آن واحد .

فلا هو شعر عربى ، ولا هو شعر غربى ، ولا هو بين بين ، وانما هو صورة هزيلة مشوشة لكل منهما .

منذ اكثر من خمس وعشرين سنة ، على ما اذكر ، نشرت مجلة الاداب اللبنانية قصيدة لاحد رواد الشعر الحديث ، عبد الوهاب البياتى قال فيها :

السوق والحمر الهزيلة والذباب .. وحذاء جندى قديم ..

فما كان من الناقد الكبير مارون عبود الا ان صرخ فى وجهه بأعلى صوته : هذا ليس بشعر . هذا بمخلفات الجيش البريطانى أشبه .

ولكن ، وياللاسف ، لم يبق بيننا اليوم ناقد له ذوق مارون عبود ، وجرأته ، وثقافته ، ونزاهته .

لقد أصبح أغلب النقاد ، عفوا ، اغلب الذين نصبوا انفسهم نقادا ، يطبلون ويزمرون لهذا الشعر الحديث الذى غاص فى ظلمات حالكة ، بعضها فوق بعض ، واختلط فيه الحلم بالواقع ، والغيبوبة باليقظة .

لقد غدا الشعر الحديث نوعا من الصرع الفكرى ، ينسى الشاعر فيه ما حدث له ابان النوبة الشعرية ، ولايفهم هو نفسه ماقذف به لسانه أثناء فورة الالهام .

ويأتى بعد ذلك هؤلاء النقاد المضللون فيفسرون ، ويعللون ، وينسبون الى الشاعر مالم يخطر له يوما على بال ، كل ذلك بأسلوب ركيك ، أشد ركاكة من اسلوب الشاعر ، وبتعبير غامض اشد غموضا من تعبير ابياته ، وبجمل جاهزة ، وأفكار منهوبة ، التقطت على عجل من هنا وهناك ، من علم النفس ، او علم الجمال ، او من اساطير اليونان ، او من علم الاجتماع .

وبعد هياط ومياط ، كما قال المعرى فى رسالة الغفران ، يخرج القارىء وهو اكثر ضياعا ، واعمق حيرة ، واشد تمزقا ، ولايبقى فى ذهنه بعد كل هذا العناء سوى عبارات التمجيد والتهليل لهذا النمط من الشعر الحديث .

هذه الفئة من النقاد لم يعد يهمها جمال الاداء ، ولا سلامة التفكير ، ولا وضوح القصد ، وان كل مايهمها هو ماتمتلىء به القصيدة من شعارات تحبها وتمجدها ، وتدعو اليها .

لقد فات هؤلاء النقاد ان الانسان فى الشعر لايثاب على نيته الحسنة ، وانما يثاب على عمله الجميل .

هؤلاء النقاد هم اصل البلاء فى ادبنا الحديث . انهم المعاول التى تهدم بدل ان تكون الايدى التى تبنى ، او تساعد فى البناء .

لقد جعلوا الشعر الكسيح يستند على عكازين ويرقص ، ونفخوا فى الشعراء الاقزام حتى حسبوا انهم حقا جبابرة عباقرة .

والا فما هذا الغثاء الذى عم وطم ، وهذا الجراد المنتشر فى حقولنا الادبية .

لقد ذكرنى بذلك كله مقال الاستاذ محمد مدنى بن حمد المنشور فى عدد عكاظ الفائت .

فما كنت اتصور ان يهبط الشعر ، على يد محمود درويش وامثاله من رواد المحدثين ، الى هذا الدرك الاسفل من السخف :

هذا هو الحب الجميل
واحب ان تأتى لتمضى

طائرات
طائرات
طائرات
حاور السجان صمتى
قال صمتى برتقالا
قال صمتى هذه لغتى
وارخت اللقاء

الصخر يهتف لاسمك الوحشى كمثرى ....

الكاتب والكتابة

الكتابة عند بعض الكتاب هواية جميلة محببة ، تفتح لهم افاقا جديدة ، وتجعلهم اقدر على التأمل ، واكثر ادراكا لخفايا الحياة ، واشد تذوقا لالوانها المختلفة ..

والكتابة عند بعضهم الاخر تعنى اكثر من هذا .

انها ضرورة حيوية ملحة لاغناء لهم عنها ، فهى عندهم كالهواء والماء والغذاء ، وهى مبرر وجودهم على هذه الارض ، فاذا مازال ذلك المبرر فقدوا طعم الحياة ، ولم يبق لوجودهم بعد ذلك من معنى .

لذلك كان اقسى عقوبة لمثل هؤلاء الكتاب هو ان يختم على افواههم ، وتحطم اقلامهم ، وما افدحها من محنة آنذاك !

فهم يتشبثون بالقلم ، كما يتشبث المحارب بسيفه ، فلا يدعونه يسقط وفيهم قلب يخفق ، وذهن يجول .

ولكن ليس معنى ذلك ان الكاتب سيال القريحة دائما . فقد تمر به فترات خصيبة تنثال المعانى عليه انثيالا ، وتأتيه الالفاظ طوعا ، فينتج فى ايام ما لاينتجه فى اعوام .

وقد تمر به فترات جديبة يعصر فيها ذهنه فلا يبض بقطرة ، ويدفع قلمه فيحرن ، ويأبى ان يتقدم .

ولكن هذه الفترات الشحيحة ليست فترات شلل فكرى ، وانما هى فترات ضرورية لابد منها للكاتب .

انها فترات امتصاص واختزان . فكما ان الارض العطشى تستقبل قطرات المطر ، وتحتفظ بها فى احشائها ، فتخرج فى الربيع القادم ، ازهارها الرائعة ، كذلك الكاتب يجمع اشتات الرؤى واصناف المعانى ويختزنها فى اعماقه ليخرجها بعد ان يتم نضجها .

وما أعظم فرحة الكاتب حين تؤتى تلك الرؤى أكلها ، وتطلع تلك المعانى ازهارها ، عندئذ يشعر بنشوة الابداع ، ويحس براحة من يتخلص من عبء ثقيل ، فهو يشارك فى تجميل الحياة ، وتنضير حواشيها ، وهو يزيح الغطاء عن بعض اسرار الكون الخفية .

ان الطبيعة صامتة لا تتحدث الى من كان فى اذنه صمم . وهى ذات لسان وشفتين عند من يرهف السمع ، ويحسن الاصغاء .

ان كل مخلوق من المخلوقات وكل كائن من الكائنات يتحدث بلغة خاصة ، جهرا او همسا .

والفنان وحده هو الذى يفهم حروف تلك اللغات ، ويفرغ ذلك الحديث فى سطور من النثر أو أبيات من الشعر ، أو فى لوحة مرسومة ، أو فى نغمة مجنحة .

وليس من احد اوثق علاقة بالكائنات والاحياء ، ولا اكثر اخلاصا لتلك العلاقة من الكاتب .

فهو كثير الاصدقاء على اختلاف الاشكال ، وتعدد الالوان والازياء . كل ماتقع عليه عينه يترك فى نفسه اثرا لايمحى ، وشعورا لايزول .

ولذلك كان شديد الالفة عظيم الوفاء لكل ما حوله . فهو صديق الليل كما هو صديق النهار ... وهو صديق الربيع كما هو صديق الشتاء ... وهو محب للزهرة اللطيفة كما هو محب للدوحة الباسقة .

وهو وفى للفرح ، وفاءه للحزن .. وألفته للالم لاتقل عن ألفته للذة .

لقد عز على المتنبى ان يرد الى شبابه دون ان يفارق شيبه باكيا فقال :

خلقت الوفا لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وابن المعتز كان يهوى القبح كما كان يهوى الحسن :

قلبى وثاب الى ذا وذا   ليس يرى شيئا فيأبــاه
يهيم بالحسن كما ينبغى   ويرحم القبح فيهـــواه

فالكاتب صديق حميم لكل مافى هذا العالم الواسع ، صديق لكل مايرى ويسمع ويحس . وهو حين يكتب ينغمس فى دنيا تعج بالصور ، وتضج بالحركة ، فهو يتذكر ويتخيل ويحاور ، وينفعل ، ولا ينسى أى شىء سوى نفسه .

وعالمه هذا عالم ودود ، تؤنسه الالفة ، وتغنيه الذكريات الحاضرة والغابرة .

لذلك كانت الحيلولة بينه وبين أصدقائه حيلولة بينه وبين الحياة ذاتها بكل مافيها من ثروة وامتلاء ، وتعاطف ومودة .

ان مثل هذا الكاتب لايسعه ان يعيش منفيا فى صحراء جليدية ، ولايطيق ان تمسى حياته خاوية اشبه بالموت .

ولا غرابة بعد ذلك فى جواب كاتب مثل اندره جيد ، وهو الكاتب المخلص الذى نذر نفسه للكتابه .

لقد طرح مرة عليه هذا السؤال :

لو حيل بينك وبين الكتابة فماذا كنت تفعل ؟

فأجاب الكاتب الكبير على الفور :

وهل يبقى امامى سوى الانتحار ؟

أدب شاحب

* جيلنا الادبى الجديد جيل عجول لا مكان عنده للتأنى والتروى ، جيل جعل شعاره كلمة أمين الريحانى المشهورة : قل كلمتك وامش .

فما أكثر الكتب التى تصدر ، وما أكثر المقالات التى تنشر ، ولكن ما أقل ما تترك من أثر . نحن نقرأ الكتاب لاهثين ، ولانعود فى حاجة الى الرجوع اليه مرة ثانية ، ونحن نقرأ الكتاب لا لنغرق فيه ، ولالنناقش معانيه ، ولا لنتعلم منه حلاوة التعبير ، وبراعة التفكير ، ولكننا نقرأه لنستعين به على جذب النوم ، أو لنزجى به أوقات الفراغ ، أو لنلتمس فيه بعض التسلية العابرة ...

ولا شىء وراء ذلك .

* ان الكاتب لم يعد اليوم يهتم بالاسلوب أو يأبه للفن ، وانما همه كل همه ، أن يفرغ مايدور فى خلده ، أن يتخلص مما يقلق ذهنه ، ان يدلى برأيه ، أن يثبت وجوده ، ان يقول كلمته ويمشى ...

* ولذلك صار فى وسع كل انسان أن يكون كاتبا أو أدبيا أوشاعرا ، حتى ولوكان لايعلم شيئا عن دقائق اللغة ، ولايتقن شيئا من مبادىء النحو ، ولا يعرف أى وزن من أوزان الشعر ؛ ما عليه الا أن يكتب ، ويكتب ، ليصبح بعد ذلك نابه الاسم ، ذائع الصيت .

لقد ذهبت الاساليب العظيمة يوم ذهب الادباء العظام .

* كان لكل واحد منهم أسلوبه الشفاف المتميز الذى ينم عنه ويدل عليه . فهل عوضنا عن هؤلاء الادباء الغائبين الحاضرين ؟

حتى اليوم لم يستطع كاتب ان يخلف طه حسين فى أسلوبه المعجب المطرب ، ولا الزيات فى أسلوبه الدقيق الانيق ، ولا المازنى فى أسلوبه السهل الممتنع ، ولا الرافعى فى أسلوبه المولد المجدد ، ولا العقاد فى أسلوبه الباحث المتروى ، ولا زكى مبارك فى أسلوبه الرشيق الحركة ، السريع الانقضاض ..

ومن من الشعراء ، اليوم ، مثل شوقى وحافظ ومطران والبارودى ، فى أساليبهم السليمة القويمة ؟

* ان شاعرا كبيرا مثل نزار القبانى لم يتورع ان يقول فى ذكرى طه حسين ، فى قصيدته التى أحدثت دويا هائلا فى الاوساط الادبية المصرية ، كما ذكرت عكاظ ، نعم ان شاعرا مشهورا كنزار لم يتورع أن يقول فى ركاكة :

عد الينا .. فان عصرك عصر ذهبى ، ونحن عصر ثانى . عد الينا ... فان مايكتب اليوم صغير الرؤى ، صغير المعانى . وهو ولاشك يقصد ان عصرنا نحن عصر آخر يختلف عن عصر طه حسين كل الاختلاف ، أما (نحن عصر ثانى) فلا تعنى الا أن عصرنا عصر ذهبى مثل عصره ، وهذا مالم يخطر للشاعر ببال .

أرأيت دقة تعبير الشعر عن خلجات الشعور .. والفكر ، عند جيلنا الحاضر .

* إن عدم الاهتمام بصياغة الشعر مسمار يدق فى نعش الادب ، ووسيلة لافساد أذواق الناشئين الذين يترسمون خطى الكبار ، ويتخذون منهم مثلا عليا للفصاحة والبلاغة والتجديد .

لقد كان أسلافنا من الشعراء والادباء دقيقين جدا فى اختيار كل كلمة ، وكل حرف ، فجاء انتاجهم غاية فى روعة البناء ، وصحة الاداء ، حتى ليكاد يستحيل زحزحة أية كلمة أو أى حرف عن مكانه الذى استقر فيه .

كان كلامهم ينقش فى صخر ليبقى خالدا أبد الدهر .. نعم لقد انقرضت الاساليب العظيمة يوم ذهب الادباء العظام .

وأصبحت أساليبنا بعدهم رخوة مفككة كأنها أطراف الاطفال المصابين بالخرع .

* ذلك لاننا لم نعد نهتم بلغتنا الاهتمام الكافى ، ولم نعد نصقل ألسنتنا بمطالعة أدبنا القديم الفصيح ، حتى غدا أدبنا الحديث شاحبا هزيلا كأنه مصاب بفقر الدم .

* وياليت الامر وقف عند هذا الحد ، فقد أصبحنا نرى بعض مشاهير الكتاب يطرزون مقالاتهم بالكلمات الاجنبية ، ويزرعونها بالتعابير العامية ، كما كان الكتاب فى عهود الانحطاط ، يطرزون كتاباتهم بالمحسنات البديعية ، كل ذلك

ليوهمونا بسعة اطلاعهم ، وضيق اللغة عن احتواء أفكارهم .

* ان لغتنا العربية لغة غنية ولا حاجة الى مثل هذا التسول ، ولا الى مثل ذلك الترصيع والترقيع .

فاللغة التى وسعت كتاب الله ، لاتضيق عن أدب المحدثين مهما كانت أفكارهم غزيرة ، ومعانيهم بعيدة الغور .

إن البناء لايستطيـــع أن يبنـــى جدارا مالم يكن ملما بأصول العمارة .

* والطبيب لايستطيع ان يداوى عليلا مالم يكن مطلعا على مبادىء الطب .

كذلك الاديب لايستطيع أن يكون أديباً مالم يكن مدركا لدقائق لغته ، مطلعا على تراث أمته ؛ إن الاديب لايمكنه الوصول الى قمة الادب الا على سلم من اللغة متين .

ومالم تكن لغة الكاتب قوية سليمة ، يظل مايكتبه ، كلمات فى الهواء ، لاتقوى على الثبات أمام رياح الزمن .

شعرٌ بلا فن

بعض الشعراء لانسمع أصواتهم الا حين يولد مولود ، أو يعود غائب ، أو يشفى عليل ، او يرحل راحل .

انهم لايرفعون عقيرتهم بالغناء الا تسجيلا لمناسبة عابرة ، او احتفالا بحدث طارىء ، فهم قلما ينصتون الى دقات قلوبهم ، او يتأملون خلجات نفوسهم ، كأن الشعر عندهم سلعة تباع ، او هدية تقدم كما تهدى سلة من بواكير الثمار .

ان امثال هؤلاء قد هبطوا بالشعر من عليائه ، وجعلوا بعض الناس ينظرون اليه وكأنه اداة من ادوات الكسب ، مع ان الشعر ارقى فنون الادب ، وابعده عن الربح ، وما هو الا عبير القلب يودع فى الفاظ ، وشعاع الروح يقدم فى الحان .

ولا اقصد من فكرتى هذه ان اغض من مكانة شاعر كبير مثل المتنبى .

فالمتنبى عبقرية فذة لم تسجن نفسها وراء قضبان شعر المناسبات ، وانما كانت تتمرد على القضبان وتنطلق منها فجأة كالصقر لتشق عباب الفضاء .

كما ان للمتنبى عذره ؛ فلم يكن الشعر فى عهده او قبله يعرف وحدة القصيدة ، وانما كانت القصيدة مزيجا من الغزل والفخر والمدح والوصف والحكمة . وكان مقياس الجودة فى ذلك الزمان روعة البيت الواحد او البيتين ؛ حتى انهم كانوا يقولون : اشعر الناس من قال كذا وكذا ... اما اليوم فقد اختلفت مقاييسنا الجمالية عن مقاييسهم بالأمس ، كانوا يقيسون بالذراع والشبر فصرنا نقيس باليارد والمتر . لذلك لم يعد يستهوينا ذلك النمط من الشعر ، ولم نعد اليوم نرتاح لشعر المناسبات الذى يحشر فيه الشاعر كل ماهب ودب ، .. كأن قصيدته مخزن من مخازن (السوبر ماركت) فاللحم الى جانب الفجل ، والزبدة الهولاندية الى جوار العطور الباريسية ، وكأن الشاعر بدوى تائه فى صحراء لا اول لها ولا آخر ، ولا عمل له الا ان يجلجل بصوته ليؤنس قلبه من وحشة الطريق ، وفقدان الرفيق .

لقد آن لشعر المناسبات ان ينقرض ، .. وحان للشعر المتنافر ان يخضع لرهافة الفن ، وينصهر فى بوتقة واحدة ، ويأتلف فى عقد واحد .

نريد من الشاعر اليوم قصيدة تنبثق من ذاته ، من منبع شعوره ، من تموجات وجدانه ، لا قصيدة تفرضها الظروف أو توحيها المناسبات .

نريد قصيدة لها خط سير واضح ، محدد تجرى على هديه ، وكل جزء من اجزائها يرفد الجزء الآخر ويدعمه ، وكل لحن من الحانها يكمل اللحن الاخر ويتمه ، كما تتجمع قطرات المطر من هنا وهناك ، فتكون السيل المندفع ، او كما يأتلف الشذى واللون والنضارة فيكون الزهرة العبقة .

نريد من الشاعر ان يحكى لنا اندهاشه ازاء عظمة الكائنات ، ويروى لنا احلامه فى هذه الحياة ، ويصور لنا انفعالاته فى لحظة من اللحظات ، دون ان يجعلنا نحس بدوار فى الرأس ، او طنين فى الاذن .

نريد من الشاعر ان يفرز قصيدته فى خيط متصل واحد ، كما تفرز دودة القز خيوط الحرير فى هدوء ، ودون اى صخب او جلجله.

لم يعد اليوم مكان للشعر الخطابى المجلجل الذى يقرع الاسماع كالطبل ، ثم يذهب بددا مع الريح .

نريد شعرا تهمس اصداؤه فى اعماقنا ، يشد من ازر ملكاتنا الخلاقة ، وينشر امام ابصارنا جوا شفافا من الاحلام ، نمرح مع الشاعر تحت افيائه ، ونتمتع معه بعذوبته ، لا شعر تفصلنا جلجلته عن معناه ، وتقيم بيننا وبينه جدارا صفيقا من النفور والجفاء .

نريد شعرا يعبر عن تموجات الشعور ، شعرا يصور حالة من حالات النفس المتذبذبة ابدا بين طغيان الفرح وانسحاق الحزن ، بين ظلام اليأس وضياء الرجاء ، بين مد القوة وجزر الضعف ، بين التدله بالجمال ، والتقزز من القبح .

نريد شعرا يختال فيه خيال الشاعر المبدع فى ابهة ، لا شعرا يغير على الموتى فيسلبها اكفانها المهترئة .

ان الشاعر الضئيل الخيال يعتمد على تعابير غيره الجاهزة وليس فى مقدور انامله ان تنحت اى تعبير . فما اسهل ان يبنى قصيدته من حجارة الاخرين ،

ولكن ما اصعب ايضا ان يجعل قلوبنا ترتعش لبوحه ، وتطرب لغنائه .

ان المعانى والافكار تكاد تخطر على كل بال ، وليس الشاعر وحده هو الذى يخترعها او يحس بها . فالنفوس لاتطرب لشعره ، ولا تهتز له مالم يلامس فيها ظلالا كانت عائمة واصداء كانت نائمة ، فاذا هو يوقظ هذه الأصداء ، ويوضح تلك الظلال بما له من اسلوب بارع ساحر .

ان طريقة تقديم المعانى هى التى تضفى عليها الفتنة او الابتذال ، وهى التى تجعلها تتوهج او تنطفىء .

وهنا يلعب الخيال لعبته ، والذوق الفنى دوره الفعال .

الم يقل ابن رشيق فى العمدة : ان المعانى مطروحة على قارعة الطريق .

الم يفت الجاحظ بأن من اخذ معنى من غيره والبسه لباسا احسن ، كان احق به من صاحبه .

ان الطبيعة زاخرة بالمعانى ، وهذا ما دعا كاتبا مثل اندره موروا الى القول فى كتابه فن الحياة :

(الفن هو الانسان مضافا الى الطبيعة .....)

ان الكون متحف كبير لاتنتهى عجائبه . وكتاب ضخم لاتنفد كلماته .

والطبيعة هى التى نستمد منها المواد الاولية الضرورية للفن ، والشاعر هو الذى يهضم هذه المواد ويحيلها فى داخله الى اثر جميل ، تماما كالجذور التى تمتص غذاءها من باطن الارض ثم تطلع ازهارها .

وليست الطبيعة وحدها هى التى تمد الشاعر بهذه الروافد الخصبة ، فالكتب وتجارب الاخرين لها ايضا دور كبير ، فهى لاتفتأ تمدنا بفيض من المعانى والافكار لايشح ولاينضب .

ولذلك يمكننا القول ايضا ان الفن هو الانسان مضافا الى الكتب التى يطالعها .

لقد أصبح المعنى اليوم متداولا بين الناس ، كالعملة الرائجة ، وما اسهل العثور عليه ، لكن الذى يهم فى الشعر قبل كل شىء هو طريقة العرض بالاسلوب الخاص ، فهى التى تجعل من المعنى المطروق معنى جديدا ، ومن الفكرة المألوفة فكرة طريفة . وما لم يكن فى اهاب كل شاعر روح فنان فهيهات ان يظفر شعره اليوم باعجاب أو استحسان .

الشعر الحر والشعر العمودى

الشعر كالطائر لايستطيع التحليق الا بجناحين من النغم والصورة .
وقد شبه (بول فاليرى) الشعر بالرقص ، والنثر بالمشى .
فهل يمكن أن يتم الرقص الا على الانغام ؟
ان أى شعر يخلو من الوزن والقافية لايعتبر شعرا كاملا ، كما ان الشعر ليس هو الوزن والقافية فقط .

الشعر الحقيقى هو الشعور الذى يتدفق فى الوزن والقافية كمايتدفق النسغ فى أوراق الشجرة ، إن الوزن سهل المنال ، ولكن القافية هى المطلب العسير .

والشاعر الاصيل يعرف من قوافيه الملاح . ولكم سهر الشعراء الليالى الطوال يجرون وراء القافية الشرود .

لذلك عمد الشعراء الجدد الى الاسهل : الى الشعر الحر المنفلت من قيود القافية ، فرأينا كثيرا من المتشاعرين يلوذون به لا لميزة له ، ولكن خوفا من الغرق .

لقد استسهلوا الشعر الحر فركبوه ، واستصعبوا الشعر المقيد فاجتنبوه ، وليس كل سهل جميلا ، فالجميل يحتاج دائما الى معاناه وصبر طويل ، ولا يبلغ الا بالتعب والسهر والعرق .

أنا لا أنكر ان المحافظة على القافية الواحدة فى القصيدة الطويلة تحتاج الى ثروة لغوية كبيرة ، وتطلب اطلاعا واسعا على دواوين الشعراء ، وقد تضطر الشاعر احيانا الى التكلف أو الترقيع ، وقد تحرمنا من مواهب شعرية فذة ليس لها القدرة على خوض ذلك البحر الخضم ، ولكن هل من الضرورى اطالة الشعر لا لشىء الا لاظهار البراعة اللغوية ، أو التباهى بطول النفس الشعرى .

فكم من قصيدة قصيرة متقلة بكنوز الشعر ، نابضة بدفء الشعور ، أكثر من ملحمة مطولة محنطة .

ولكى يتغلب الشاعر على صعوبة القافية ، ولكى يكون فى منأى عن التكلف أو الترقيع ، يمكنه ان يلجأ فى القصيدة الواحدة الى تنويع القافية ، والمراوحة بينها ، كما فعل شعراء المهجر ، فازداد شعرهم الهاما ، ولم ينقص انغاما ، بل إن ذلك التكوين أمدهم بفيض من الحرية ، فجاءت صورهم الشعرية أكثر تنوعا ، وانغامهم أكثر صفاء ونقاء ورقة .

يقول الشاعر (أيليا أبو ماضى) : أراد الله أن نعشق لما أوجد الحسنا وألقى الحب فى قلبك اذ ألقاه فى قلبى مشيئته وماكانت مشيئته بلا معنى .

فان أحببت ماذنبك أو احببت ماذنبى . لقد حافظ أبو ماضى هنا على وزن الشعر وراوح بين القوافى فلم نشعر بتمزق أو تقطع أو تنطع ، وأنما كانت ألحانه تتدفق صافية كينابيع الجبال .

ولم نحس فى قصيدته بنشوز يصدم ذوقنا ، كما نحسه اليوم فى شعر بعض المجددين الذين ينقون كالضفادع على حوافى الترع ، متجاهلين مافى الوزن والقافية من موسيقى لاتوصف ، وانغام لاتحد .

ولكن الوزن والقافية ليسا وحدهما مصدر الموسيقى فى البيت ، فالموسيقى التى تنبع من تركيب الفاظه لاتقل سحرا ، عند الاذن الذواقة ، عن تلك التى تنبعث من الوزن والقافية ، ان لم تكن اكثر تأثيرا وروعة . لنردد هذا البيت البسيط :

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

انه بيت عادى لا صورة رائعة فيه ، ولا لمحة عجيبة مبتكرة ، ولكنه مع ذلك يتلألأ بالحسن ، انه سمفونية تنفرط انغامها على مرأى من عيوننا ، ومسمع من أذاننا ، وهنا سر جماله .

لقد استطاع الشاعر بتكرار النونات هذه أن يبدع جوا موسيقيا شفافا يشحننا بالطرب قبل ان نفهم معناه .

ان الشاعر الحقيقى يعرف كيف يختار ألفاظه ويعرف كيف يضم بعضها الى

بعض ، كما تضم اللآلىء فى العقد ، حتى تستطيع أن تفرغ كل رنينها الموسيقى الساحر . انه يرق فى الغزل ، ويجزل فى الفخر ، ويختار الوزن الشعرى الذى يلائم جوه النفسى ، وبكلمة اخرى انه يلبس لكل حالة لبوسها . فهو تارة يعزف على وتر نحيل يصدر عنه لحن يشبه الهمس ، وتارة يعزف على وتر جهير يضج كأنغام الجاز .

وفى الحالتين لابد له ان يطرب والا لم يكن شعره شعرا .

فموسيقى الشعر تنجم اذن من الوزن والقافية وتركيب البيت وكل منها يتم الآخر ، ويرفده بالنغم ، ويسنده ، واذا فقدت القصيدة عنصرا من هذه العناصر اصاب موسيقاها التشوه والنشوز .

ان الشعر الحر يفتقر الى اجتماع تلك العناصر على صعيد واحد وفى آن واحد .

انه يفتقر الى الموسيقى الكاملة وان كان لا يفتقر الى الصور الاخاذة البارعة .

لذلك يظل رنينه الموسيقى مبتور الالحان ، مبحوح الانفاس ، يقول (فرلين) :

فى الشعر ، الموسيقى ،

الموسيقى قبل كل شىء ...

ان الشعر الذى لا موسيقى فيه كالزهرة التى لا عبير لها ، انه كالوردة الاصطناعية ، إن اعجبت ألوانها العيون فلن يبلغ شذاها النفوس ولا يمكنها أن تسكب النشوة فى القلوب .

إنه كالطائر الذى فقد احد جناحيه فهو يستطيع السير ولكن هل يستطيع الطيران ؟

لقد وجد الشعر ليغنى .. ليردد فى همس بين حنايا النفس ، أو لينشد أمام الجماهير بصوت جهير ، ولم يوجد ليطالع بالعين كما يطالع النثر .

ان الشعر والنغم شيئان متكاملان لاينفصلان ، فلولا الشعر لما كان النغم ، ولولا النغم لما كان الشعر .

هذا الشعر أعرج ولو رقص

كنت أود أن لا أخلع هذا الرداء المشوه ، على الشعر الجديد ، الشعر المؤمل ، الشعر الحر .

فالشعر فى رأيى يتمرد على القيود ، ولايخضع للحدود ، وكل شىء تستطيع أن ترسم له الدرب والمسالك الا الفن .

فالفن زنبقة غضة اذا وضعتها فى آنية ذبلت واحتضرت بعد حين .

والفن موهبة عارمة ، جامحة ، متدفقه ، لاترضى أن تستقر فى قوقعة ، والا فقدت هواءها النقى ، وتموجها الذكى ، وأدركها فقر الدم .

والشعر فى رأيى هو أرقى الفنون جميعها ، وأحفلها بالجمال واكثرها ضما لعناصر الحسن . فما هو الشعر ؟

الشعر ان تغنى فتطرب ، لا أن تسمع فتعجب . والرنة الحلوة هى أول مايوحى الطرب .. هذا ما حفز شاعرا فرنسيا (كفرلين) الى القول فى قصيدة له عن الشعر :

الموسيقى .. الموسيقى قبل كل شىء آخر ... وعندى ، كل شعر خلا من الهدهدة وتجرد من النغم ، ليس شعرا . سمه ماشئت من الاسماء ، واخلع عليه الثناء بسخاء ، سمه فنا رفيعا عبقريا ، سمه فتحا مبينا فى دنى الفكر وآفاق الخيال ، سمه سبرا لمجاهل النفس المعتمة ، وتسللا الى دهاليز الضمير الملتوية .

سمه ماشئت من الاسماء .. اخترع له أى اسم ، وابتكر له أى وصف ، وأغدق عليه ماطاب لك من ألقاب ، ولكن بربك لاتسمه شعرا أمثل ، لاتسمه شعرا .

يقول شاعر عربى :

منى أن تكن حقا تكن أحسن المنى   والا فقد عشنا بها زمنــا رغدا

أنا لا أقول بأن هذا البيت يحفل بالمعانى المدهشة ، ولكن الا تشعر معى بانك اكثر طربا وارتياحا ، واهتزازا بعد سماعة وان شيئا كالسحر يهطل فى نفسك ، وان دفقة شعورية عذبة تنساب فى أعماقك ؟

هذا هو سر الشعر .

ويقول شاعر عربى آخر ، لم يطلع على الرمزية الحديثة ، ولم يتتلمذ يوما على الاب بريمون ولا على بول فاليرى ، ولكنه يتقن جيدا فن كيمياء الشعر

تكاد يدى تنــدى اذا مالمستها   وينبت فى اطرافها الورق الخضر

أفلا ترتفع على جنــاح نشــوة النغم ؟

هذا   هو   سر   الشعر

ويقول الشاعر اللبنانى أمين نخله بيتا يتوشح بالبساطة :

ياغصـــن يامضنـــى بلاسبب   مل نحونا ، ياغصــن يامضنى

أفلا تحس بانعطاف فى الاعماق ، كانعطاف ذلك الغصن المضنى الذى استجاب لنداء الشاعر المتأوه ؟

أو كان ذلك الشعر الحلو لو لم تكن تلك الرنة الحلوة جارية فى عروقة جريان النسغ فى ورق الشجر ، والعطر فى أضلاع الزهر ، ذلك أن الشعر منذ اكتحلت عينه بالنور ، ومن أزل الآزال ، تنفيس عن كرب ، وتعبير عن حب ، كل ذلك فى نشيد متصل الرنين والايقاع ، متجاوب الاصداء فى مسارب النفس .

بدأت هذه المقدمة لأؤكد أن جوهر الشعر الصافى هو النغم . أنا لا اقول بأن الشعر المتشح بالنغم هو الشعر الامثل . فلابد مع الرنين المهدهد من تشابيه

مبتكرة ، خصبة ومن عاطفة أصيلة ، وكل شعر خلا من هذه الاوصاف الحسان مكتملة ، لايستطيع أن يتموج فى آفاق الجمال .

وبعـــــــد ....

هل استطاع الشعر الحديث المؤمل ، الشعر الحر أن يمتع أسماعنا قبل كل شىء ، وأن يلذ قلوبنا ، وأن يشرح صدورنا ، ويجعلنا نشعر بالاهتـزاز والارتياح ، وبالتالى هل استطاع أن يخلق فينا حالة تسمى الطرب . أغلب الظن لا ؟

فى بعض الشعر الحديث الحر وثبات رائعة ، ولفتات بارعة ، وومضات خلابة ، مجنحة مذهلة ، سابحة فى نعيم العافية ، ولكنى مع ذلك لا أسميه شعرا مالم يكن فيه مايشبه سجع الحمام ، وعندلة البلابل .

واذا كنا طربنا لبعض ذلك الشعر الحر فما ذلك الا لأنه كان محافظا على قدسية الرنين العربى الخالد ، مع تصرف اللبق الصناع اليد الذى يصوغ من شذور الذهب تهاويل وروائع لاتمر الا فى بال الملهم .

أما هذا الشعر الذى نسف الجسور بينه وبين الماضى بحجة تجديد شبابه ، وبث دم الحياة الصافى فى شرايينه ، وتخليصه من ذل الأسر ، وعنت القيد : هذا الشعر الحر الذى ابتلى بالنثر لايسمى فى رأيى شعرا .

سمه ماشـئت من الاسماء ، وأخلع عليه الثناء فى سخاء ، سمه فنا رفيعا عبقريا ، سمه فتحا مبينا فى دنى الفكر وآفاق الخيال ، سمه ماشئت ولكنى لا أجد فى هذا الشعر نكهة الشعر الحق النقى ، لانه فن العاجز عن بلوغ الكمال ، فن العاجز عن اللحاق بعالم النغم المتوج ، فن العاجز عن أسر الكلمة، وهدهدتها فى مهد الجمال ، وجعلها تشعر ، وهى فى اسار المادة بحرية الزهر فى الخمائل ، وسكبها فى موكب من الرنين المتصاعد المتكامل .

احقا يضيق الشعر العربى الاصيل بامتداد خيال الشاعر الجبار ، ويغص عن وثباته ، وتموج أحلامه وأشواقه ، وتلوى أحزانه والامه ؟

لا أظـــــــن : .....

ان شاعرا عربيا معاصراً فى لبنان ، خصيب الاطلاع على الادب والفكر والنفس ، سكب فى القالب العربى الاصيل أروع أنواع الشعر الانسانى ، وصنع ملاحم بطولات العرب (عيد الغدير وعيد الرياض) ، وجعل من القصيدة التى ينوف عدد أبياتها على الثلثمائة ، والتى تنصب على بحر واحد ، وروي واحد ، جوقة موسيقية كأنها شلال من النغم المتدفق ، وأجبرنا على الاستماع له فى استمتاع ، وكأن نشيده صدى النهر الخالد الذى يتدهدى بين أزل الآزال وأبد الآباد ، وهو على الجريان يزداد حلاوة ، وطلاوة : ان فى وجود شاعر معاصر مثل بولس سلامة فى هذه الحقبة من التخبط الشعرى لمثل معنى الفأس فى اصول شجرة الشعر الحر المتزاهية ، وانه الشاهد الحى الذى يشير بالبنان الى عجز هذا الشعر وشلله وعدم استكماله وجوه الحسن .

ان الذين يجرون فيلهثون من أول الشوط ، ويقولون أن المدى بعيد يقطع الانفاس : على هؤلاء أن يفحصوا صدورهم ، ويتلمسوا أجنحتهم ، فقد تكون صدورهم لاتقوى على الجرى لانه ليس فيها قلوب العمالقه ، وقد تكون أجنحتهم هشة لينة العظام لاتقوى على التحليق فى أجواء الشعر العليا .

جور ان يهزأوا بالفرس السابح ، والسيل الدافق ، لأن اقدامهم لاتحسن الرقص ولاتتقن غير المشى .

الشعر الحق قفز وجمز ، صعود قمم ، وهبوط اودية فى لحظة خاطفة ، وليس هو تسكعا فى دروب الظلام للم فتات الحياة على مافيها من ترهات ، وهنات .

دعوا ذلك للقصة فلها المجال الارحب .

للشعر مجاله ، وللعلم مجاله ، وللنثر مجاله .

وختاما ، الشعر الحق فى رأيى هو أن تسحر وانت تغنى وان تنشد فتطرب .

وقد فطن لذلك نقاد العرب القدامى فقالوا عن الشعر الجميل :

هذا شعر لو نقر عليه لطن .

أما هؤلاء الذين ينقون على حافة الشعر كالضفادع فى الليالى المقمرة فلهم

صداهم ولكنه على كل حال ليس صدى الشعر الصافى الذى يعبر عن حسن القمر .

وبعد فان الشعر الحر اعرج ، ولو رقص ، وليس يشفيه من مرضه الا تسلسل النغم .

لقاء مع الفاسي

على أشلاء الشعر

ذكرت فى مقال لى سابق أن الشعر الحر شعر اعرج ولو رقص ، وتعرضت الى ما فيه من نشوز ، وعدم تسلسل فى النغم ينأى بالسامع عن الطرب .

واليوم تطالعنا (الرائد) بقصيدة من هذا الشعر الجديد ، للشاعر الرقيق الاستاذ احمد عبد الله الفاسى ، فأجدنى ازداد كرها لهذا الضرب من الشعر ، وارانى المس لمس اليد ارتخاء اعصابه ، ورخودة عظامه ، وعجزه عن ارتداء لباس الشعر ، وتقصيره عن جمال النثر ، وبكلمة موجزة عدم قدرته على البيان مع الامتاع .

واننى كلما زدت النظر فى هذه القصيدة ، فى هذا النمط من الشعر الحر ، فى هذا الشعر الجديد ، زدت اقتناعا بفشله فى أن يسبق الشعر الاصيل ، بله ان يجاريه فى حلبات الجمال وايقنت انه يمشى خلفه ويلهث ، ويظل يلهث كالمصاب بمرض القلب .

يقول الشاعر الرقيق الانيق الاستاذ الفاسى فى قصيدته ، عفوا فى ريبورتاجه (لقاء على اشلاء العفريت) :

(هذا سر التعليلات الشتى . فالحيرة قد اودت ببقية ما أحمله من فرحة ، حتى فرحة لقيانا قد أفسدها هذا الخوف . الخوف من الفرقة تجتاح هوانا ، فتبدده فى تيار من لج عات .. لا يرحم)

أهذا هو الفستق المقشر ؟ اهذا هو الشعر الذى طلبته الشعراء فأخطأته ؟ أهذا هو الشعر ؟

ويقول الشاعر الفاسى ، الشاعر الفاسى ذاته بلحمه ودمه فى قصيدته (مغرب زهرة) :

ذوت وربيع العمر مازال مخصبا وغيب غور اللحد وجها محببا
واخرس منها الموت صوتا مغردا وقصــف آمــالا واطفــأ كوكبا

نعم الفاسى ذاته هو الذى قال هذا الشعر الذى فيه شىء من غضارة الزنبق ، وسجع الحمام ، وروائح الربيع ورفيف العافية ، وهو هو الذى قال أيضا ذلك الشعر الحر الا بكم ....

أهذا الشعر الحر شعر ؟ أشك فى ذلك بل اكاد انفيه من خمائل الحسن ، لانه لايمتعنى ، والشعر فن غايته قبل كل شىء امتاع النفس ، فهل امتع هذا الضرب من الشعر نفسا غير نفسى .؟

أين تقصف الآمال التى تجعلك تحس بتكسر الاغصان اليابسة ، وتشعر بخشخشة تهشمها ، اين هذه الدقة فى نقل دفقة الشعور الباطنى ، ولقط الانفعالات وهى لاتزال طازجة ، وصبها وهى لاتزال دافئة : اين هذا كله من (هذا سر التعليلات الشتى) ...

لاتشدد قصف فى هذا البيت وانظر بعد ذلك اى تشويه احدثت ، واى معول انزلت فى أصول هذا البناء الشعرى الجميل .

هل الشعر الحر لون من الوان النثر الساحر ؟

لا اعتقد ، فالنثر المعروف أوفر منه جمالا ، واوضح دربا ، وأدق تأديه ، وأوسع افقا ، واحلى دفقاً ..

تكاد تنفلت من لسانى كلمة ماكنت احب ان اقولها :

اترى هذا الشعر يجنى على اصالة الشاعرية فى الشاعر ، كما جنى على حلاوة النغم فى القصيدة فيستحق عندئذ تشديد التنديد والمكافحة ؟ يخيل الى ذلك .

ممارسة هذا الشعر تجعل الشاعر كالغراب الذى (كان فى الزمان الخالى يمشى على رجليه باعتدال ..) كما تروى الاسطورة الشعرية ، فلما استرسل فى التقليد لم يعد يحسن الطيران ، كما انه لم يعد يحسن القفز على الارض والتواثب ، بل صار يظلع ، وهكذا الشاعر الحر لم يعد يجيد النثر ، بل ظل معلقا فى خيوط عنكبوتية واهية بين بين .... .

وشىء آخر يجعلنى لا اومن بهذا الشعر ، هو ان الشعر الحر يحرمنا من هذه الفلتات العبقرية التى لاتوجد الا فى الشعر الاصيل المقيد بوشاح العذوبة .

هذا النوع من الومضة الروحية اللاواعية ، والتى هى نتيجة جهد كبير خفى يقوم به اعمق اعماق اللاوعى ، هذا الكشف الصوفى ، هذا الاشراق لايمكن ان نجده الا فى الشعر المقفى .

ذلك ان الشاعر حين يجد نفسه اثناء الفوران الشعرى ، محصورا بين ضفتى بيت عالى الاسوار يلجأ الى الوثب والاختراع ـ وهل الاختراع الا وليد الحاجة ـ فتراه يستدعى جميع ملكاته ، ويستفز جميع امكانياته ، ليخرج من هذا المأزق الحرج ، فتموج النفس وتضطرب ، وترمى بالزبد ، وتتمخض عن الصورة الشعرية الرائعة التى لاتكون لولا هذا الحبس اللذيذ ، حبس الشعر خلف قضبان القافية .

والا فلماذا يكون شعر الشاعر اجمل من نثره وهو هو بعواطفه واحلامه ، بأفراحه وآلامه ، بضعفه وقوته ، بتحليقه واسفافه ؟

وبعد فان حرية الشعر الحر تحرمنا من هذه الميزة النفيسة المركزة ، التى هى امتع مافى الشعر ، واخصب مافيه ، والتى لايمكن للشعر الحر ان يضمها فى عقوده ، لانه ليس فيه هذه اللهفة ، لهفة الخروج من المأزق الحرج فلا يحتاج الى تخطى القمم بأقدام العمالقة ، وهمم النسور .

الشعر الذى نريد

لم يختلف النقاد فى شىء اختلافهم فى نظرتهم الى الشعر فقد كثرت الآراء ، وتعددت المذاهب ، ولا سيما فى هذا العصر الحديث ، حتى غدا القارىء فى حيرة من امره ، وما ذلك الا لأن الشعر فن من الفنون الجميلة التى تعتمد على الذوق والثقافة والتجربة .

ومن الطبيعى ان تختلف اذواق الناس ، وتتباين ثقافاتهم وتجاربهم فى الحياة .

فالشعر ليس علما من العلوم واضح الحدود لتتفق عليه الآراء ، وتجتمع عليه العقول ، فهو تعبير عما يجيش فى النفس فى لحظة من لحظات الحياة ، فقد يكون وليد لحظة حب أو غضب ، ثمرة رضا أو سخط ؛ وقد يكون وقفة اندهاش أمام مشهد من مشاهد الطبيعة ، او سبحة تأمل واستغراق فى سر من أسرار الكون .

هذه المشاعر مشتركة بين جميع الناس ، على اختلاف فى درجاتهم ، لا فرق فى ذلك بين شرقى وغربى ، ولا بين اسود وابيض ، لأن أبناء البشر جميعهم مخلوقون من لحم ودم ، تنهش أحشاءهم الغيرة ، ويستطيرهم الفرح ، ويمزقهم الأسى ، ويقفون مفغورى الأفواه امام كل ما يرونه غريبا وعجيبا .

فهم اذن لا يختلفون كثيرا فى انفعالاتهم ، ولكنهم يختلفون كثيراً فى طرق التعبير عنها .

ومن هنا كان لشعراء كل أمة اسلوبهم الخاص فى الافصاح عن مشاعرهم ، وكان لشعر كل بلد نكهته الخاصة ، وطعمه المميز ، وكان لكل شاعر اسلوبه الذى لا يشبه اسلوب غيره ، وهذا الأسلوب مستمد من تراثه وبيئته ، ومستوحى من تأثره بما حوله من صور والوان تغلغلت فى دم الشاعر منذ مستهل طفولته ، واثرت فى ذهنه وخياله وتأملاته .

ولاشك فى أن الاطلاع على الشعر العالمى يزيد الشاعر غنى ، ويوسع خياله ، ويضفى على شعره نفحات جديدة ، ويمده بصورة بديعة ، ولكن بشرط الا يتخلى الشاعر عن ذاته ، وان تكون صوره ممتدة من بيئته امتدادا طبيعيا ، كما تمتد الأغصان الخضراء من جذوع الشجرة الحية ، وكما تمتد الأشعة من قرص الشمس المتوهج .

ولست ادعو الى التقيد بالصور القديمة التى عرفها شعرنا العربى ، فقد ذبل بعضها وافرغ بعضها محتواه ، وبلى من فرط الاستعمال والتداول ، كما بقى بعضها الآخر غضا رفافا على مر السنين ، وكر الأيام .

ولكنى لا استسيغ شعرا منقولا عن غيرنا ، لا أجد فيه صورتنا الحقيقية ، ولا استسيغ صورا جاهزة تلصق بشعرنا الصاقا كتلك الأزهار الاصطناعية التى تتدلى من فروع جافة ميتة ، لا رائحة فيها ، ولا رعشة ، كما لا استسيغ شعرا واهى الأساس مزعزع البنيان ، فلغتنا العربية من اغنى اللغات ، واشدها دقة اكثرها مرونة .

صحيح ان بعض الكلمات قد لفظت انفاسها ، وصحيح ان بعضها الآخر لم يعد يصلح لهذا العصر المترف ، الا انها ككل كائن حى يشب ليهرم ويموت ، يبقى فى ذريتها المباركة ما يخلفها ، ويعوض عن فقدها ؛ فلغتنا بحر خضم لا تحد ألفاظه ، ولا تنفد كلماته ؛ وللشاعر الحق فى اختيار ما يشاء من تلك الكلمات ، وله الحرية التامة فى أن يبعث الموؤد منها ، اذا كان فى وسعه ان ينفخ فيها نسمة الحياة .

أما ان يتخلى الشاعر عن لغته الفصحى ، ويلجأ الى اللغة العامية ، شعورا منه بالعجز ، أو ايثارا منه للسهولة فهو فى نظرى كأنه ينطق بلسان غير لسانه ، ويكتب بلغة غير لغته ، ولا فرق عندى فى ان يكتب باللغة العامية أو يكتب باللغة الفرنسية ، أو اللغة الانكليزية ، أو غيرهما من اللغات الأجنبية .

فالشعر الذى نريد هو الشعر الذاتى المتحرر من نفوذ شعرائنا القدامى ، المنفتح على نسمات الأدب العالمى ليستمد منه الخصب والنماء ، لا التقليد والاحتذاء ، والمستند اولا وآخرا على أساس مكين من لغتنا الفصحى ، وتراثنا

المجيد .

ولنا فى آثار بعض شعرائنا المعاصرين الكبار امثلة رائعة جديرة بأن ينسج على منوالها شعراؤنا الناشئون .

فبولس سلامه ، وأمين نخلة وعمر أبو ريشة مثلا جمعوا بين تحرر الخيال ، والتقيد باللغة الفصحى . فشعرهم متأثر بأحدث المدارس الشعرية الغربية ، ولكنه مع ذلك يظل شعرا ذاتيا فيه كل الأصالة العربية ، لا ظل فيه للعجمة ، ولا رائحة فيه للتقليد ، وكمثال على الشعر الذى ندعو اليه ، لا بأس فى أن نورد هنا قصيدة أمين نخلة .

الى الحبيب الذى كبر عن الصبا :

يا صاحب المنزل القديم على	ماضى الليالى وسالف السير
أقمت للحب مأتما عجبا	فكل واد يضج بالخبر
أوحشك الماء والرواء وما قد	كان بين الخدود والطرر
وأصبحت خمرة الجمال لها	طعم الحميا من غير ما سكر
فياشريك البستان ان لنا	ألف غناء عن خضرة الشجر
سنابل القمح فى تمايلها	لا تكتسى حلة من الزهر
وموقع الغيث وهو منتجع	لم يبق فى حاجة الى المطر
انت كتاب للحسن منبسط	قد حكموا فيه رأى مختصر
فلا تقطب على الربيع ولا	تنس الذى فى مخابىء الثمر
وان للمسك فى مداهنه	بقية من زمانه العطر

فهذا الشعر لم يتنكر للشعر العربى القديم ، كما أنه لم يذب فيه .

ولم يزدر الشعر الغربى الحديث ، كما أنه لم يغرق فى دياجيه .

مثل هذا الشعر نريد .

الشعر بين شياطين الالهام وينبوع اللاوعى

أصحيح أن لكل شاعر شيطانا من الجن يقذف الشعر على لسانه ، كما زعم شاعرنا القديم .

انى وان كنت صغير السن ، وكان للعين نبوعنى ، فان شيطانى امير الجن ، يذهب بى فى الشعر كل فن .. ولم يكتف شاعرنا الفتى بأن شيطانه أمير الجن ، بل راح يفتخر ايضا بأنه ذكر ، بينما شيطان كل شاعر آخر انثى : انى وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطانى ذكر .

ولقد ذهب شعراء الاغريق الى أبعد من ذلك ، فالشعر يهبط عليهم من جبل (البارناس) حيث يقيم ملهم الشعر (أبو للون) وبنات (زوس)، وهو فى زعمهم ضرب من الالهام يتنزل على افئدة الشعراء ، فيطلق السنتهم بالغناء .

لقد اصبح اليوم هذا الزعم او ذاك ، اسطورة من الأساطير ، ونوعا من أحلام الشعراء الذين فى كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون ، الا أننا لو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن وراء تلك الأساطير ، أو تلك الأحلام حقيقة ثابتة : وهى أن الشاعر لا يستطيع أن يقول الشعر فى كل آن .

فالشعر ليس كتلك الشجرة التى ما يكاد يهز الشاعر بجذعها حتى تساقط عليه ثمارها الجنية .

فقد تمر ساعات ولقلع الضرس أسهل عليه من قول بيت واحد من الشعر ، وقد تمر عليه أيام وهو ينحت من صخر صلد أصم .

وأحيانا تمر عليه لحظات سعيدة مؤاتية ، تهب الريح فيها رخاء ، ويتدفق فيها العطاء ، وما عليه عندئذ الا أن يفتح (الصنبور) ليجمع من الشعر ما يشاء .

هذه الحالات المتأرجحة بين الشح والجود ، بين الجدب والخصب ، عاناها وما زال يعانيها الشعراء .

ولقد حار الشعراء الأقدمون فى تفسير هذه الظاهرة وتعليلها ، فتارة عزوها الى الجن ، كما فعل شعراء العرب ، وتارة عزوها الى ربات الشعر ، كما فعل شعراء اليونان ؛ فهى ان شاءت اغدقت الالهام ، وان شاءت حبست عنهم تلك النعمة ولو الى حين .

واننا لنجد اليوم فى أبحاث علم النفس الحديثة ما يلقى الضوء على ذلك .

لم نعد فى حاجة الى اللجوء الى الشيطان ، أو الى ربات (البارناس) ، أو غير ذلك من الأساطير والأوهام ، لتعليل لحظات الالهام عند الشعراء ، وانما يمكن اليوم تعليلها باللجوء الى شىء واحد هو اللاوعى .

فاللاوعى ، أو اللاشعور حديثا ، أو العقل الباطن قديما ، هو المخزن الذى تتراكم فيه الصور والأحاسيس لتكون رصيدا للشاعر يأخذ منه ما يشاء ، وليظل ذخيرة حية يستمد منها ابداعه الشعرى .

وكلما كان رصيده فى اللاوعى اكبر ، كان نصيبه من الابداع اكثر .

ان هذا التراكم يبدأ فى أغوار النفس ، منذ أن يبدأ وعى الشاعر بالتفتح على ظواهر الكون ، ووجوه الحياة ، ويظل ينمو معه ويترعرع على مر الأيام وكر السنين .

ولا يحسبن أحد أن اللاوعى ليس الا مخزنا جامدا تتراكم فيه الذكريات ، وتتكدس فيه الصور بعضها فوق بعض دون تفاعل أو حركة ، فهو فى الواقع بحر جياش لا تهدأ أمواجه ، ولا تنقطع أعماله فى ليل أو نهار ، وان تم ذلك كله فى الخفاء بعيدا عن الأضواء ، واعين الرقباء ، ودون وعى من الشاعر ذاته ، ودون اى انتباه .

ويخطىء من يظن ان اللاوعى هو اقل قيمة من الوعى او ادنى منه اهمية ، بل على العكس فان اكثر الأعمال العظيمة لا تتم الا فيه ، ولا تنبثق الا منه ، ولذلك فان اللاوعى وان كان يعمل فى الظلام هو ارقى درجة من الوعى الذى يعمل فى النور .

فكثيرا ما يكد الواحد منا ذهنه ، ويبذل جهدا كبيرا فى تذكر اسم من الأسماء ، او صورة من الصور ، ولكن يحاول ذلك عبثا ، وما ان ينصرف ذهنه

عن ذلك بعض الشيء ، حتى يعود الاسم فجأة الى طرف لسانه ، وترتسم الصورة فى لوحة ذهنه ، وما ذلك الا بفضل حركة اللاوعى الدائبة التى تقدم للانسان عفوا ما يطلبه فى الوقت المناسب .

ولذلك كان العقل الباطن المصدر الحقيقى لالهام الشعراء ، وفن الفنانين ، وأدب الأدباء ؛ وكان العقل الظاهر هو المراقب الدقيق لما صدر عن العقل الباطن ، فهو الذى يحد من شططه ، ويكفكف من غلوائه ، ولا يجعل اعماله تنعم بالنور ما لم تمر فى مصفاته الدقيقة ، ويوافق عليها ، عدا حالات نادرة لا يستطيع التحكم فيها ، فتفلت منه رغما عنه .

يقولون ان الحب قد ينشأ من النظرة الأولى ، فما ان يرى المحب وجها يستهويه حتى يقع لتوه ، اسير هواه .

ولكن ذلك الحب ، فى الحقيقة ليس وليد تلك النظرة العابرة ، وانما هو وليد ترسبات قديمة كثيرة تراكمت فى اللاوعى ، ترسبات جميلة بدأت تتشكل منذ أمد بعيد ، مغرق فى البعد ، قد يمتد الى أيام الصبا واوائل الطفولة ، وتجيء تلك النظرة العابرة فتوقظ تلك الترسبات وتحركها ، ويكون من كل ذلك هذا الحب الصاعق ، وكذلك فى الشعر .

فان النظرة ، او الفكرة او الاحساس الطارىء ، كل ذلك حرى ان يحدث فى لجة اللاوعى دوائر متعاقبة تلم شعث الذكريات القديمة ، وتستدعى انواع الصور المتراكمة لتشترك جميعها فى تكوين القصيدة التى يضع عليها العقل الواعى بصماته الأخيرة .

أما لماذا تمر على الشاعر لحظات ينهمر فيها الالهام انهمارا ، ولحظات يشح فيها او ينحبس فذلك يعود الى ما اختزنه فى لاوعيه من ذكريات وصور واحاسيس .

فحين يكون فى داخله رصيد كبير لتلك النظرة ، او تلك الفكرة ، او ذلك الاحساس ، يهضب الشاعر بالشعر ، ويتدفق فى سهولة ويسر ، والا فقد يتعثر ويتقهقر ، ويصعب عليه الاستمرار وينتظر حتى تمتلىء نفسه بعض الامتلاء ، ليعاود الكرة من جديد .

ان الشاعر لتومض فى رأسه الخاطرة كالشهاب ، ولكن ذلك الوميض لا يمكن ان يستمر طويلا ، اذ سرعان ما ينطفىء تاركا وراءه مثل اكوام الرماد .

فاذا اغتنم الشاعر فرصة هذا الجيشان الشعرى ، امكنه ان يجمع خيوط القصيدة ، ويشيد هيكلها ، وبعد ذلك يأتى الفن ويضع عليها اللمسات الأخيرة ، رأسما ظلا من هنا ، وخطا من هناك ، حتى تخرج من تحت انامله نابضة معبرة . ومن هنا كان الخطر الكامن فى القصائد الطوال ، فالشعر لا يقاس بالطول والعرض ، وانما يقاس فقط بدرجة حرارته .

وانه لمن اصعب الصعوبات ان تظل القصيدة الطويلة تحتفظ بحرارتها ؛ فقد يمكن لبعض الأبيات ان يحتفظ بتلك الحرارة ، ولكن يصعب جدا ان تحتفظ بها كلها حين تطول . وبعد فمن الذى قال ان الشعر تطويل واملال واثقال ؟

ان الشعر ايجاز واختصار ، وتحميل للحرف من أسرار الحسن اقصى ما فى وسعه ان يتحمل .

انه تكثيف للحياة .

فكما تختصر ازهار الربيع فى قارورة صغيرة من العطر ، كذلك تختصر الحياة فى قصيدة لطيفة من الشعر .

ان بيتا واحدا من الشعر قد يغنينا عن كتاب كامل .

ولا فرق ان يقذف به الشيطان على اللسان ، او توحى به ربة الشعر والالهام ، او ينبثق من اغوار اللاوعى ، واعماق الظلام .

كل ما يهم هو ان يكون شعرا ...

السر الخفى

بعض الشعراء يؤثرون بعض الألفاظ فهم يعيشون فيها ولا يخرجون منها ، الا كما تخرج الأسماك من الماء . وهم يملأون ابياتهم بكلمات مختارة محدودة لا يجاوزونها .

حتى اننا غدونا نعرف الشاعر من كلماته حينما تقع نظرتنا على أول بيت من ابياته .

ومن الطبيعى ان يكون لكل شاعر الوانه المحببة ، وظلاله المفضلة ، ولكن ان يقتصر الشاعر على الفاظ معينة اثيرة لديه ، محببة اليه ، يكررها ويعيد تكرارها حتى لنصاب معه بالدوار فذلك مما يسم شعره بالرتابة .

وبعض الشعراء لا يهمهم الا براعة الصياغة ، وحلاوة النغم ، حتى لتلتذ الآذان لسماع شعرهم وتطرب ، ولكن تلك اللذة لا تتجاوز حدود السمع ولا تستطيع التغلغل الى اعماق النفس ؛ فشعرهم كالسراب الذى يلتمع فى الصحراء .

وبعض الشعراء يجرون وراء الأفكار ، ويغوصون فى البحار المتلاطمة الموج لاصطيادها ، ولا يأبهون بعد ذلك للثوب الذى يلبسونها ، ولا للأسلوب الذى به يعرضونها ، وهم غالبا ما يلجأون الى التجريد ، ويبتعدون عن التجسيد ، ولذلك نرى شعرهم أقرب الى النثر منه الى الشعر .

فالتجريد اسلوب من اساليب الفلسفة والعلم ولكنه فى الشعر ثقيل على النفس . الشعر الحق مزيج من اتجاهات هؤلاء الشعراء ، ومن ميولهم المتباينة ، فهو مزيج من الألفاظ المختارة ، والصياغة البارعة ، والأفكار المبتكرة .

وكما ان الوجبة الغذائية الكاملة ، لابد ان تحتوى على عناصر اساسية لترميم الجسم ، والاحتفاظ بحيويته ونشاطه ، فالبروتينات لا تغنى عن النشويات ، والشحوم لا تقوم مقام الفيتامينات ؛ كذلك فى الشعر ؛ الموسيقى لا تغنى عن الفكرة ، والخيال لايسد مسد الشعور .

لابد اذن من اجتماع ذلك كله فى الشعر . ولنا بعد ذلك ان نتساءل :

أيمكن للقصيدة ان تصبح شعرا رائعا اذا اجتمع فيها كل تلك العناصر المنشودة ؟

هنا مجال للشك كبير . تلمح وجها فيه كل قسمات الجمال فالعين واسعة ، والفم متناسق ، والأذن دقيقة ، لكننا نشعر انه بعيد عن قلوبنا . فهناك شيء خفى نحسه ولا نراه ، ينقص هذا المحيا .

هذا الشيء هو الذى كان يمكن ان يصل بين ذلك الوجه وبين قلوبنا بخيوط سحرية ؛ وكذلك الشعر ، قد يكون فيه كل العناصر اللازمة لتكوينه ، الملائمة لانجاحه ، ولكنه مع ذلك يظل بيننا وبينه جدار صفيق ، وواد سحيق .

ذلك لأنه لا يملك ذلك التيار الخفى الذى ينتقل من الروح الى الروح ، ويربط بين القلب والقلب .

هذا التيار الخفى هو جوهر الشعر الحقيقى ، وسر روعته .

الشاعر والمجتمع

ولد الشعر يوم رأى الانسان النور ، ويوم هبت على قلبه أول نسمة من نسمات العاطفة . وكان الشعر منذ العصور السحيقة الموغلة فى القدم رفيق دربه ، وصدى اشواقه ، واحلامه ، وترجمان آماله ورغباته ، وبلسم احزان وآهاته .

به استعان الحادى على وحشة الفيافى والقفار ، والأم على هدهدة وليدها فى مهده ، والمحارب على اقتحام هول المعركة ، والعاشق على استعطاف قلب حبيبته ، والمفجوع على نسيان مصابه .

ولذلك كان الشعر هدية علوية ثمينة لم يستغن عنها الانسان فى يوم من الأيام ، وكان له فى النفوس عامة وقع عذب لم يدانه فن من الفنون الجميلة الأخرى ، وقد رافق الشعر الانسان فى رحلته الأزلية الأبدية .

ومنذ طفولته الأولى الساذجة حتى دور حضارته الشامخة لم يفارقه ولم يستطع التقدم العلمى ان يخفت من صوته ، بل ازداد صوته على مر الأيام صفاء ونقاء وجهارة ، واكتسب من تقدم المجتمع خصبا وغنى ، واصبح ينطلق فى اجواء الجمال بأجنحة نورانية جبارة .

ومما لا ريب فيه ان عصور التاريخ الذهبية التى بلغ فيها التقدم العلمى اوجه ، وازدهرت فيها الحضارة ، انطلقت فيها الحناجر بأروع الأناشيد الشعرية المخلدة على كل الدهور ، ومما لا ريب فيه ايضا ان عهود الانحطاط التى تنطمس فيها القيم ، وتأسن فيها المشاعر ؛ ويحاط فيها العقل بالضباب او الفراغ ، يذوى فيها الشعر ، ويصاب بالشلل والعقم ؛ فالشعر دائما يتخلف حين يتخلف المجتمع وينتعش حين يتقدم ذلك المجتمع ، والنفس الانسانية حين تمتلىء بالمعرفة وتتهيأ للعطاء تمد الى العلاء اغصانها المثقلة بالثمار ، وتتفتح مواهبها فى جميع الآفاق والاتجاهات ، وتتمخض ملكاتها عن ابدع الآثار فى كل المجالات .

والتربة التى ينمو فيها العلم والاختراع وكل فرع من فروع النشاط الذهنى هى التربة التى يزدهر فيها الشعر ، ويثمر ويبسط عليها ظلاله الوارفة الفينانة .

ولذلك فان تقدم الأمة الفنى يتمشى دائما مع تقدمها الحضارى ؛ ولا تقاس عظمة امة من الأمم بتقدمها المادى فقط بل بما تقدمه للانسانية من روائع الفنون وخوالد الآداب . واذا كان للشعر البدائى بعض الصدى الساذج المستحب ، فمما لا شك فيه ان للشعر المنبثق عن الحضارة صدى اوسع واكمل وأحفل بالذخائر والنفائس لأنه يكتسب من معطيات الحضارة تنوعاً وشمولا مما يجعله اقدر على ارواء غليل النفوس المتعطشة الى اسرار الجمال ، واحفل بالعناصر التى تكفل ارضاء الأذواق المتعددة المتباينة .

والشعر هو غذاء الروح ، به تنتعش وتسمو وتتألق فكم من ازمة نفسية مستحكمة لم تستطع اكبر قوة مادية أن تحلها ولكن بيتا واحدا من الشعر بأنامله النورانية الشفافة يحلها بسهولة ، فيزرع الـرجاء بعد اليأس ، والطمأنينة بعد القلق ، والرضى بعد السخط ؛ ولذلك كان الشاعر فى جميع العصور مبجلا مكرما .

كان فى الماضى ملء عين قبيلته ، وهو اليوم ملء عين امته ، بل ملء عين الانسانية جمعاء ، وقد احتفل العرب بالشعر والشعراء ايما احتفال ؛ فقد كان للسان الشاعر عندهم وقع دونه وقع الاسنة ، وفتكات السيوف الصوارم .
فهو الذاب عن حياضهم ، المنافح عن اعراضهم ، الناشر لفضائلهم المتغنى بمحاسنهم ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر تملكهم الزهو وهزتهم الأريحيه ، فأقاموا المهرجانات ، واولموا الولائم ، تعبيرا عن فرحتهم الكبرى ، واظهارا لاعتزازهم اللامتناهى .

فليس ينبغ فى كل يوم شاعر يرفع رأس قبيلته عاليا ، ويذيع صيتها ومكارمها فى الآفاق . ولم يجهل الغرب قدر شعرائه ، ولا ما يهبون اوطانهم من

ثروة دونها الثروات الطبيعية المتراكمة فى باطن الثرى .

فهذا « كيبلنغ » يقول : لو خيرت انجلترا بين ان تتنازل عن الهند أو شكسبير لما ترددت لحظة فى التنازل عن الهند .

وما ذلك الا ان الشاعر كنز لا يفنى يفيض على بلاده ، وعلى الناس جميعا ، بالخير والجمال والسعادة .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة المعالى كيف تبنى المكارم

الرمزية والشعر "١"

لا تستطيع مدرسة من مدارس الشعر ، القديمة منها او الحديثة ، ان تدعى انها تمثل الشعر تمثيلا تاما ، ولا تجرؤ على ان تزعم ان شعراءها فقط هم الشعراء ، وان سواهم الذين لا يذهبون مذهبهم ، ولا ينسجون على منوالهم ، بعيدون عن الشعر الحق .

ذلك زعم لا يمكن ان يزعمه أحد لأن الشعر بحر واسع ، لا يحصره سد ، ولا يحده ساحل .

وفى كل مدرسة شعرية ابيات رفيعة قد تبلغ العبقرية ، وابيات عادية قد تصل الى الابتذال ؛ ذلك مشاهد ومحسوس على مر العصور ، واختلاف الأجيال .

فمنذ عهد ابى الشعراء هوميروس حتى اليوم ، نرى فى الشعر الدر والحصى ، الجيد والردىء ، ولا نستطيع ان ندعى ان شاعرا قد بلغ الأوج ، او اوفى على النهاية فى كل اشعاره .

ومن هنا كان الكمال فى الشعر هدفا عاليا من أهداف الشعراء ، على مر الأيام ، تارة يبلغونه ، واخرى يهوون قبل بلوغه ، متمرغين فى تراب السفح ، أو متحطمين على أنياب صخوره .

وان بلغوه حينا لم يستطيعوا ان يحتفظوا به ردحاً طويلا من الزمن . وقد ادرك الشعراء ذلك النقص وحاولوا سد تلك الثغرة ، فكانت المدارس الشعرية المختلفة ، وكان فى ذلك بركة على الشعر ، وامراع لتربته ، وانعاش لحركته .

ان الشعر تعبير عن العواطف والخواطر بأسلوب خاص فيه سحر وفيه روعة ، واداة التعبير الوحيدة كما لا يخفى ، هى اللغة ... والشاعر مهما أوتى من بلاغة اللسان ، وفصاحة البيان ، تظل اللغة بين يديه اداة جامدة غير طيعة ، لا تستطيع ان تعبر عن عواطفه وخواطره كل التعبير . فاللغة قادرة على أن تشير أكثر مما تستوعب ، وترمز أكثر مما تنقل .

لأن العواطف والخواطر أشياء جارية متدفقة .. لا يمكن أن تحصر فى مجرى ، أو تستوعب فى وعاء .
لذلك ظل باب الابتداع والاجتهاد مفتوحا على مصراعيه أمام الشعراء ، « فكم غادر الشعراء من متردم ». وما أكثر ما ترك الأول للآخر !.
ومن هذا الباب دخلت الرمزية ساحة الشعر .
كان الشعر الكلاسيكى يعتمد على سيطرة العقل ، وقهر العاطفة ، كما كان يعتمد على متانة النسج ، ووضوح القصد ، وجاء بعده الشعر الرومانتيكى فاعتمد على انطلاق الخيال ، وتوهج العاطفة ، فكان النواح والأنين ، والتغنى بالحب والشوق ، أو التغزل بالاستسلام اللذيذ الى القنوط والأحزان .

ثم جاءت الرمزية فكان لها فتوحات فى مناطق مجهولة من عوالم النفس لم تطأها قدم انسان ، ولم يعرفها خيال شاعر من قبل .
لذلك كان الشعر الرمزى شعرا جديدا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى فهو جديد فى شكله ، وجديد فى مضمونه ايضا .

لقد تخلص الشعر الرمزى من ربقة العقل الآسرة ، ومن اشتعال العاطفة المدمرة ، وراح يلم فى هدوء بقايا الأحلام المبعثرة .

* لقد اتجه الشعر الرمزى الى العقل الباطن ، وطفق يستل منه احلامه ويستقى منه الهامه .
* ان النفس الانسانية فى حركة دائبة ، وجريان متصل . وكل ما يدخل اليها لا يخرج منها ، بل يتراكم فيها ، وان كان يطرأ عليه التغيير والتبديل والتنظيم فى منطقة معتمة ، وفى صمت ودون أى جلبة .
* لذلك رأوا ان اللاشعور هو ارقى درجات الشعور ، لأنه زبدة حركة النفس وخلاصة انتاجها ، فتركـوا لأنفسهم العنان لتفرز ما تفرز ، دون ضغط او اكراه ، ودون وضع أى قيد أو حاجز .
* ومن هنا جاء الشعر الرمزى متشحا بالغموض ، لأن الشاعر يغوص فى منطقة لا ينيرها العقل الظاهر انارة كافية .

وهذا الغموض اللطيف اشبه بالغلالة الرقيقة على وجه الحسناء .. يزيدها فتنة وسحرا واثارة ، فهو يشف عن اشياء ويخفى اشياء ، ويجعل القارىء فى حركة وتشوق ، حتى يصل الى المعنى المراد ، ويدرك فحوى تلك الظلال ، مما يضاعف من لذته الذهنية حين يضع يده على مفتاح باب ذلك الكنز المرصود .

فالشعر الرمزى ليس من الشعر السهل الذى تدرك معانيه للوهلة الأولى ، فتزول لذته بالسرعة التى يتم فيها فهمه ، وينطفىء بريقه فى اللحظة التى يسطع فيها ضوؤه ، فان ما يبلغ وشيكا يفقد جاذبيته وشيكاً ، وانما هو شعر يحتاج فهمه الى ترديد واعادة نظر ، وامعان فكر ، فهو لا يسمح لك بالولوج الى داخله الا بعد مماطلة ، وتدريجيا ، ولا مجال فيه للوثب والقفز ، ولابد من الأناة والصبر ، واستجماع قوى الذهن ، واستحضار طاقات النفس ، ولابد قبل كل شىء من معاناة تجربة الشاعر ولو بصورة مبهمة ، والا يظل بين القارىء والشاعر جدار صفيق لا يخترق ، ويبقى الشاعر يغنى على ليلاه فى واد ، والقارىء فى واد آخر بعيد ، لا يفهم عنه ما يريد ولا يكاد يسمع لغنائه أى صدى أو ترديد .

الرمزية والشعر " ٢ "

* اكبر هم الشاعر الرمزى هو ان يومىء الى المشاعر والخواطر بألفاظ يبريها بأنامله ، أو يرسل عليها أشعة من نور خياله ، لتزداد وضوحا أمام العيون التى كانت قد لمحتها ، ولم تثر فيها أى اهتمام ، أو تلفت لها أى انتباه .

وللوصول الى قلب القارىء استعان الشاعر الرمزى بالموسيقى .

ولذلك كان شعار الرمزيين : الموسيقى قبل كل شىء ، الموسيقى دائما .

حتى ان بعضهم قد اسرف فى ذلك فزعم ان بيتا عامرا بالموسيقى افضل فى نظره الف مرة من بيت لا موسيقى فيه ، مهما كانت معانيه .

فليس ابرع من الشاعر الرمزى فى اختيار الألفاظ الشفافة الموحية ، وليس من شعر احفل من الشعر الرمزى بالصفاء والنقاء والطرب .

ولا غرو فالشعراء الرمزيون من عبيد الشعر ، وهم من ارباب الكدح الذين لا يقبلون فى ذلك اى هوادة ، ولا يعرفون اى تساهل ، فهم يخضعون الألفاظ المعروفة الى عملية تركيبية دقيقة حتى تكتسى برونق جديد ، ورنين عذب مبتكر .

وكثيرا ما يعتمدون على ايحاء اللفظ السمعى أو البصرى اكثر مما يعتمدون على معناه المعروف المألوف . المهم فى نظرهم هو ما تثيره العبارة فى النفس من اصداء والوان ومشاعر اكثر ، مما تعبر عن معناها المتداول .

وقد بلغ بعضهم من رقة الاحساس ، وتوفز الشعور ، درجة تقارب المرض . فرامبو كان يرى ان لكل حرف من حروف الهجاء لونه الخاص به ، فمن الحروف ما هو ازرق ، ومنها ما هو ابيض ، ومنها ما هو اخضر ، ومنها ما هو رمادى .

وبودلير كان يخلط بين المشموم والمسموع والمنظور ، فيبدو ذلك الاختلاط فى اشعارهم واضحا ، وتزداد صورهم خصوبة وتنويعا وغنى ، فلم يكن هم الرمزيين الاحساس لذاته ، ولكن كان همهم الوحيد ما يخلف ذلك الاحساس فى النفس من أثر .

وقد بالغ بول فاليرى فى ذلك ، واسرف فى البحث عن الألفاظ الملائمة ، وغالى فى التنقيح والصقل ، واقتناص الكلمة الموحية ، ورصفها الى جانب اختها رصفا يفجر طاقاتها النغمية ، ويثير تأثيراتها الايحائية ، حتى غدت قصائده عمارات متماسكة ليس فيها لفظ الا وله من هندسته ونحته حساب وتقدير .

وليس معنى ذلك ان الرمزيين كانوا يهتمون بالقشور اللفظية ، فقد كانوا على رصيد فكرى ضخم ، وثروة ثقافية واسعة .

فبول فاليرى كان عالما ومفكرا ، وقد دخل ساحة الشعر من باب الرياضيات ، وبودلير كان ناقدا فذا ، ومتأملا له فلسفة عميقة ، وان كانت فلسفة كئيبة مريضة فى أغلب الأحيان .

شيمة الرمزيين انهم كانوا لا يعتبرون الشعر كاملا مالم يرتد حلة نظيفة انيقة ، لذلك اولوا المظهر الخارجى للشعر عنايتهم البالغة ، واهتموا بموسيقى الألفاظ اهتماما خاصا ، فهى الجناح الذى يحمل الشعر الى القلوب ، وهى الجسر الذى يعبرون عليه النفوس فى خفة ورشاقة .

يقول بودلير مذكرا حبيبته بمصيرها المحتوم :

Quand la pierre opprimant ta poitrine Peureuse

وحينما يرزح الحجر على صدرك الرعديد ..)

وقد حاولت فى ترجمتى لهذا البيت تقليده فى طريقته لأطلع القارىء ، على ترديد الشاعر لبعض الحروف ، وتأليفه بينها ليسبغ على شعره جرسا موسيقيا عذبا ، دون أن يؤثر ذلك فى المعنى أو يفسده فى حال من الأحوال ، أو يلقى عليه اى ظل للتكلف او التصنع . ولا شك ان ذلك تطلب منه جهدا كبيرا حتى بلغ هذا المبلغ من الصفاء والنقاء والعذوبة والعفوية ، ودون ان يبدو على ملامحه اى اثر لذلك الصبر الطويل ، وذلك الكدح الذى لا يعرف السأم ولا الملل .

لقد جمع الشعراء الرمزيون بين الشعور المرهف والفن الصبور ؛

فقد كانوا يلتقطون ما تقذف به براكين عقولهم الباطنة فى لحظات الالهام ،

ثم ينكبون يهذبونه ويصقلونه ، كما يفعل الغواصون الذين يستخرجون اللؤلؤ من قاع البحار وهو مختلط بالأصداف والرمال والأوحال ، يعكفون عليه تنظيفا وتثقيبا وتنضيدا ، ثم يجعلون منه عقودا وضيئة تزين نحور الحسان .

ولكن مما يؤخذ على شعراء الرمزية انهم يبالغون احيانا فى الغوص فى ظلمات بعضها فوق بعض، فيجىء شعرهم وعليه بقايا تلك العتمة حتى يعسر هضمه ، او يصبح من المستحيل فهمه .

ومهما يكن من شىء ، فان الرمزية قد قدمت الى الشعر عالما جديدا هو عالم النفس الأكبر ، وأسمعتنا اصداء شجية البث ، وجعلت الفن يقوم بدوره الجميل فى نسج الحلة الملائمة للخيال الخصيب ، والأحلام المجنحة .

ولست ازعم ان الرمزية هى الشعر الكامل المنشود ، ولكن فيها ولا شك ما يستحق التأمل والتفكير ، وما يبعث على اللذة والغبطة .

وانا لا ادعو الشعراء الى ان يتقيدوا بمدرسة معينة ، فلكل مدرسة ميزة ، ولكل مذهب نكهة وطعم .

والشعر بعد كل هذا شىء لا يحد ولا يوصف ، وقد يكون خارجا على كل هذه المدارس المعروفة المألوفة ومع ذلك يظل شعرا .

الشعر السيمفونى

.. هل الشعر هو الذى يهز الجماهير كما يرى الأستاذ هاشم رشيد ، أم الشعر هو الذى يهز الطبقات الواعية ، وهم قلة ، كما يرى الصديق الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ، أم هو الذى يهز جميع الناس ، كما يرى الأستاذ أبو زيد سيد .

قبل كل شىء يجب ان نحدد ما هو الشعر ؟

الشعر من ناحية الشكل الخارجى هو الكلام الموزون المقفى ، كما هو معروف ومشهور .

والشعر من ناحية المضمون الداخلى مشتق من الشعور ، فهو الكلام الذى يؤثر فينا أكثر من أى كلام آخر ، ويجعلنا أكثر طربا بعد سماعه .

والطرب هو اهتزاز فى النفس يولد الارتياح . وليس الطرب مقصورا على كل ما هو سار ، فقد نطرب للحن الشجى ، كما نطرب للحن البهيج ، وقد نرتاح احيانا للبكاء ، كما نرتاح للغناء .

الحزن والفرح وتران فى قيثارة النفس البشرية ، وكل كلام يجعل أى وتر منهما يرتعش ارتعاشا جميلا هو نوع من الشعر ، وان بقى شعرا غير كامل ، لا يقدر ان يفرغ شحنته ، ولا ان يصب كل اصدائه وانغامه ما لم يكن موزونا مقفى .

فالشعر الذى يضىء فيه الشعور يطرب جميع الناس على اختلاف ثقافتهم ، وتباين تفكيرهم ، لأنه يلامس ناحية فى النفس الانسانية يشترك فيها الجميع على السواء ، وهو يروى ظمأ عاطفة فطرية تولد مع كل انسان ، لافرق فى ذلك بين شاب وكهل ، ومتعلم وجاهل ، ورجل وامرأة .

ولنضرب مثلا على ذلك قصيدة ابن الرومى فى رثاء ولده محمد ، التى مطلعها :

بكاؤكما يشفى وان كان لا يجدى فجودا فقد اودى نظيركما عندى

والذى يقول فيها :

كأنى ما استمعت منك بضمة ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
آلام لمـــا أبدى عليك من الأسى وانى لاخفى منك اضعاف ما أبدى
أرى أخويك الباقيين كليهما يكــونان للأحزان اورى من الزند
اذا لعبا فى ملعب لك لذعا فؤادى مثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لى سلـــوة بل حزازة يهيجانها دونى واشقى بها وحدى

فهى قصيدة فى غاية التأثير ، كل من يقرؤها تفيض نفسه بالأسى الصادق ، ولا يستطيع ان يمنع عينيه من ذرف الدموع مع الشاعر المفجوع .

وهناك شعر يهز الجماهير فقط ، ولا يهز الخاصة من الناس .. انه الشعر المجلجل الذى يترك دويا فى الاذان ، وهو بعيد كل البعد عن الشعر الوجدانى المهموس .

هذا الضرب من الشعر يعتمد على فخامة اللفظ ، وضخامة الايقاع ، وبراعة الالقاء ، وهو شديد التأثير فى الجماهير لأنه مزروع ببعض الكلمات الرنانة ، أو بعض الشعارات الطنانة التى تصادف هوى عابرا فى النفوس .. بهذا الشعر يستطيع الشاعر ان يحظى بأكبر قدر من التصفيق والتهليل والاستعادة .

ولكن أكثر هذا الشعر الذى يهز الجماهير ويحركها ، ويستأثر باعجابها ، يفقد كثيرا من جاذبيته وسحره ، اذا قرىء بعد ذلك فى خلوة على مهل ، وبروية ، لأنه يعتمد على طرب الأذن اكثر من اعتماده على طرب القلب .

ومن هذا النوع شعر المناسبات الذى قد يفرض على الشاعر فرضا دون استجابة منه لحافز من حوافزه الداخلية .

ولكن ليس معنى ذلك ان كل شعر يهز الجماهير لا يعتبر شعرا ، ففيه احيانا روائع تدخل القلب بلا اذن ولا استئذان .

وأكثر الشعر الجماهيرى متصل بالحماسة والفخر والكبرياء ، وهى عواطف وان كانت ذات صلة بالنفس الا انها صلة غير وثيقة ، وغير ملتصقة بها التصاقا دائما لذلك يظل صداها الخارجي اكبر من صداها الداخلى .

وهناك الشعر الذى يهز الخاصة ، ولاشك ان هذا النوع هو أرقى أنواع الشعر ، وهو لا يكشف عن جماله الا بعد مماطلة ؛ وفهم اسرار روعته يحتاج الى امعان نظر ، ولكن تأثيره السحرى يبقى بعد ذلك خالدا لا يزول .

ذلك الشعر يكشف عن عبقرية الشاعر ، ويدل على عظمة ابداعه ، اكثر من اى شعر آخر .

ومن هذا النمط قول شوقى :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى فى المـــاء اخفين بضا ... سابحات به وابدين بضا ..

هذه الصورة الفريدة التى جعلت من القصور الغارقة فى الماء عذارى مذعورة تخفى بضا ، وتبدى بضا آخر ، لا يستطيع أى مصور بارع أن يرسمها فى لوحة حية كما رسمها شوقى فى بيتين من الشعر .

مثل هذا الشعر العبقرى لا يمكن ان يهز الجماهير ، ولا يمكنه ان يحظى باعجابها ، لأنه شعر مركب يحرك جميع الأوتار فى قيثارة النفس البشرية ، وليس شعرا بسيطا يحرك وترا واحدا او وترين منها . انه يوقظ الخيال والشعور والارادة فى آن واحد ، ويثير ملكات النفس جميعا معا .

انه شعر متعدد الأصداء ، لابد له من القارىء الرهيف الذوق ، الرفيع الثقافة ، العميق التجربة ، ليحيط بكل ابعاده ، ويستمتع بكل مزاياه .

فالطبل والمزمار والرباب يطرب لها كل الناس ، سكان الجبال والوديان ، والمدن ، على السواء ، ولكن الذين يطربون منهم لأنغام السمفونيات قليل .

ــ كذلك الشعر العبقرى لا يهز غير النخبة الممتازة من بنى البشر .

جان ريشبان ... وقصيدة

ما اكثر ما تغنى الشعراء بالحرية ، ولطالما مجدها الكتاب والأدباء ، على مر الأزمنة ، واختلاف الأمكنة ؛ فالحرية تبقى مطلبا من اسمى مطالب البشر ، وامنية من اعز امانيهم ، الا ان الشاعر بلمساته اللطيفة ، والوانه الطرية ، وظلاله الندية ، يظل كلامه ألذ فى الأذن ، وأدنى الى القلب ، وأبعث على التأمل والتفكر .

ومن الخطأ ان نفرض على الشاعر موضوعا معينا ، أو أن نطلب منه أم يلتزم بفكرة خاصة ؛ اننا بذلك نجرده من شعوره التلقائى العفوى ، ونحرمه من الهامه الطبيعى ، ونجعله يعمد الى صناعة العقل ، ويلجأ الى كد الذهن ، وهذا عمل من أعمال النثر .

فالشاعر بما فطر عليه من تعشق للجمال ، وحب للخير ، وتعلق بالحق ، تنبجس من ذاته تلك المعانى الرقيقة ، دون أن يقصد الى ذلك قصدا ، فكأنه تلك الشجرة المعطاءة تتساقط ثمارها الشهية حين يتم نضجها ، دون حاجة الى ريح تهزها .

والشعر ، وان كان ترفا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ليس هو لهوا ولا لعبا ، وانما هو عمل رائع يقود فى النهاية الى تعميق المعانى الخيرة فى القلوب ، وابراز الجمال أمام العيون ، وتطهير الانسان من أدران المادة ، والسمو به الى آفاق رفيعة كلها صفاء وضياء . وشاعرنا الفرنسى جان ريشبان الذى كان شعره مزيجا من نزعات شعرية مختلفة فهو يضم البارناسية ، والرمزية ، والواقعية ـ يعبر عن ذلك خير تعبير فى قصيدته (شكوى الخشب) التى اخترناها من ديوانه : (انشودة الصعاليك)

فالموضوع ـ كما ترى ـ عادى ، ولكن الشاعر بخياله الواسع ، وفنه البارع ، امكنه ان يتغلب على ابتذال الموضوع ، وان يرقى منه الى القيم الرفيعة الخالدة .

وهكذا فان الموضوع ليس اكثر من نقطة ارتكاز يستند عليها الشاعر ثم ينطلق ليسبح فى افاقه الرحيبة السامية .. فما من شىء الا ويصلح موضوعا لشعره لا فرق فى ذلك بين عادى وخارق ، وضيع ورفيع ، ما دام الشاعر يملك فى اعماقه طاقة حية من الخيال والشعور ، وذخيرة طيبة من الابداع والابتكار ، وما دام يتقن التعبير ، ويحسن التصوير .

ولنستمع بعد ذلك الى جان ريشبان وهو يمجد الحرية ، ويحببها الينا ، ليزيدنا لها طلبا ، وبها تعلقا ، وان كان تعشقها قد يجر فى النهاية الى فناء ، ولكنه فناء لذيذ فى عالم لازوردى نورانى بهى :

فى الموقد الملتهب تصفر النار ، وتفرقع ، والخشب العتيق ينتحب بصوت رتيب ويقول : انه خلق ليحيا فى الهواء الصافى ، ليتغذى من تراب الغبراء ، ويستقى من زرقة السماء لينمو ببطء ، ويدفع نحو العلاء ، دائما نحو العلاء ، رأسه المتوج .. ليعطر نيسان بعناقيد زهره ، ليظلل اعشاش العصافير المزقزقة ، لينشر فى الهواء آلاف الأغنيات الفرحة ، ليرتدى ، على التناوب اثوابه العجيبة !

فى الربيع ، وشاحه المطرز بالبراعم الناعمة ، وفى الخريف ، الأرجوان الأحمر وفى الشتاء ، الثلج الأبيض . ويقول : لله ما اقسى قلب الانسان وما أشد طمعه !

بضربات من فأسه ، يقتل الشجرة ، ذلك المخلـوق الحى ، بلا رجفة ولا رحمة ، وفى الموقد المتجمر يتلوى الخشب وينتحب .

ليست ايدينا التى تقطعك ايديا قاتلة .. لقد قيدت الى الأرض بجذورك ، وترعرعت فى مكان واحد لا تريمه ، فأنت قطعة من الأرض ، والأرض قطعة منك ، انت يا من تريد الحرية ، وتحلم بالشجرة الحية !

لقد بقيت مغروسا هناك كقطعة من الرخام ، ذليلا فى قشرتك ذلك فى جذرك . لا تعرف التحليق فى الأجواء الا من خلال العصافير . لقد انقذناك من الثرى الذى يقيدك وها انت تطفو على وجه الماء فترى الضفاف ، وترى المواشى والخيول والبيوت ، وترى السماوات المختلفة ، والآفاق الجديدة ، وكم ستطلع

على خيرات مجهولة !

أى نفحة من المغامرات تخترق اعماقك ! ولكن ذلك ليس شيئا لأنك لا تزال تزحف فاذا شققت واحرقت ، وتطايرت اجزاؤك ، والتهمت النار الغضبى اليافك ، عندئذ تحيا ، نعم تحيا وتغدو حرا .

اعلى من عطور ازهارك فى الربيع ، واعلى من تنهداتك ، واعلى من كلماتى ، انت تحلق فى الغيوم وفى الفضاء اللامتناهى .

نحو هذا البخار الوردى حيث شمس المساء تنطفىء كجمرة من الفحم فى مبخرة .. نحو هذا الجلد الأزرق الذى يزدرد مجده المشتعل فى شوق ، نفسك الدخانية .. نحو هذا البعد الخفى الرفيع حيث يستيقظ غدا الصباح الندى ، وحيث تلمع الليلة اضواء الدرارى .

اصعد ، اصعد دائما ، انشر امواجك الحلزونية ، اصعد ، تلاش ، اهرب ، انطلق !

ها هى قطعتك الأخيرة تطفو وحدها رقيقة ، وتنحل ، وتذوب ، وتزول . لقد اضعت كيانك ، فلا نعرفك اليوم .

ها انت ، ايها الخشب العتيق ، يا من كنت تعشق السماء الفيحاء ، والهواء الصافى .

ها انت قد اصبحت قطعة من الجلد الأزرق .

هذه المبالغة الفارغة

* عجيب أمر بعض الشعراء :

يمتطون المبالغة ويتركون لها الزمام فتجرى بهم على هواها لا تلوى على شىء .

كأن المبالغة هى جوهر الشعر الذى لابد له منه ، وسمة من سماته التى لا يستغنى عنها فى حال من الأحوال .

المبالغة فى الشعر هى نوع من الكذب العذب يلجأ اليه الشاعر احيانا ليضخم احاسيسه فتغدو اكثر نفوذا الى القلوب ، واكثر اثارة لمشاعر الآخرين .

وفى كل مبالغة لطيفة لابد ان يشترك الخيال والواقع والا كانت تلك المبالغة سقيمة عقيمة .

فالانسان المعاصر لم يعد يطيق اليوم المبالغة الباهظة التى يرفضها الذوق المرهف .

فالحضارة شذبت كثيرا من النفوس وهذبتها ، وتركت فى العقول اثارها المضيئة الوضيئة .

فليس كل ما كان يرضى اسلافنا فى الماضى يرضينا اليوم . هذه سنة الحياة والتطور ، ولا سبيل الى نكران ذلك .

فى الشعر مثلا لم يعد كل ما قاله الأوائل محط اعجابنا ، وموضع اندهاشنا .

فمن ذا الذى يعجب منا اليوم بهذا البيت :

اذا بلـــغ الفطام لنا صبى　　تخر له الجبابر ساجدينا

وقد كان من عيون الشعر الذى قيل فى الفخر .

واذواقنا اليوم لم تعد تقبل مبالغة الشاعر التى تهتك حجاب الشمس أو تجعلها تقطر بالدم :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما

وليس معنى هذا انى ادعو الى التقليل من قيمة اشعار الحماسة فى ادبنا العربى ، او القاء كل ما جمعه ابو تمام منها فى البحر ، ولكنى اعتقد ان عهد المبالغة الفارغة مضى وانقضى ولا سيما اذا كانت من النوع الذى لا يمت الى الواقع بأى صلة .

اننا لم نعد نتقبل المبالغات الجوفاء لأننا تجاوزنا من تاريخنا الحضارى مرحلة الطفولة التى تصدق كل شىء .

المبالغة فى الشعر حلوة اذا جاءت فى محلها ، أما اذا جاءت فى غير محلها فهى لا تولد سوى الاشمئزاز ولا تثير غير النفور .

يصف المتنبى جيش سيف الدولة فيقول :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفى أذن الجوزاء منه زمازم

فالمتنبى يبالغ هنا ولاشك ولكنها مبالغة مقبولة بل رائعة لأنها نوع من الظلال يكثفها المصور فى لوحته هنا وهناك ليبرز الصورة ، ويجعلها واضحة جلية معبرة .

والمبالغة هذه كان لابد منها للمتنبى لاظهار بعد امتداد الجيش فى الأرض وارتفاع ضجيجه فى الفضاء ، ولو تجنب المتنبى تلك المبالغة لما كان لبيته ذلك الأثر الذى يملأ السمع والبصر .

وفى مقابل بيت المتنبى الرائع يخطر على البال بيت لعمر بن ابى ربيعة يقول :

فلو تفلت فى البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

هذا البيت فيه مبالغة ايضا ولاشك ، لكنها مبالغة جاءت فى غير موضعها فأفسدت المعنى افسادا شديدا ، وقضت عليه قضاء مبرما .

الرضاب العذب شىء طالما تغزل به الشعراء ، وتغنى به العشاق المعاميد ،

ولكن عذوبة الريق التى تحيل ملح البحر الاجاج ، الى ماء حلو فرات ، خرج بالمعنى الجميل الى معنى قبيح ، بل الى معنى يثير الضحك والهزء ، كل ذلك بسبب ما فيه من مبالغة جوفاء . وهكذا فان المبالغة فى الشعر جناح له اذا احسن الشاعر استعمالها ، وقيد له اذا جاء بها فى غير محلها ، فكأنها سيف ذو حدين يجرح من لا يعرف كيف يمسك به ويحسن التصرف .

قل لى ماذا تكتب
أقل لك من أنت

يقول المثل الطبى المشهور : قل لى ماذا تأكل اقل لك من أنت .

ذلك لأن لنوع الغذاء دخلا كبيرا فى تكون الجسم ، واثرا بينا فى تصرفات الانسان وسلوكه . فأكلة اللحوم هم أكثر قوة واشد ضراوة ، والنباتيون هم أرق طبعا ، وادمث خلقا ، وألطف معشرا .

هذا الامر واضح فى الانسان والحيوان على السواء ..

وفى الكتابة ايضا يمكننا القول : ارنى ماذ تكتب اقل لك من أنت . فالكتابة هى المرآة المجلوة التى تعكس نفس الكاتب فى امانة وصدق . فكما ان الثمرة تتركز فيها طبيعة الشجرة وما فيها من قوة وضعف ، والارض التى تغتذى منها وما فيها من خصب وجدب ، كذلك الكتابة . وهل الكتابة الا ثمرة العقول ، ونتاج الالباب ؟

لقد رأينا بعض معاهد الطفولة تقدم الى الطفل قطعة من الورق ، وقلما ، وتطلب اليه ان يرسم ما يشاء ، وما يخطر له على البال ، فيعبث بالقلم على الورقة حينا ، ويرسم ما يحلو له ان يرسم ، وبذلك يستدلون على ميوله الذهنية ، واتجاهاته النفسية ، ومواهبه الكامنة .

فاذا كان لذلك العبث الطفولى كل تلك الدلالة ، فما احرى ان تدل الكتابة على نزعات الكاتب واتجاهاته ، وان تنم عن ميوله الدفينة ، وطبيعته الخبيئه .

ولذلك فاننا نعرف الكاتب من ادماننا قراءته ، اكثر مما نعرفه من ادماننا معاشرته .

فبالمعاشرة قد لا يمكننا من الاطلاع على دخائل ذاته ، ومكنونات نفسه ، وان كان يمكننا من الاطلاع على ظواهر سلوكه ، ولذلك يظل بيننا وبينه حجاب صفيق لا يمكن اختراقه .

اما من خلال كتابته ، فاننا نستطيع ان ننفذ بسهولة الى اعمق اعماقه ، وابعد ابعاده ، ونطلع على كل ما كان يحاول ان يخفيه عنا فى عشرته . ذلك ان التقاليد والعادات البيئية والاجتماعية قد لا تسمح للانسان احيانا بان يقول كل ما يشعر به ، او يدور له بخلد ، فيدفنه فى جوفه ، .. ولا يدعه ينعم بالنور .

أما الكاتب فانه اكثر حرية فى التعبير عن خلجات نفسه ، والبوح بخطرات ذهنه ، وما يستقبح قوله من الانسان العادى ، لا يستقبح قوله من الاديب او الشاعر او الكاتب ، لانهم لا يؤدون الحقائق عارية جافة كما يؤديها الانسان العادى ، ولكنهم يؤدونها ملفوفة فى غلالة رقيقة من الفن تحجبها وتشف عنها فى آن واحد ، وهم لا يقدمون الخواطر مرة تتقزز منها النفس وتجتويها ، ولكنهم يكسونها بطبقة من الحلاوة والطلاوة فتغدو شهية الطعم ، لذيذة المذاق .

وكما تكشف الكتابة عما يخفيه الكاتب فى دخيلة نفسه ، تكشف ايضا عن مزاجه وسلوكه .

وعلماء النفس يردون الا مزجة كلها الى اصلين عليهما تتفرع سائر الامزجة وهما المزاج المنبسط .. والمزاج المنقبض .

فالانسان المنبسط المزاج مرح بطبعه يحب كثرة الكلام ، ويترك للسانه العنان ، وقد يحلو له التدخل فى شئون الاخرين ، ليشبع ميوله الانبساطية ، بينما يظل الانسان المنقبض المزاج متحفظا متيقظا يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، ويراقب كل كلمة من كلماته ، ويحاول ان يسيطر على كل فلته من فلتات لسانه ، هاتان الطبيعتان تتجليان بوضوح فى كتابة الكتاب ...

فالكاتب المنبسط يترك قلمه يصول ويجول ، فهو يكتب ويطيل الكتابة ، ويشرح ويسرف فى الشرح ، ويأتى بالغث والسمين ، ولا يحب التقيد بموضوعه ، بل كثيرا ما يخرج عن جوهره ، ويجرى وراء نكتة عابرة او فكرة خاطرة ، ثم يعود ليواصل ما انقطع ، ويرأب ما انصدع ، وهو فى كل ذلك يصدر عن طبع سمح ، لامكان فيه للغربلة او التنقيح ، وهو لا يجد فى ذلك غرابة او غضاضة ، فهو قطعة من الطبيعة التى تحيط به ، والتى يعيش فوق ارضها وتحت

سمائها .. اليس التبر ، فى الطبيعة ، الى جانب التراب ، والوردة البهيجة الى جانب الاشواك الحادة ، والدوحة العجوز الى جانب الشجرة الطالعة .

أما الكاتب المنقبض المزاج ، فانه يكره الاطناب ، ويؤثر الايجاز ، ويختار الالفاظ ، ويظل فى تحقيق وتدقيق ، يحسب لكل كلمة حسابها ، ويضع كل فكرة موضعها ، فكأنه البستانى الصناع .. لا تكل يده من تشذيب حديقتــه وتنظيمها ، حتى تبدو للعيون متجانسة متناسقة .

وهكذا فان الكتابة مرآة صافية تظهر ما خفى من نزعات الكاتب ، وتدل دلالة كاملة على مزاجه ، وسلوكه فى الحياة .

ولذلك قال الكاتب الفرنسى بوفون تلك الكلمة الخالدة الصادقة : الاسلوب هو الرجل ذاته ..

لا هـوادة فى الأدب

يدعو بعض الكتاب الى التساهل والتهاون فى صنع العبارة ، والاهتمام بما وراءها من معان وأفكار ، فالعبارة ما دامت تؤدى معناها بسهولة ويسر ، لا حاجة بها الى تلك الذيول البيانية التى تحد من حركتها ، وتقلل من رشاقتها ، فالعصر عصر عجلة واختصار ، ولا مجال لاضاعة الوقت بالفن والزخرفة .

وعندى ان هذا الرأى سائغ ومقبول فى أساليب الكتابة . الا انه ممجوج ومرفوض فى أساليب الادب ، واذا جاز التساهل فى الكتابة . فلا هوادة فى الادب والفن .

فأقل الناس حظا من البيان قد يستطيع ان يعبر عن فكره بأسلوب كتابى . اما الذين يستطيعون ان يعبروا عن افكارهم بأسلوب ادبى فهم قلة ، بل ندرة . اذ لابد لهؤلاء من موهبة أصيلة تولد معهم ، وتجرى فى عروقهم كما يجرى النسغ فى اوراق الشجرة الخضراء ..

فالكاتب لا يطلب منه الا الفائدة والصدق ، حين يكتب . ولبلوغ ذلك لابد له من السهولة والوضوح . وبقدر ما تشف كتابته عن افكاره ، وتكشف عن معانيه يرتاح اليه القارىء ، ويراه مجيدا فى صناعته . أما الاديب فلا يكتفى منه بالفائدة والصدق ، اذ لابد ان يكون قادرا على الامتاع ايضا ..

والامتاع هو وحده الذى يفرق بين الاديب والكاتب .

فالاديب يعنى بما لا يخطر للكاتب على بال ، وبما هو ابعد الامور عن همه واحتفاله .

الاديب يعتنى بدقة الفاظه واشعاع اسلوبه ، ورونق نسجه ، كما يعنى البستانى باشجار حديقته لتخرج له بديع ازهارها ، وشهى ثمارها . ذلك لان الاديب يكتب لا ليقرأ فى لحظة سأم ثم يفرع منه وينسى وانما يكتب ليقرأ على مر الايام ، وكر العصور ، وليجد القارىء فى كتابته دائما اللذة والامتاع ، ويرى فيها حسنا يتجدد كلما عاود اليها النظر ..

واذا كان الكاتب يقنع ببناء بيت يقيه البرد والحر ، ويحميه من الريح والمطر ، فان الاديب لا يكتفى بهذا البيت المتواضع ولا يقنع الا بقصر ممرد من مرمر ، يتضاحك تحت اشعة الشمس ويغنى لليل والنجوم .

لذلك فان ادب الاديب لا يقرأ كما يمكن ان تقرأ كتابة كل كاتب ، وانما هو يحس ويذاق ويشرب ، والقارىء يشعر بعد تذوق عباراته بما يشبه شعور الجائع بعد الامتلاء ، او الظامىء بعد الارتواء . ولو رحنا نبعد الاسلوب الادبى عن افصاحنا ، ونكتفى بالاسلوب الكتابى ، لوأدنا كثيرا من عذارى لغتنا الساحرة ، ولفقدنا عندئذ كثيرا من المعانى والصور الحسان .

فالاسلوب الادبى ليس تدلها بالكلمات ، ولا تلهيا بالوهم والزخرف ، وانما هو وسيلة لالتقاط هنيهات خاطفة افلتت من قبضة الزمن لا يستطيع الكاتب ان يلتقطها ، لانه ليس له قوة اجنحة الاديب ، ولا حدة نظرته ، ولا رهافة حسه ، ولا سعة نفسه ، ولا مرونة تعبيره .

فطول ملازمة الاديب للكلمات وكثرة احتكاكه بها ، وحسن درايته بطبائعها وخصائصها ، وشدة معاناته لتحليلها وتركيبها ، كل ذلك يكسبه ذوقا جماليا خاصا لا يتمتع به سواه ، ويهب له من التأثير ما لا يرقى اليه غيره .

وهل نفكر نحن جميعا الا بالكلمات ومن خلال الكلمات ، وهل ينمو خيالنا ويشتد الا من محاورة الالفاظ ، فلو اننا محونا من اللغة مفرداتها ، لغدا تفكيرنا محدودا ، واصبح تصورنا مسدودا ، ولوقفنا مشدوهين أمام هذا الكون العجيب ، وقفة الابكم الذى ينظر ولا يكاد يفهم .

ومن هنا كان الاديب اعلى منزلة من الكاتب ، ولا يجوز الخلط بينهما ، وبعد فما اكثر الكتاب فى هذا العالم ، ولكن ما اقل الادباء فيه بل ما اندرهم ! .

المجلات الأدبية ضرورية

المملكة اليوم ليست كما كانت فى الماضى القريب .. العيون الوسنى فتحت جفونها على خيوط النور .. السواعد الواهنة بدأت تتقوى وتشتد .. الدماء الحارة أخذت فى العروق تتدفق .

الاذهان الظمأى راحت تعب من العلم ، وتتزود من الوان المعرفة والثقافة .

لا مكان اليوم فى المملكة لعاطل أو خامل ، فكل واحد يعمل أو يستعد لعمل ضخم .

لقد اخضوضر الرجاء فى كل قلب ، واستيقظ الطموح فى كل نفس .

وكل فرد يحاول ان يؤدى دوره فى هذه الحياة .

لم تعد القناعة ذلك الكنز الذى لايفنى .

لقد حل الطموح محل القناعة ، وحل العمل محل الامل .

لكن شيئا واحدا ظل دون طموحنا الا وهو الادب . انه مازال متخلفا عن أحلامنا وأمانينا .

الصحافة العابرة لم تعد تكفى لتشبع جوعنا الادبى ، فلابد من المجلات الادبية .

فكتاب الصحف هم غير كتاب المجلات الادبية ، وقراء المجلات الادبية هم غير قراء الصحف اليومية .

كل الناس يطالعون الصحف ، على اختلاف حظهم من العلم والمعرفة ، وعلى تباين درجاتهم من التفكير والثقافة ، ولكن الذين يهتمون بالمجلات الادبية هم الصفوة فقط .

الصحيفة تحاول ان ترضى جميع قرائها ، والمجلة الادبية تحاول ان ترضى فئة ممتازة من الناس .

لذلك كان طابع الصحيفة البساطة ، والاقتراب من اللغة الدارجة ، دون الاهتمام ببلاغة البيان ، ونصاعة الاسلوب ، وكان طابع المجلة الادبية جمال التعبير ، ودقة التصوير ، والارتفاع بمستوى التفكير .

الصحيفة تعتمد على الخبر والصورة ، والتعليق ، والمجلة الادبية تعتمد على القصة والشعر والبحث والمسرحية . الصحيفة تنتهى مهمتها بعد ان ينتهى القارىء من مطالعتها ، بينما تبقى المجلة الادبية مصدرا من المصادر ، يحتفظ به ويرجع اليه عند الحاجة ، كما يرجع الى اى كتاب من الكتب .

الصحيفة متساهلة لاترفض أى زاد ، وتلتهم كل مايقدم اليها ، وتقول هل من مزيد ، وليس لديها الوقت الكافى للاصطفاء والاختيار ، لذلك فان الاديب الذى ينزل الى ميدان الصحافة ينحدر انتاجه ويصبح ضحلا ، لانه وليد العجلة ، واللحظة العابرة ، والرضى باليسير .

لقد رأينا من الادباء من يدبج المقالات فى اصلاح حفرة أو سد ثغرة ، أو معالجة أزمة طارئة ، وصار الاديب الذى يكتب مقالا رصينا فى صحيفة يعتبر عائشا فى برج عاجى ، أو قابعا فى قوقعة منعزلة .

أنا لا أدعو الى انفصال الاديب عن مجتمعه الذى فيه يتنفس ، ويحيا ، ويكافح ، لكن الكتابة فى اصلاح حفرة أو سد ثغرة ، أو معالجة أزمة طارئة ليست هى كل الادب .

لا بأس ان يحيا الاديب حياة الناس ، ويحس بهمومهم وألامهم ، ويشاركهم أتراحهم وأفراحهم ، بل هذا واجب من واجباته الانسانية ، ولكن ينبغى ان يكون انتاج الاديب دائما ارفع من انتاج الصحفى ، واحلى عبارة ، وأبدع تصويراً ، لانه يكتب على مهل ، ولان لديه الوقت الكافى للتفكير والتدقيق .

أن اديبا كبيرا كالجاحظ لم يترك مظهرا من مظاهر الحياة لم يتناوله بقلمه البليغ ، فقد عاشر فئات الشعب المختلفة ، وكتب عن الكادحين ، والبخلاء ، والحواتين ، وكتب ايضا عن الحيوان ، ولكنه مع ذلك لم يتخل ، فى كل ماكتب عن أسلوبه البارع ، وتصويره الرائع .

فالموضوع لايجيز للاديب ان يتخلى عن سمته الادبية المميزة ، ولا عن خصائصه الفنية الاصيلة ؛ واضطرار الاديب الى العجلة فى الانتاج لايبرر ضعف أسلوبه ، مهما بلغ من سمو القصد ، ونبل الغاية .

لذلك كانت المجلة الادبية والكتاب هما المكان الحقيقى للاديب ، وليست الصحيفة .

وبعد فنحن فى حاجة ماسة الى مجلات أدبية تجمع على صفحاتها شمل الادباء ، وتشبع تطلعهم الى الادب الرفيع .

نحن فى حاجة الى مجلات ادبية رصينة تحافظ على اصالة الادب العربى ، وتساهم فى رفع مستواه ، لكيلا يبقى الادب ، على الاقل ، دون طموحنا الكبير الى الغد الامثل .

عكاظ فى دربه الصاعد

لقد دار الزمن دورته ، ودخل «عكاظ الاسبوعى» عامة الثانى وقد عقد العزم على المضى فى طريقه . وما من احد يشك فى انه اسهم فى نشر الثقافة العامة بين القراء ، كما القى بعض الاضواء الساطعة على الادب والادباء ، ومايتصل بالفكر والفن من قريب او بعيد .

وميلاد مجلة او جريدة رصينة ، وبقاؤها على قيد الحياة ، واستمرارها فى الصدور ليس بالعمل السهل فى مثل هذه الايام .

لقد لفظت انفاسها من قبل ، كثير من المجلات الهادية ، وانقطعت عن الاشعاع . فالعصر ، كما هو معروف ، عصر مادى بحت ، انصرف فيه الناس عن الادب الجاد والفكر الرصين ، ولم يعودوا يطالعون الا كل مايساعد على تزجية الفراغ أو جذب النعاس الى الجفون قبل النوم .

ولست اشك فى أن الصديق عبد الفتاح أبو مدين كان له الفضل الاكبر فى تأمين الغذاء اللازم لهذا الوليد الجديد ، والسهر عليه ، حتى بدأ ينمو ويتفتح ، وتبدو على محياه العريض علامات العافية .

فالاستاذ أبو مدين بلباقته المعهودة ، ودماثته المحببة ، لايدع لك الخيار فى ان ترد له مطلبا بل ان له من التأثير مايجعلك تسارع الى تلبية طلبه راضيا راغبا .

والاستاذ أبو مدين ليس غريبا عن الوسط الادبى فهو على صداقة حميمة ، وصلة وثيقة بأكثر الادباء ، وقد كانت مجلة «الرائد» الذى اصدرها منذ أكثر من عشر سنوات ملتقى الاقلام الشابة ، ومنتدى الاشعار الجديدة ، وكانت ميدانا من ميادين النقد الادبى ، وحلبة واسعة لتصارع الاراء والافكار كما كانت نقطة انطلاق لكثير من الادباء الناشئين الذين حلقوا فيما بعد ، وتألقت اسماؤهم فى سماء الادب والفكر .

ولست ازعم ان عكاظ الاسبوعى قد بلغ كل مانريده له من قوة وعمق وتنوع ، ولكنه بلا ريب فى دربه الصاعد الطويل ، وكل من سار على الدرب وصل ــ وانا أدرك تمام الادراك ان هناك عقبات لايستطيع الانسان ان يتغلب عليها بسهولة . فالجريدة الادبية كصفحة الماء الصافى ، أو كوجه المرآة المجلوة تنعكس الحركة الادبية على صفحاتها انعكاسا تاما بكل مافيها من خير وشر ، وكل مافيها من قوة وضعف ، الا ان اقتصار الجريدة على نفر محدود من الكتاب ، وعلى اسماء معينة من الادباء ، قد يبعث السأم فى نفس القارىء وهو بطبيعته ميال الى كل جديد فى الافكار والوجوه والاسماء .

ان لدينا كتابا كبارا آثروا الانطواء والصمت واحبوا السلامة والعافية ؛ هؤلاء ينبغى ان نبحث عنهم ، ونخرجهم من ابراجهم العاجية ، كما ان هناك مواهب مغمورة ينبغى ان نكشف عنها ، ونزيل من امامها الحواجز ونمهد لها الطريق لتتفتح وتزدهر ، وتنشر آراءها وافكارها وتبرز مواهبها وطاقاتها .

ولاينغبى ان تكون شهرة الكاتب ، وذيوع اسمه اكبر همنا ، فأغلب ما يكتب الكتاب المشهورون ليس اكثر من فقاعة من الصابون سرعان ماتنفجر وتتمزق ، فالشهرة هى العدو الاول لكل ابداع .

وانى لاقترح ايضا ان تخصص صفحة كاملة من صحفات عكاظ الاسبوعى لنقل احسن ما ينشر فى المجلات والصحف العربية من نثر وشعر ونقد وبحث ، وبذلك تظل عكاظ مفتوحة العين على العالم العربى ، وثيقة الصلة بأدبائه وكتابه وشعرائه .

وهناك ثغرة ارجو من المشرفين على تحرير عكاظ سدها وهى تلافى الاغلاط المطبعية .

ففى الصحيفة اليومية قد يمر القارىء بالاخطاء المطبعية مر الكرام لايأبه لها ولايهتم بها ، ولكن فى الصحيفة الادبية فأن أى خطأ فى مقال ، أو تشويش فى قصيدة ، مدعاة للانزعاج والامتعاض .

فالشاعر الذى سهر الليالى فى بناء قصيدته ، واختيار الفاظه ، يؤلمه ولاشك ،

ان يرى كلماته وجهوده تبعثر فى لحظة ، بددا فى الهواء ، ولعل هذا السبب هو الذى ينفر كثيرا من الشعراء من نشر نتاجهم فى الصحف ، ولا أخال الا ان عكاظ ساعية للتغلب على تلك العقبة فى المستقبل القريب ان شاء الله .

وعلى كل حال فان عكاظ فى عامها المنصرم قد حققت بعض مارجوناه منها وبذلت جهدا كبيرا فى خدمة الثقافة والادب ، ونشر المعرفة . ولا احد مهما كان كريما يستطيع ان يقدم اكثر مما لديه .

واذا كان كل هلال يبدأ صغيرا ثم لايلبث ان يكبر حتى يصبح بدرا كاملا فاننا نرجو لعكاظ الاستمرار فى سيرها ونموها ليزداد اشعاعها وتساهم فى تبديد الظلام .

دعوة الى الثقافة

عجيب امر توارد الخواطر هذا .....

لقد كتبت كلمة عن الثقافة والتخصص ، ثم ألقيت بها فى درج مكتبى ، ريثما يأتى دورها فى النشر ، واذا بى أفاجأ بكلمة الاستاذ راضى صدوق فى الموضوع نفسه منشورة فى العدد الفائت من عكاظ .

ولا أظن ان احدا طلب اليه الكتابة فى هذا الموضوع ، كما لم يطلب منى احد ذلك . ولقد تم هذا كله عن طريق الصدفة حتى اننا قد اتفقنا فى الفكرة أيضا .

ولقد فكرت أول الامر ان لا أنشر كلمتى هذه بعد أن نشر الاستاذ صدوق كلمته ، ووفاها حقها من الشرح والتوضيح ، ولكنى وجدت أن لكل منا طريقته الخاصة فى المعالجة ، وزاويته الذاتية التى يطل منها على الموضوع ، فعسى أن يشفع ذلك لدى القراء .

ان زماننا هذا زمان التقدم العلمى الرائع ، فارتقاء علوم الفضاء ، والطب والطبيعة ، وغير ذلك من العلوم أمر لايختلف فيه اثنان ، ولا يحتاج إثباته الى دليل ولا برهان ، بعد أن استطاع الانسان أن يطأ بقدمه جبال القمر الصخرية ، وأن يستبدل بالقلوب المريضة القلوب السليمة ، ويخترع أفتك أسلحة الدمار ، ويبتدع أجمل وسائل الرفاه .

ولذلك لا غرابة أن يسمى عصرنا هذا عصر الفضاء ، أو عصر الذرة ، أو عصر الكيمياء ، أو عصر تبديل القلوب ، الى غير ذلك من الاسماء التى ترمز كلها الى شىء واحد ، ألا وهو عظمة الفكر الانسانى فى هذا العصر ، وتقدم العلوم ، واتساع رقعة فتوحاتها .

وفى يقينى أن كل ذلك لم يكن ليتم لولا هذه الميزة الكبرى التى هى سمة من سمات العصر ، ألا وهى التخصص : فالمتخصص يحصر ذهنه فى ناحية من نواحى العلم قد سبقه اليها كثيرون آخرون ، ثم يأخذ فى التعمق فيها ، ويسعى الى اكتشاف المزيد من أسرارها ، ويحاول دائما اضافة معارف جديدة اليها .

انه يترسم خطى الآخرين ، ويبنى فوق مابنوه ليرتفع البنيان ، ويبدو شاهقا شامخا .

ولكن ليس معنى التخصص أن يقطع الانسان كل صلة له بالحياة ، وينصرف انصرافا تاما عن كل ماليس له علاقة بمادة تخصصه ، انه عندئذ يغدو كالورقة التى تنفصل عن أمها الشجرة ، فلا تلبث أن تذبل وتيبس .

ان المعارف الانسانية وثيقة الصلة ، بعضها ببعض ، وكل منها يمد الاخرى بالثراء والنماء .

وقد ادرك ذلك العلماء القدماء ، فكان الواحد منهم يعى فى صدره الوان المعرفة ، رغم تبريزه فى فرع من فروعها .

وقد رأينا منهم من كان عالما ومفكرا وموسيقيا ، وطبيبا ، وأديبا فى آن واحد كالكندى مثلا .

وقصة الفارابى مشهورة فى التاريخ العربى حين شد أوتار آلته وعزف عليها فأبكى الحاضرين ، ثم عالجها وأعاد تنظيمها وعزف فأضحكهم ، ثم أصلح من آلته وعاود العزف عليها فأنامهم وخرج من بينهم دون أن يشعر أحد .

والفارابى هذا ، كما هو معروف ، من أشهر فلاسفة العرب .

وألكس كاريل ، الطبيب الفرنسى الطائر الصيت جمع فى كتابه المشهور « الانسان ذلك المجهول » بين المفكر والفيلسوف والطبيب والكاتب الاجتماعى فى وقت واحد .

ولذلك فان فكرة التخصص الضيقة كما يفهمها بعض الناس هى فكرة خاطئة .

فالمهندس الذى لايعرف سوى الهندسة والطبيب الذى لايتقن سوى الطب ، والصيدلى الذى لايحسن غير تركيب العقاقير ، ليسوا جميعا أكثر من حداد ، أو

نجار أو بناء اتقنوا صناعتهم ، وبرعوا فيها .

ان الذى يميز العالم الحقيقى عن غيره ، ليس انحصار فكره فى حدود مهنته واتقانه لصناعته فقط ، وانما ايضا هى النظرة العميقة الشاملة التى يكتسبها من اطلاعه على المعارف الانسانية الاخرى .

ان تلك الثقافة العامة هى التى تجعل نظرته الى مادة تخصصة أنفذ ، وأعمق وأبعد مدى ، وأكثر جدوى .

ولا ريب ان تلك الثقافة العامة تساعده على الابتكار فى عمله ، لانها تزيد من سعة عقلة وتوقد ذهنه ، ووفرة تجاربه ، وأصالة مواهبه .

طه حسين أعجوبة

طه حسين أعجوبة من أعاجيب هذا العصر ، فهو رغم ذهاب بصره فى أوائل طفولته ، استطاع ان يترك فى الادب العربى أثرا كبيرا لايمكن أن يتجاهله أديب ، ولا أن يجحده منصف .

ومهما أجهدنا أنفسنا فى البحث ، فلن نستطيع أن نجد كاتبا حديثا ترك من الدوى فى العالم العربى مثلما ترك طه حسين ، أو كان له من الاثر الجليل مثلما كان له .

فمن لم يكن فى هذا الجيل تلميذا له على مقاعد الدرس ، كان تلميذا له تربى على كتبه ، وتناول الثقافة من مائدته ، واستقى الادب من معينه .

كان الاطلاع على الادب العربى القديم مقصورا على فئة ممتازة من الادباء ... والمتأدبين ، فلم يكن متاحا الا لمن كان له الجلد الواسع ، والصبر الطويل على التنقيب فى بطون الكتب الصفراء ، وكان ذلك مدعاة لانصراف كثير من أبناء هذا الجيل عنه ، وسببا من أسباب نفورهم منه .

ولكن طه حسين بأسلوبه الاخاذ ، وبيانه الساحر ، استطاع أن يحبب اليهم ذلك النوع من الكتب ، فانطلقوا يبحثون ، وينقبون ، ويقرأون ، فاذا هم يجدون من الكنوز الادبية المطمورة ، والروائع الفكرية المبعثرة ماهو جدير بالتقدير والاعجاب .

ولم يقتصر طه حسين على تحبيب الادب العربى القديم ، بل تعداه الى تحبيب الادب الغربى بكل مافيه من رهافة حس ، ورحابة خيال ، وشمول ثقافة .

ولا غرو فى ذلك ، فقد جمع طه حسين فى اهابه بين الثقافة العربية والثقافة الغربية .

فهو قد أخذ من الادب العربى أصالة القديم وعراقته ، ومن الادب الغربى جدة الحديث وخصوبته ، فكان أدبه مزيجا رائعا من هذين اللونين المختلفين .

ميزة طه حسين أنه كان يجمع بين الذوق الرهيف ، والذكاء الخارق ، والاطلاع الواسع ، ولم يكن يسلم بشىء قبل أن يعرضه على محك عقله ، فان قبله أخذه ، وان .. رفضه نبذه .

وقد انعكس كل ذلك على أسلوبه الخاص الذى به عرف ، وبه تميز ، فأعجب به الكثيرون ، وراحوا يقلدونه ، ويحذون حذوه.أسلوب طه حسين أسلوب استطرادى .. تفصيلى ، غنى بالالفاظ الشفافة ، مشبع بالرنين العذب . وقد يدور طه حسين فى أسلوبه ويدور ، حتى ليكاد يحسبه القارىء قد ذهب بعيدا عن فكرته ، ولكن سرعان ماتراه يعود اليها ، فكأنه الفارس الماهر ، مهما أسرف جواده فى اللف والدوران ، .. ومهما أمعن فى الجرى والعدو ، يظل قياده فى يده ، ولايفلت منه الزمام .

ولذلك لم يكن طه حسين ليخرج عن موضوعه كما فعل الجاحظ ، وان كآن أحيانا يطيل الطريق ، قبل أن يصل الى هدفه المنشود .

أسلوب طه حسين واضح كالشمس ، شفاف كالماء الصافى ، فهو يتناول أصعب المسائل ، وأعوص الموضوعات ، وأدق الافكار ، فلا يغوص فى ظلمات بعضها فوق بعض وانما يسلط ضوء عقله ، ويجرى فيها بلاغة لسانه ، فاذا هى سهلة فى متناول كل قارىء .

والعالم لايجد فيها ابتذالا أو اسفافا ، والجاهل لايرى فى فهمها صعوبة أو مشقة ، ومن هنا كان الاجماع على تقدير أدبه ، والاعجاب بطلاوة أسلوبه ، وحلاوة أدائه ، مع أن الكثيرين لم يقروه على الكثير من ارائه ، بل خالفوها وسفهوها .

كتب طه حسين كثيرا فى النقد ، وتأثر بأكابر النقاد العرب ، وأساطين نقاد الغرب ، كما تأثر فى افكاره المتطرفة ببعض اراء المستشرقين ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، ولم يجمد ، بل ناقش وقارن واجتهد ، فأخطأ حينا ، وأصاب أحيانا ..

والثقافة ليست ملكا لاحد ، بل هى تبادل ، وأخذ وعطاء . المهم أن لايقتصر الكاتب على النقل وحده ، بل يبدى رأيه ويدافع عن الفكرة التى بها اقتنع ، ويعطى الموضوع أبعادا جديدة ، وكذلك فعل طه حسين .

ما من أحد ينكر أن طه حسين أحدث هزة جديدة فى عالم الادب والفكر ، وحرك العقول تحريكا عجيبا خصيباً لم يعهده الناس من قبل .

كان متحمسا لارائه ، عنيفا فى نقده ، عنيدا فى خصومته ، ولكنه لم يكن يقول الا مايعتقد ، ولم يخرج يوما فى نقده عن دائرة الادب ، وعن الاستمساك بالفاظه العفة ، وان لجأ أحيانا الى السخرية الناعمة ، والتهكم اللطيف .

ميزة طه حسين الكبرى انه كان جسرا قويا عبر عليه الجيل المعاصر من القديم الى الجديد دون أن يهوى الجسر او يهتز ، فكان له فضل التمهيد والتأسيس ، كما كان له الفضل فى دفع الاذهان الى البحث الحر ، ووزن الامور بميزان العقل الدقيق .

ولقد أخذ عليه بعض الباحثين أنه قليل الابتكار ، كثير التأثر بآراء الاخرين ، ولا سيما الغربيين منهم ، ولكن ذلك لايغض من فضله ، ولا ينقص من أدبه ، فانتاجه ملىء على كل حال بالاستنتاج البارع ، والملاحظة الدقيقة ، والحوار الذكى ، والفكر الجوال .

لقد كان لطه حسين اكبر الفضل فى تطبيق النقد الحديث على الاثار الادبية التى تناولها ببحثه ودرسه ، وقد ساعد بذلك ولاشك ، على ابعاد الفوضى عن أدبنا الحديث ، وعمل على تنقيته من التداخل والتهافت .. كما ساعد على معرفة السمين من الغث ، والصريح من الرغوة .

وهكذا فان طه حسين كان معلم الجيل الاول بلا منازع ... أنشأ مدرسة جديدة فى الادب العربى ، سارت على هدى العقل ، واعتمدت على رهافة الذوق ، وسعة الاطلاع ونصاعة البيان ، حتى غدا كثيرون يترسمون خطاه ، وينسجون على منواله ، وليس هذا بالشىء القليل .

طه حسين لم يكن شاعراً

اما ان طه حسين علم من اعلام البيان العربى ، فأمر بديهى لايحتاج الى برهان وأما ان طه حسين معلم رائد اغنى الادب ، وملأ الدنيا العربية ، وشغل الناس فشىء لايختلف فيه اثنان .

ومن منا لم يجلس حول مائدته ، ويلتهم من ثمار ادبه مالذ وطاب .

ومن منا لم يغترف من معين ثقافته ، ويشبع تشوقه الى المعرفة .

ولايضير طه حسين فى شىء ، انه لم يكن شاعرا ، فلقد اعطانا عطاء كبيرا لايقل عن الشعر الا انه طبعا غير الشعر .

وفى رأيى ان طه حسين لم يولد وفى حنجرته مافى حنجرة البلبل من ميل الى التغريد .

لقد ولد وفى نفسه مافى نفس النبع من ميل الى التدفق .

لقد كان لاسلوب طه حسين كل صفات النبع : الصفاء والاسترسال ، والجريان الذى لاينقطع ، والايقاع الذى يخلب السمع ، والرى الذى يذهب بالظمأ .

ولقد نما على جانبى ذلك النبع المتدفق غض الاعشاب ، وانتصبت باسقات الاشجار وأتت اطيب الثمار .

الا ان طه حسين رغم امتلاكه لاكثر الوسائل التى لابد للشاعر من امتلاكها ، لم يكن فى تكوينه مهيأ لان يكون شاعرا كبيرا كما كان مهيأ لان يكون كاتبا كبيرا من بعد ، فكان له هذا الاثر البالغ فى الادب العربى الحديث .

ويعود ذلك فى نظرى الى سببين أولهما ان افق الخيال عند طه حسين محدود .. والشعر لايطير الا بجناح من خيال .

وطه حسين على رهافة ذوقه ، ولطافة حسه ، وحدة ذكائه ، وسعة اطلاعة ، قليل الابتكار .

انه فنان اصيل ، لم يبلغ انامله شيء الا وأضفى عليه من سحر فنه ، واشاع فيه من حرارة أنفاسه ، واخرجه اخراجا متقنا رائعا حتى يبدو العتيق القديم ، وكأن عليه طرافة الجديد المحدث .

انه اعجوبه فى الفهم والذاكرة ، وآية فى الاستنباط والاستنتاج ، ومثل يحتذى فى تنظيم الافكار وتنسيقها ، الا انه مع ذلك محدود الابداع .

والسبب الثانى يكمن فى اسلوبه .

فأسلوبه بعيد كل البعد عن أسلوب الشعر . اسلوبه على ايقاعه اللذيذ ، ورنته الصافية ، وهدوئه المحبب ، اسلوب فضفاض ، متكرر ، رتيب ، وهو اذا صلح فى النثر للتعليم والاقناع والامتاع ، فلا يصلح فى الشعر ، للابتكار والابداع .

فالشعر حركات ذهنية مفاجئة بعيدة عن الرتابة ، وخلجات نفسية متنوعة ماتكاد تضىء حتى تنطفىء ، والشعر لمح تكفى اشارته كما قال ابن الرومى ، ولايستطيع التقاط ذلك الا ريشة رشيقة واسلوب يخلو من كل فضول أو ذيول .

ولهذين السببين فان طه حسين لم ينشأ وفى اهابه نواة لشاعر كبير مرتقب ، ولقد ادرك هو ذلك بثاقب بصيرته ، فلم يحاول الشعر الا فى الاقل النادر ، والنادر لا حكم له ، كما يقولون . ومن يدرى فلعل العاهة التى اصابته فى اوائل طفولته كان لها دور كبير فى ذلك ، واذا كانت تلك العاهة قد حرمتنا من طه حسين الشاعر ، فانها لم تستطع ان تحرمنا من طه حسين الكاتب الناثر الذى ذاع صيته فى الآفاق . ولست ارى لاغترابه اى دخل فى اخماد شاعريته ، وتحوله من الشعر الى النثر ، كل مافى الامر ان طه حسين فيه من الاستعداد الفطرى والتكوين النفسى للنثر اكثر بكثير مما فيه للشعر .

والمرء ميسر لما خلق لـــــــه .

الوضـــــــوح

الوضوح فى رأيى هو اول شرط من شروط البيان . ومع ذلك نرى بعض ادبائنا ينفرون من كل ماهو واضح ، ويؤثرون كل ماهو غامض أو كما قال نيتشه ، يعكرون المياه بأقدامهم ليوهموا انها بعيدة الغور .

ويتجلى هذا فى شعرنا الحديث اكثر من غيره من الوان الادب . ولا ريب فى ان الغموض بعيد كل البعد عن طبيعة الادب العربى ، فأدبنا واضح كالشمس ، صاف كسمائنا الزرقاء فوق رمال الصحراء .

واذا كان لبعض ادباء الغرب عذرهم فى الغموض والابهام فما هو عذر بعض ادبائنا ، لقد عاش ادباء الغرب فى بيئة تختلف عن بيئتنا كل الاختلاف ، عاشوا فى مناطق يجللها الضباب اكثر ايام السنة ، وإذا اشرقت الشمس عليهم فمن خلال السحب المتراكمة ؛ فلا عجب اذا انعكست على نفوسهم ظلال تلك الطبيعة الداكنة ، واصطبغ بذلك انتاجهم الادبى .

ان الحياة من حولهم مغمورة بالغموض ، متشحة بالقلق والكآبة ، ولذلك جاء ادبهم صورة صادقة عن تلك الحياة التى يحيونها ، وغدا الغموض ظلا طبيعيا فى اثارهم لاينكرونه ، لانه جزء من الواقع الذى يعيشون فيه .

لا بأس فى ان نقتبس من غيرنا مايلائم طبيعتنا ، ونستمد من تجارب الاخرين ما يزيد نفوسنا خصبا وغنى ، فالحياة اخذ وعطاء ، وتبادل وتفاعل ؛ اما ان ننقل الازهار التى تنمو فى احضان الثلوج ، ونزرعها فى رمال الصحراء ، فذلك ولاشك مدعاة لضياع الوقت ، وتبديد للجهد دون ماطائل .

وفى اعتقادى ان هذا ينطبق على الادب ايضا .

تناقض الشاعر

الشعر هو التفات الى الداخل كما هو التفات الى الخارج . فالشاعر يلتفت الى داخله ويمعن النظر فى اعماقه ، ويرصد انفعالاته ، ويتأمل اسرار هذا العالم العجيب ، ليزيح عنه يوما بعض الحجب ، ويلقى عليه بعض الاضواء .

والشاعر يلتفت الى خارج ذاته ، ليستمد الوانه من مظاهر الطبيعة ، ويجمع صوره من لوح الوجود .

ولذلك قال اندره موروا فى كتابة (فن الحياة) :

(الفن هو الانسان مضافا الى الطبيعة) . فالطبيعة معجم ملىء بالمفردات ، والشاعر يختار منها مايلائم قصيدته .

والطبيعة عالم حافل بالصور والالوان والالحان ، والفنان يجمع منه مايحتاج اليه فنه . لكن الانسان لوحده لايمكن ان ينتج فنا ، كما ان الطبيعة لوحدها لاقيمة لها مالم ينظر اليها الفنان بعينه وقلبه .

ان الطبيعة لتظل جامدة باردة ، مادام الشاعر مزورا عنها ، غير آبه لها ، فاذا التفت مرة اليها ، دبت فيها خلجة الحياة ، وعادت تموج بالالوان والصور .

الطبيعة لاقيمة لها الا بمقدار مانمنحها نحن من قيمة . لذلك تتغير نظرتنا اليها بتغير الظروف والاحوال . فنحن نخلع الحزن عليها ، كما نخلع البهجة ، ونحن نضفى عليها الجمال كما نحن نضفى القبح ، بينما تظل هى هى لاتتغير ولا تتبدل . وكما ان السائل يتخذ لون الاناء الذى فيه يسكب ، كذلك الطبيعة تتلون بالوان نفوسنا ، وتكتسى بشتى انفعالاتنا واحلامنا .

تلفت (لامارتين) حوله ذات مرة ، فرأى الجبال مازالت مكللة بالخضرة ، والبحيرة مازالت صافية ساجية ، والغابة مابرحت تغرد بالاطيار ، والوديان تعبق بالازهار ، ولكنه لم يجد لكل ذلك الجمال طعما ، لان (الفير) لم تكن الى جانبه ، فهتف بنبرة مترعة بالمرارة والاسى :

ان غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا ، ورد أنسكن وحشة .. لذلك فان من يطلب من الشاعر ان يلتزم بنظرة واحدة فى الحياة ، يكلف الادب شططا . فالحياة تتغير وتتبدل كل لحظة . وقديما قال الفيلسوف اليونانى :

الانسان لايستحم فى نهر واحد مرتين . والشاعر هو ابن هذه الحياة البار وصوتها المعبر ، لذلك لا غرابة فى ان يكون الشاعر كثير التناقض .

فالحياة لاتجرى على وتيرة واحدة ، وهى ذات وجوه متعددة . والشاعر فى شعره ، لايعدو ان يصور هنيهات الحياة المتقلبة ، ويكشف عن وجوهها المتعددة..ان يناقض الشاعر نفسه ليس مهما ، ولكن المهم هو ان ينقل الينا الحياة فى ابيات دافئة وشفافة .

الأدب لفظ ومعنى

الاديب صائغ ألفاظ يعرف كيف يصنع من الحبات المتناثرة عقدا جميلا تشتهيه نحور الحسان . ولكن هل الاهتمام باللفظة ، ونحتها ورصفها ، وضمها فى خيط متين هو كل عمل الاديب ؟ ان رسالة الاديب اكبر من هذا بكثير . انه رب المعانى الدقاق ايضا ، كما قال المتنبى . إن الصياغة مهما كانت بارعة ودقيقة ليست الا كوبا يقدم فيه الشراب ، والظامىء يفضل ولاشك الكوب النظيف الشفاف ، لكنه يهتم قبل كل شىء بالسائل الذى يترقرق فيه ، فهو الذى ينقع غلته ، وهو الذى يشفيه من ظمئه.

ان الصياغة الجميلة ليست لذاتها مطلوبة من الاديب ، ولا قيمة لها مالم يفرغ فيها رصيدا حيا من الفكر والشعور ، عندئذ يزداد الفكر تألقا ، والشعور توهجا ، ويفيض ذلك النور الباهر على رقعة من الحياة ، فتغدو أكثر واشد وضوحا .

لم يعد اليوم مكان لادب اللفظ لوحده ، ولابد للاديب ان يكون على تفاعل حميم مع عصره ، لابد له ان يكون على صلة بالعلم والفلسفة والثقافة وسائر الفنون وفى ذلك تغذية لادبه ، واثراء لانتاجه .

فالعلم يعلمه الدقة ، والفلسفة تهبه حركة الذهن ، والثقافة تكسبه شمول النظرة ، والفنون تمد تربته بعناصر الخصب والنماء .

لابد للاديب اليوم من بعض الاطلاع على الحضارة الانسانية فى ماضيها البعيد ، وحاضرها القريب حتى لايجىء انتاجه اجوف كزبد البحر ، تافها كغثاء السيل ، لايسمن ولايغنى من جوع .

ان ادباء اللفظ يضيعون أوقاتهم بالعبث واللهو ، وان انتاجهم لشبيه بما تنسجه العناكب على جدران الكهوف الرطبة المظلمة ، والانسان قلب وذهن ولسان ، ومالم يستمد اللسان زاده من القلب والذهن ، فان كل مايصدر عنه ليس الا هباء او هراء .

التشجيع والمدح الجزاف

التشجيع فى الادب سبب قوى من اسباب ازدهاره ، وحافز شديد لتجويده فكم من كلمة طيبة القيت فى اذن اديب ناشىء فكان لها مثل فعل السحر فى ادبه . انها كالديمة السكوب حين تلامس الثرى الظمآن ، فهى تنبت فيه شتى الازهار . ان الاديب الناشىء يبدأ السير فى دروب الادب بخطى مترددة ، فهو بالرغم مما يشعر به فى اعماقه من طاقة عارمة ، ومن قدره على الخلق ، يظل فى قرارة نفسه غير واثق كل الثقة من جودة انتاجه . ولكن الكلمة المشجعة هى وحدها التى تنتشله من وهدة التردد ، وتسكب فى عروقه الثقة والاطمئنان ؛ مما يجعله يترك لعواطفة سبيلا للانبثاق ، ولأفكاره مجالا للانطلاق ، فالثقة تشد ازره وتريش جناحه ، وتمرع شخصيته .

ولازلت اذكر تلك الكلمة المشجعة التى كتبها الزيات فى رسالته عندما اصدر الشيخ على الطنطاوى اول كتاب له (ابو بكر الصديق) فقد كانت ولاشك ، من الاسباب التى جعلته يندفع فى التأليف ، ويخرج لنا ما أخرج من روائع .

ولكن ظاهرة غريبة تفشت فى ادبنا تفشيا ذريعا ، انها ظاهرة الحك ، «حك لى أحك لك » .. هذا هو الوباء الذى انتشر فى جونا الادبى .

ان هذه الظاهرة تنم عن مرض اجتماعى يجب ان نتغلب عليه ، اذا كنا نريد لادبنا أن يحيا فى رفعة وعافية . ان كيل المدح جزافا لمن لايستحقه عن جدارة يترك أدبنا يتساقط ثمارا فجة ، قبل ان تبلغ اوان النضج ، كما يصيب رؤوس المغرورين بالدوار كأنهم يطلون من أبراج عالية . ولا ريب ان الغرور هو آفة الادب والعلم . لقد مضى طه حسين ، وهو من هو ، علو أدب واتساع ثقافة ولم يكن راضيا كل الرضى عن انتاجه الخصب الرفيع .

ومع ذلك لانزال نرى فى صحفنا من يكتب دون ان يفهم هو مايكتب ، ولماذا يكتب ، ولمن يكتب ، ونرى مع ذلك أيضا ، من يغدق عليه المديح والثناء دون خجل او حياء .

أن الثناء حق لكل مبدع ، فى كل زمان ومكان . ونحن امام الروعة لانملك أنفسنا من هتفة الاعجاب . ولكن فى الادب كما فى العلم ليس الثناء هدية يتبادلها الاصدقاء على حساب القراء .

انتكاس عجيب

يبدو لى ان الشعر يمر اليوم بدور انتكاس عجيب ، والا فاين هى القصيدة التى تطالعها فى مجلة او صحيفة ، فتشدك اليها ، وتستأثر بانتباهك ، وتجعلك تستعيدها لتقف عند بعض ابياتها وقفة التأمل ، والتبصر والاستمتاع ، انها اندر من الكبريت الاحمر كما يقولون .

اغلب الرعيل الاول غدا ينظم الشعر نظما دون دافع من تجربة ، او حافز من شعور ، همه كل همه الفراغ من قصيدة ذات وزن وقافية ، ولا عليه بعد ذلك أأثارت فى نفس القارىء شعورا بالرضى ام حركت فيه مزيدا من السخط والاسف .

والجيل الجديد أصيب بخيبة أمل كبيرة حين رأى هؤلاء الشعراء ينظمون قصائد لا حياة فيها ولا روح غايتها ملء الفراغ ، لا اغناء الوجدان ، فتقززت نفسه من الشعر العربى الاصيل وظن ان العيب فيه وليس العيب فى ناظميه ، فالتفت الى شعراء الغرب ، وراح يسير على هدى آرائهم ، وينسج شعره على منوالهم ، فجاء شعرا مقلدا مشوشا لا يمثل بيئته ، ولابيئة الغرب ، ولايمت الى الانفعال والصدق والجمال بأى سبب .

لقد غدا شعر اليوم معلقا فى الهواء ، لاتربطه بتربته العربية جذور قوية يستمد منها غذاءه وسموقه وعافيته . لقد كانت المهرجانات الشعرية التى كانت تقام بين حين وآخر ، تترك دويا فى دنيا العرب . فالقصائد كانت تتناقلها الصحف فى حفاوة بالغة ، وترددها الالسن فى لذة ، زمنا طويلا .

اما اليوم فالقصيدة ليست الا صرخة فى الهواء ، تموت بعد ان يتلاشى صداها فى الآذان . فما هو السبب ؟ أحقا لان العصر عصر مادى بحت لم يعد يتسع للشعر ؟ لا أعتقد .

ان الميل الى الشعر ، كالميل الى الغناء ، فطرى وأصيل فى كل انسان ، ممتزج بدمه فى كل زمان ومكان . وكلما ارتقى الانسان فى سلم الحضارة ، وكلما زادت همومه تنوعا ، ومشاكله تعقيدا ، كان فى اشد الحاجة الى الشعر ، ليؤنسه فى وحدته ، ويخفف من وحشته فى سيره الطويل ، ويشد من عزيمته فى طريقه الى الهدف المنشود .

أن السبب الحقيقى للانصراف عن الشعر اليوم كامن فى الشعر نفسه ، وليس ناجما عن أى سبب خارجى آخر .

ان الشعر الحالى لم يعد يعبر عن رغبات الانسان العربى ، واحلامه ، ومشاعره ، فى دقة وصدق واصالة ، ولذلك لم يعد يظفر بما كان يظفر به من قبل ، من تقدير وحب واعجاب .

الشاعر طفل

الشاعر يظل طفلا مهما تقدمت به السن . فهو فى منجاة من تأثيرات الزمن ، وفى حرز حريز من عبثه . اعصابة تظل مستوفزة،وشراييته تبقى طرية لا يدركها الجفاف ولا الذبول . انه يظل أبدا ينظر الى ماحوله بفم مفتوح ، كالطفل ، وبعين متسعة ملؤها الدهشة والاستغراب والتساؤل .

كل شىء يبدو له جديدا جديدا .. كل شىء يكتسى حلة من الطرافة ، ويستحق أن يبدأ معه الحوار . ويوم تموت فيه هذه الطفولة ، يفقد الشاعر شاعريته ، وتتحجر نظرته الى الاشياء التى تحيط به .

ومن هنا كانت المبالغة فى الشعر . والمبالغة لاتستعذب الا من اثنين : الطفل والشاعر . فكلاهما يرى الاشياء فى نضارتها الأولى . كلاهما يراها فى أوج توهجها ، لأن عاطفتهما المشبوبة لم تفل من حدتها السنون . لذلك قيل أكذب الشعر اعذبه .

فالكذب هنا ليس هو الكذب المعروف المألوف الذى يقلب الحقيقة ، ويغير الواقع ، وانما هو المبالغة التى تستند على رصيد من العاطفة ، فالشاعر لايعرف فى احاسيسه الاعتدال .

فهو انسان مرهف الشعور ، كثير النزوات ، سريع التقلب . انه كالطفل تماما . فهو اذا حزن يرى الدنيا ترتدى ثوب الحداد ، واذا فرح رقصت الدنيا من حوله وغنت ، واذا ثار فكل براكين الطبيعة تثور وتقذف بالحمم ، واذا اغتم فشمس النهار مطفأة ، والارض تغط فى ظلام لا أول له ولا آخر . وليس هذا من الكذب الممجوج الذى لا حقيقة وراءه ، وانما هو كذب عذب ، ناتج عن تضخم الاحساس ، ككذب الاطفال .

فالشاعر ينظر الى الاشياء من خلال مجهر شعوره ، فاذا بالصغير يغدو كبيرا ، واذا بالتافه يبدو خطيرا . ان البنفسجة الخجول المختفية وراء الشعب ليست شيئا يذكر بالنسبة الى عابر السبيل الغافل ، ولكنها عالم كبير بالنسبة الى الشاعر فهل من جناح عليه ، اذا رأى فيها مالم ير غيره لأن له عينا ليست كعيون الاخرين ، وأذناً ليست كآذانهم .

ومن الذى يصدق شوقى حين يقول :

لو ان ليلى فى النعيـــم معى او فى الجحيم تساويـــا عندى

ولكنه كذب جاء من تهويل الخيال ولم يأت من تزوير الواقع ، ولذلك كان من الكذب العذب . واعتقد ان هذا الكذب لايناقض رأى الشاعر القديم فى الصدق :

وأن أحسن بيـــت أنـــت قائله بيت يقـــال اذا أنشدتـــه صدقا

فالذى يهم قبل كل شىء هو صدق الشعور ، وما على الشاعر بعد ذلك من جناح ، اذا بالغ فى خياله ، وكثف من ظلاله ، مادام يستقى شعوره من نبع قلبه الحقيقى .

ان الكذب المكروه فى الشعر هو كذب الشعور وليس كذب الخيال . وقد يكون كذب الخيال ضرورة من ضرورات الشعر ، كالملح فى الطعام الذى يفسد ان خلا منه ، لانه هو الذى يستطيع ان يفرغ كل ما فى قلب الشاعر من توتر وتوهج وامتلاء .

الشـهـرة والانتـاج

الشهرة ، كما هو معروف ، هى ذيوع الصيت . فهناك الاديب المشهور والشاعر المشهور والعالم المشهور .

وكل من ادركته نعمة الشهرة يمتد صيته وينتشر حى يبلغ مسامع من لايعرفه ، ولايقرؤه .. فتراه يعجب به ويثنى عليه دون ان يعتمد فى حكمه هذا على تجربه ذاتية ، وانما يعتمد فى ذلك على تجارب الاخرين ، وعلى ذلك الدوى الساحر الذى تناهى اليه من بعيد .

وقد تكون الشهرة فارغة كتلك الفقاعات الملونة التى يتلهى بها الاطفال ، سرعان ماتنفجر كاشفة عما فى داخلها من هواء او خواء ، الا انها فى اغلب الاحيان تستند الى رصيد ضخم من الجهد والكفاح .

فهى وليدة سهر مضن وثمرة صبر طويل ، وتعب أطول .

وكل شهرة تأتى بين عشية وضحاها لاتلبث ان تتلاشى وتزول .

ولكن بعض المشهورين حين يبلغون مايصبون اليه من أحلام ، ينامون على أكاليل الغار ولايكلفون أنفسهم مشقة البحث ، أو عناء التفكير ، أليس كل مايخرج من تحت أناملهم يستأثر بالاعجاب ، ويفيض بالامتاع ؟

ومن هنا يأتى انتاجهم عاديا لايناسب مايتمتعون به من شهرة ، ولايوازى مايكنه لهم القراء من اعجاب .

ان الحفاظ على الذروة التى احتلها الرجل المشهور تتطلب منه بذل جهد اكبر .

فتلك الشعلة الرائعة لابد من تغذيتها دائما بالوقود لكى لاينطفىء اشعاعها او يخفت ضوؤها على الاقل .

وكل من لايتقدم الى الامام لابد ان يتقهقر الى الخلف ، فالحياة حركة مستمرة لاتطيق .. الوقوف فى مكان واحد .

ولذلك فان التمطى فى سرير الشهرة ، لايبرر ضحولة الانتاج ، والتزين بأكاليل الغار ..لايشفع للكاتب المشهور ، بعطاء عادى أو مبتذل أو مكرور .

لابد دائما من الجديد والطريف والرائع ، اذا أراد الكاتب ان يحافظ على قمة شهرته التى بلغها بالجهد والعرق والسهر .

ورحم الله الزهاوى حين قال :

سئمت كل قديم حتى سئمت حياتى
إن كان عندك شيء من الجديد فهات

إرضاء الناس

حقا ارضاء الناس غاية لاتدرك ... فما يرضى المتعلم لايرضى الجاهل ، وما يرضى الفتى الناشىء لايرضى الشيخ الطاعن فى السن .

فلكل منهم أحلام وآمال تختلف عن أحلام وآمال الاخرين ، ولكن أن نختلف هذه الايام ، كل هذا الاختلاف فى مفهومنا للشعر فتلك هى المشكلة .

لقد اصبح عمل الشاعر فى عصرنا الحاضر من اعقد الامور ، واشق الاعمال ؛ فهو اذا اتبع الطريقة الكلاسيكية وجد من يصرخ فى وجهه : هذا شعر خامد جامد ، اكل الدهر عليه وشرب ، فلم يعد يصلح لهذا العصر الذى اختلطت فيه الثقافات ، وتغلغل العلم فى كل شأن من شئونه ، وكل زاوية من زواياه ، فلم تعد تجدى فيه بساطة التفكير ، ولا سذاجة الشعور ، ولا طفولة القلب ، واذا اتبع الطريقة الحديثة فخلع رقبة الشعر ، وزلزل أركانه وحطم قواعده ، ولعب بكلماته ، كما يلعب الطفل بذرات الرمل على شاطىء البحر ، وجد من يقول له هذا نوع من العبث والضياع والفوضى التى لاجدوى من ورائها .

لذلك غدا الشاعر جم الحيرة لانه لم يعد فى استطاعته ارضاء نفسه وارضاء الناس . كانت القصيدة التى ينظمها الشاعر تتخاطفها الايدى وتتناقلها الالسن ، لان اذواق الناس كانت متشابهة تقريبا ، ولكن الاذواق اليوم اختلفت اختلافا كبيرا ، والثقافات تعددت وتنوعت ، والحياة تداخلت وتشعبت .

فما هو الحل اذن ؟

ايمسك الشاعر عن قول الشعر ، ويكتفى بترديد ما انتجه أسلافه النوابغ من روائع ، أم أن عصرنا هذا عصر مادى بحت ، لم يعد يتسع لاى غذاء روحى ، وأن الشعر لم يعد الا من مخلفات العهود البائدة التى تمثل فترة من

الماضى البعيد او القريب ، كما تمثل بعض الاحجار الاثرية بعض فترات التاريخ .

اكبر الظن ان الذنب ليس ذنب هذا العصر ، وانما هو ذنب الشعراء انفسهم ، فالشعر الكلاسيكى الذى نرى ونسمع لم يعد يرضى الناس ، وكذلك الشعر الحديث المتحرر ، فهم لايجدون فيهما مرآة لنفوسهم ، وهم لايشعرون ، بعد قراءتهما ، انهم اكبر قدرا ، وارفع شأنا ، وأكثر فهماً لاسرار الكون ؛ لم يعد يشعر الناس بعد قراءة الشعر الحاضر أنهم غدوا أكثر ثروة ، وأعمق تجاوبا مع اصداء الحياة ، بل انهم يشعرون انهم اصبحوا اكثر ضياعا ، وأشد تمزقا واختلالا .

فلا غرابة اذا انصرفت النفوس عن الشعر فى هذه الايام ، واعتبرته نوعا من عبث الوليد ، واضاعة الوقت الثمين فى غير ما طائل .

فلنتواضع قليلاً

لماذا لا نتواضع قليلا ، وتكون اكثر تسامحا ؟ فالنفوس الضيقة هى التى لاتقبل الا ما يوافق هواها ، ولاتعجب الا بما يشابه طبيعتها ، فهى تختصر الكون فى ذاتها ، وكل ماخلفها تراه هراء او هباء .

أما النفوس الرحيبة فهى تشعر انها جزء ضئيل من هذا الكون الشاسع الواسع ، وانها لاتبصر الا بمقدار ، ولاتسمع الا بمقدار ، ولاتعقل الا بمقدار ، وقد يرى غيرها ما لا ترى ، ويسمع ما لاتسمع ، ويعقل مالاتعقل ، ولذلك فهى تكن الاحترام لمشاعر الاخرين وآرائهم واحلامهم .

وقد ترى فيما يشبه آراءها ومشاعرها واحلامها تكرارا لا طائل وراءه ، ولغوا لا فائدة منه ، فهو وان اشبع غرورها ، وعزز طمأنينتها ، لا يزيدها ثروة ، ولا يضيف اليها بسطة فى العقل اوالشعور .

كان « اندره جيد » لا يحب من الناس الا من يختلف عنه فى كل شىء ، ولذلك قال فى مقدمة كتابه « الاغذية الارضية » :

(يانتنايل ! ... لانك تختلف عنى انا أحبك ، ولا أحب فيك الا مايختلف عنى) . فالحقيقة ليس لها وجه واحد فقط ، وانما هى ذات وجوه متعددة ، وكل وجه منها يختلف عن الوجه الاخر حسب الزاوية التى ينظر منها الناظر اليها .

كما ان كل وجه من تلك الوجوه لايمثل الحقيقة كلها بل يمثل جزءاً منها ، ومايمثل الحقيقة حقا هو تلك الوجوه جميعها .

وكلنا نذكر تلك الاسطورة المشهورة التى تزعم ان احدهم اتى بفيل امام جماعة من العميان وطلب الى كل منهم ان يصفه ، فالذى مد يده ولمس خرطومه

قال ان الفيل املس طويل مخروطى الشكل ، والذى وضع يده على أذنه قال ان له شكل المروحة ، والذى وضع يده على ظهره وقال انه شىء هائل ضخم كالجمل . ومن الطبيعى ان جميع هؤلاء العميان كانوا على حق ، فهم لم يصفوا الا مالمسته أيدهم . فهل نحن أوفر معرفة بحقائق الحياة من هؤلاء العميان ؟ فلنتواضع اذن قليلا ، ولنكن أكثر تسامحاً اذا شئنا ان لانحشر فى زمرة النفوس الضيقة التى لاتعجب الا بما يشابه طبيعتها ، ولا تقبل الا مايوافق هواها .

الجـمـال السـاجى

الحركة أصل الكون ، ومدار الحياة . وهى فى الكائنات الحية واضحة صارخة ، تنتقل من كائن الى آخر بجيشانها وتدفقها لكى تحفظ الحياة على مر الزمان .

حتى الجبال الجامدة ، والصخور الهامدة فهى لاتخلو من الحركة ، وهى مشحونة بقوة خفية تدور فيها وان كنا لانراها بعيوننا القاصرة ، ولانلمسها بحسنا المحدود .

هذا شىء فرغ العلم الحديث من اثباته ـ ففى ذرة الرمل مثل ما فى قرص الشمس كهارب لاتفتأ تدور على مر الاعوام والعصور . وفى الحركة جمال لايخفى على العيون .

فالعاصفة المزمجرة ، والثلج المنهمر ، والبحر الهائـج ، والرعـد القاصف ، كل ذلك فيه جلال وجمال ، لمن كان فى مأمن يحفظ له حياته ، ويقيه من الاذى والخطر .

الا ان هناك جمالا ارفع من جمال الحركة الا وهو جمال السكون . ففى الليل الساجى وفى البحيرة الهادئة ، وفى ضوء القمر ، وفى ظلال الشجر ، جمال يفوق جمال الامواج المتلاطمة ، ويوحى بلذة اعمق مما توحيه رؤية الثلج المتساقط فى الشتاء ، أو المطر المنهمر من السماء .

فالسكون هنا ليس معناه الموت . السكون هنا بحر متحرك فى الباطن ، حالم ، وادع فى الظاهر ، هو هدوء بلغ ذروة الصفاء والنقاء ، وفى السكون جمال يبعث على الاستغراق والتأمل ، وحشد ملكات النفس ، واستجماع قوى الذهن ، وفى جمال الحركة تشتيت لها وتبديد .

فى السكون جمال التناسق والانسجام ، وهو ارقى انواع الجمال . وقد ادرك المتنبى ذلك حين قال :
« تناهى سكون الحسن فى حركاتها ... فتناهى سكون الحسن هو نهاية الجمال ، وغاية التأثير .

* من الجمال الانسانى ماهو جمال معربد ومنه ماهو جمال صارخ ولكن هذا الضرب من الجمال المتحرك قد يفتن الحس ولكنه لايروى القلب ، ويشبع النفس . الجمال الكامل الراقى هو الجمال الساجى الذى يغرق الروح فى النشوة ، وهو بشعاع القمر أشبه ، فهو يضىء ولكنه لايحرق .

بين الكاتب والأديب

هناك فرق كبير بين الكاتب والاديب . الكاتب كل همة نقل افكاره وارائه ، ومشاعره الى الناس ، لايبتغى من وراء ذلك الا انارة العقول وتثقيف الاذهان .

كثيرا ما يبدى ويعيد ، ويشرح ويطيل الشرح ، كل ذلك ليجعل فكرته واضحة تنتقل الى القارىء دون تشويه او تحريف . انه لايهتم كثيرا بدقة الاجزاء ، وروعة البناء بقدر اهتمامه بكامل موضوعه . والكاتب يتساءل بعد كل مايكتب هل وفق الى ان ينقل فكرته سليمة الى القارىء ان يفهم ماأراد .

لذلك اتسم اسلوب الكاتب غالبا بالبساطة ، والسهولة ، والوضوح . اما الاديب فعمله عسير ، فهو لايكتفى بما يكتفى به الكاتب . انه بناء يشيد عمارة شاهقة ، وأى خلل فى زاوية من زواياها ، أو حجر من احجارها ، قد يعرضها للسقوط والانهيار .

وهو لايكتفى بوضع كل حجر فى مكانه المناسب بل لابد له ايضا من نحته وصقله ، لتنهض العمارة وفيها رواء للعين ، ومتعة للقلب ، وانشراح للخيال . وما اكثر العرق المتصبب الذى لايبدو للمعجبين بهذا الصرح الانيق . فكثير من الكلمات يطاردها الاديب ، ويلهث وراءها حتى تخضع له وتنقاد . وما هذه المطاردة بالعمل الهين . أنه قد يمزق اكثر مايكتب ، ويحرق اكثر مايؤلف ، قبل ان يرضى عنه ، ويسمح له التنفس فى عالم النور .

انه صانع كلام يتعب كثيرا فى صياغته ، لا ليموت لساعته ، ولكن ليخلد على مر الاجيال ، ولذلك فان انتاج الاديب لايقرأ قفزا ، وانما يقرأ على مهل ، وارضه لايسافر فيها على جناح طائرة ، وانما مشيا على الاقدام . فوراء كل جملة من جمله مايدعو الى التوقف والتأمل ، ومن كل تعبير من تعابيره تقطر

حلاوة جديدة يتلمظ لها لسان المتذوق .

واذا كان الكاتب يقدم الحقيقة للناس عارية الا من ردائها العادى البسيط ، فان الاديب يأبى ان يقدمها الا فى غلالة رقيقة انيقة ، وهذه ميزة الفن .

الناقد شمعة

من النقاد من يتسلق أكتاف الجبابرة من الكتاب ليظهر ، ولكن سرعان مايضطر الى العودة الى مكانه من الارض سالما او محطما . ومنهم من يتسلقه الكتاب ، فتطول قاماتهم ، ويظل هو محجوبا عن الانظار ، متواريا فى العتمة .

هذا النوع من النقاد كالمسن يشحذ ولايقطع . انه كالشعلة الهادية تدل على الطريق ثم لاتلبث ان تنطفىء .

الناقد البصير نعمة كبرى للكاتب ، فهو يستأهل منه الشكر والتقدير . انه الجندى المجهول الجدير بأكاليل الغار لانه يمضى ، ويبقى الشاعر والكاتب والاديب ، ليجنوا ثمرات الشهرة ، وذيوع الصيت .

فالزمن لايخلد الا العطاء المبدع ، العطاء الذى يسكب فى قصيدة من الشعر ، او لوحة من الرسم ، او قطعة من الموسيقى . ويتناسى بعد ذلك من كان له الفضل فى تنقية ذلك العطاء الساحر ، من الشوائب والزوائد والفضول .

نعم يتناسى الناقد الذى دل على الطريق ثم انصرف . والناقد فى حياته وبعد مماته مظلوم ، فهو يعيش غالبا ويموت بلا اصدقاء . وهو اذا استطاع ان يظفر من الناس بالاعجاب فهو قلما يستطيع ان يظفر منهم بالمحبة . فالحقيقة مرة لايسهل ابتلاعها ، ولايستساغ تقبلها . حتى الكاتب الذى افاد من ذوق الناقد وخبرته فهو اول من يستثقل ظله ، ويتبرم به . ورغم كل ذلك يظل الناقد الحق ماضيا فى سبيله لا يهمه الا ارضاء وجدانه واشباع صبواته الى الجمال ، فهو يشير الى الدمامة باصبع لاترتجف ، ويهتف للحسن بدهشة الطفل ، وفرحة المكتشف . بعد كل هذا الجحود الذى يلقاه الناقد فى حياته وبعد مماته ، الا يستحق منا على الاقل ان نصحح نظرتنا اليه ، ونعتبره شمعة من الشموع التى تضىء للناس وهى تحترق .

أهــلا رمضان "١"

ها هو رمضان قد أقبل ، ولا شك ان فى قدومه خيرا وبركة ، فالانسان ، هذه الآلة الحية العجيبة ، يحدوها الرجاء والطموح وحب البقاء ، فتندفع مع تيار الحياة الصاخب لاتلوى على شىء ، ولاتلتفت يمنه ، ولا تلتفت يسرة ، وانما تمضى قدما وكأنها السيل العارم ، وهى لاتصيخ لأنات المظلومين ، ولا تنهدات المحرومين ، ولاتوجعات المرضى ، ولا تحس بغصص اليتامى والمساكين ، لان ضجيج الحركة يصم اذنيها ، ودخان الشهوات يغلف عينيها ، ورمضان هو الشهر الوحيد من شهور السنة الذى يهيب بتلك الالة ان تخفف من جريانها ، وأن تقف لتلتفت يمنة ويسرة ، ولتستمع الى آلام المعذبين فى الارض ، ولتشاركهم فى بأسائهم ، ولتمسح على جراحهم بيد الرحمة والحب والحنان .

ومما لاريب فيه ان فى اعماق كل انسان ، بذور خير وبذور شر ، وهذه البذور جميعا ، تنمو وتترعرع وتتشابك فى قرارة كل نفس ، ويتفاوت نمو هذه البذور حسبما يقدم لها من ماء وغذاء وهواء ، ففى بعض النفوس تتسامى بذور الخير ، وتعلو وتلتف حتى لتكاد تخنق بذور الشر ، وفى بعض النفوس الاخرى تنمو بذور الشر وتتكاثر حتى لتحجب كل شعاع للخير .

ورمضان هو الشهر الوحيد من شهور السنة الذى يمنع الماء والغذاء والهواء عن تلك البذور الشريرة ، فتذوى وتضمر وتموت بينما يمنح بذور الخير الخصب والنماء ، فتزهو ازهارها فى النفوس ، ويضوع عبيرها فى الفضاء .

ان حب الخير وبغض الشر لشىء هام لاريب فيه ، ولكن الاهم من كل ذلك هو ان يقوم الانسان بعمل ايجابى فعال : ان يمارس عمل الخير ممارسة اكيدة ، ويكافح الشر مكافحة عنيدة ، ولاشك ان ذلك يتطلب من النفس الصبر والمصابرة والتضحية ، والتنازل عن كثير من الشهوات ، والترفع عن كثير من متع الحياة الزائفة ، والتشديد على محاسبة النفس حسابا لا هوادة فيه ، والتدقيق فى كل تصرفاتها الماضية .

ولطالما نصح علماء النفس والاخلاق بضرورة الاستقصاء الذاتى ، واستعراض حصاد النهار ، قبل ان يأوى المرء الى فراشه ليلا ، ليعرف ماقدم من خير فيكثر منه ، وما أسلف من شر فيتجنبه ، وليتيح لنفسه ان تحلق فوق ذاتها ، وان تبلغ أروع اهداف انسانيتها .

ورمضان هو الشهر الوحيد من شهور السنة الذى يتيح لنا هذه الفرصة المباركة السعيدة . ومما لاشك فيه ايضا ان الحياة ليست ضرورة مادية بحتة ، وليست فقط مجرد شراب وغذاء ، وليست كدحا ونصبا فحسب ، والا فقدت الحياة كثيرا من عناصر جمالها ، وبهاء رونقها ، ولم يعد فيها ما يغرى المخلوقات بحب البقاء ، والتشبث به ، فالتأمل والعبادة ، والمشاركة فى اسداء الخير ، والتمتع باللحظات الروحية المترعة ، والتلذذ بسكينة النفس ، والتغلب على الشهوات ، والشعور بالقناعة والرضى ، كل ذلك مما يضفى على الحياة كثيرا من السمو والرفعة ، ومما يجعلها تنبض بالسعادة الحق وتتدفق بالغبطة الصافية .

ورمضان هو الشهر الوحيد من شهور السنة الذى يتيح لنا كل ذلك فى سخاء غامر .

فاذا لم يكن لشهر الصوم المبارك الا بعض هذه المزايا الطيبة المباركة لرحبنا به من اعمق الاعماق ؛ فكيف اذا كان بعد كل هذا شهر الرحمة والمثوبة والغفران ؟

فأهلا ومرحبا برمضان ...

شهر البركات "٢"

صدق أبو العلاء : تعب كلها الحياة

كدح مستمر فى سبيل الحصول على لقمة العيش ، ونصب مرهق فى سبيل امتلاك مظاهر براقة ، وتحقيق امنيات مزخرفة ، يجرى الانسان وراءها ويلهث ثم لا تلبث ان تفقد رونقها ورواءها ، ويظل الانسان طول العام يدور فى هذه الدوامة الرتيبة حتى يطل رمضان بظله الظليل وواحته الروحية الخصيبة .

عندئذ يقف ذلك الانسان الذى كان يغذ السير ولايلوى على شىء ، ليستمتع بانسانيته الحق . فالانسانية ليست كلها بحثا عن الخبز ، ولا جريا وراء المظاهر البراقة التافهة ، ولا سباقا محموما هدفه التنافس والتفاخر والاستعلاء على الناس .

وانما هى قبل كل شىء وقفة تأمل فى النفس والكون والحياة وما وراء الحياة ، والانطلاق بعد ذلك الى الهدف المرسوم والغاية المرجوة .

ورمضان وحده هو الذى يتيح لنا جميعا تلك الوقفة المثمرة ، فالانسان كتلة من التناقضات فهو مزيج من القوة والضعف ، من الخير والشر ، وهو بطبعه ميال الى الشهوات كما هو ميال الى الترفع ، ورمضان هو وحده الذى يستل من النفس البشرية نوازع الشر ويعزز فيها نوازع الخير ، وهو الذى يجرد الانسان من شهواته ، ويجعله يتمسك بقيمه وترفعاته .

فرمضان شهر الرحمة ، والتسامح والصبر والجود ، وهو شهر التطهر من ادران المادة والتمتع بمعطيات الروح .

رمضان هو الشهر الذى يربط بين المسلم والمسلم برباط الاخوة الصحيحة ، وهو الذى يصل بين الانسان والانسان بصلة المحبة التى لازيف فيها ، وهو بعد ذلك كله شهر التوبة والغفران .

فما أبركك من شهر يارمضان !

أيام من السماء

لماذا يأتى هذا الاشعث الاغبر ، من أبعد اصقاع الارض ؟ لماذا يترك الاهل والولد والوطن ، لايبالى بمشقة ، ولايهتم بسلامة ، ولايعبأ بمال ؟

لماذا كل هذا الشوق الجارف ، وكل ذلك الفرح الغامر ؟ ذلك لأن فى خياله حلما أجمل من كل حلم يريد ان يتحقق ولان فى قلبه ايمانا اقوى من كل ايمان يريد ان يعبر عنه .

ان الايام لتمر رتيبة متشابهة ، وان الانسان لشديد الالتصاق بالارض ، ولابد له من بعض ايام السماء الخالصة من كل كدر ، البريئة من كل مادة ، ليرقى الى ذروة من تفتح الوجدان ويقظة الضمير .

وايام الحج ، فى كل عام ، هى أيام من السماء .

فى كل خريف تتساقط أوراق الشجر ، وفى كل شتاء تخلع الاغصان ماتبقى من أوراقها الصفراء ، وتتجرد تماما لتعود فى الربيع مزدانة بزهر انضر ، وفى الصيف موقرة بثمر اكثر .

وكذلك المسلم ، فى أيام الحج ، ينفض عن قلبه المطامع ، ويستل من صدره السخائم ، ويطهر نفسه من الذنوب ، ويعيد النظر فى اعماله الماضية ، فيأسى على ماقدم من شر ويتوب ، ويفرح بما اسلف من خير ويستزيد .

الحج وقفة فى عرفة ، ووقفة فى تيار الزمن الهادر ، لمحاسبة النفس على ماقدمت وما اخرت الحج عملية تعرية للنفس ، لمعرفة مافيها من ضعف ، ومعالجة ذلك الضعف .

والحج أيضا عملية تنقية للنفس ، وتجديد لطاقاتها وقواها ، لتسير بعد ذلك الى الامام ، ...وترتفع الى الاعلى ، ولتخرج من تلك المحاسبة وهى اكثر لمعانا ، وانقى صفاء ، واقوى مضاء .

والحج قبل كل شيء تلبية لنداء الهى كريم : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

وما أجمل هذا اللقاء الاكبر ، على الصعيد الاطهر ، لا فرق بين غنى وفقير ، وكبير وصغير ، وابيض واسود ، فالخلق كلهم عباد الله ، والخلق كلهم اخوة ، منشؤهم واحد ومصيرهم واحد ، وربهم واحد ، ودعاؤهم واحد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ...

هذا هو الحج فى معناه الرائع : تلبية لنداء الله ، ولقاء بين الاخوان فى الله ، ووحدة فى المصير ، وحساب للنفس ، وتطهير للروح .

ليرتفع الانسان بانسانيته ، ويحقق الاهداف التى من اجلها خلق .

الحرية ثمرة الدماء

وأخيرا ، فى لحظة سعيدة من لحظات التاريخ ، تخلت فرنسا عن غطرستها فاستقلت الجزائر .

لم تتخل عن غطرستها بمحض رغبتها ، ولكن عقلها الواعى استيقظ فوجدت ان تلك الغطرسة ستجر بها حتما الى الافلاس والدمار .

لقد رويت بطاح الجزائر الطاهرة بالدماء ، وامتلأت شعاب جبالها بالاشلاء .. دماء الفرنسيين الغاضبين ، ودماء الجزائريين الشهداء على السواء .

لم يبق بيت لم يمد اليه الموت منجله الحاصد . فمن لم يفقد طفلا فقد أبا أو أما ...

ومن لم يفقد قريبا ، فقد حبيبا ...

لم يسلم من هذا الحزن الشامل المقلق كبير أو صغير ، غنى أو فقير ، طفل أو شاب ، مدجج بالسلاح ، أو أعزل الا من الصبر والايمان ...

كانت حربا عمياء ، ضارية ، التهمت الاخضر واليابس ، السهل والجبل ، لم يسلم من لظاها الازهار فى الحقول ، ولا الطيور الهاجعة على ذرى الادواح .

كانت حربا لا هوادة فيها ، نمت على الرعونة الفرنسية ، بقدر ما انبأت عن البطولة العربية .

كان للجزائرى المناضل العذر فى سفك دم أعدائه ، لانه كان يذود عن أرضه الطيبة ، كان يدافع عن ماضيه وغده ، فما هو عذر الفرنسى الدخيل . لقد غادر بلاده ، وترك أهله وأحباءه ؛ ركب أثباج البحار ، وجاز فيافى القفار ، ليصطلى بهذه النار ، وليسعى الى حتفه بظلفه كالبهيمة السائمة ...

لقد ساقه الى الارض المتفجرة بالبراكين ، حفنة من الطامعين المغامرين كما تساق النعاج الى المجزرة .

لا دفاعا عن عقيدة ، ولاذودا عن تراب وطن ، ولكن حبا فى الشر ، وتماديا فى الشره والاستغلال ، فكانت أكبر مأساة فى القرن العشرين ، مأساة الجزائر ..

جزى الله الشدائد كل خير ، فلقد علمتنا أشياء وأشياء .. علمتنا ان التربة التى لاتسقى بالدم الزكى لاتنبت الحرية اليانعة .

علمتنا ان الايمان وحده هو الذى يطفىء النيران ، ويدك الحصون ، ويزعزع الجبال ..

علمتنا ان الشجاعة والصبر هما أقوى الاسلحة ، وانهما لايغلبان ..

علمتنا ان الاستقلال لايؤخذ بالتوسل والتباكى والاستجداء ، وانما يؤخذ قسرا بالقوة والعزيمة والمضاء .

علمتنا اخيرا أن فى الامة العربية جوهرا اصيلا قد تهب عليه الاعاصير وقد تطمره الرمال ، ولكن المحن لاتقضى عليه ، بل تصقله ، وتزيد من تألقه ولمعانه ...

فيا أرض الجزائر الزكية النفح ، ياأرض أجدادى ! لقد ركزت راية الفداء على قمة التاريخ ، وقدمت للاجيال الآتية أمثلة حية فى البطولة والتضحية .

وها هو علم الاستقلال الذى نسجته من دموع الايامى ؛ ونشيج اليتامى ، ومهج الابناء ، يرفرف على ربوعك زاهيا خفاقا ..

فاهنأى بثمرة جهادك الطويل .

واضفرى أكاليل الغار ، لشهدائك الابرار ، وهلمى الى الجهاد الاكبر فقد انتهيت من الجهاد الاصغر .

ذكرى اليد البناءة

ذكريات عديدة شتى تمر فى بال الزمان .. وماكل ذكرى تستحق التمجيد أو الالتفات .

والاحداث الجسام تنطبع فى ذاكرة الدهر التى لاتعرف النسيان .. ولكن بعضها بالاسى يوحى ، وبعضها يثير الاشمئزاز ، وبعضها يجعل الدهر يكسر من طرفه خجلا من اطلالها ولا شىء يبعث فيه الطرب والاهتزاز مثل ذكرى الشيم الشهمة ، ذكرى الجدول الذى يجرى فى الفقار بين الصخور والاحجار ، فما تلبث ان تكتسى بالاعشاب والنضرة ، وترف بظلال الخمائل والنسمات .

ذكرى كل يد خيرة بناءة تساهم فى تفتح الانسان ورفعة شأنه . تزيح الاشواك من طريقه وتزرع الخير فى دروبه ، ليعيش حياة اهنأ وابهى وأعمق ، وليكون اكثر استمتاعا بانسانيته .

وذكرى جلوس المليك العظيم سعود هى ولاشك ذكرى جديرة بفرحة القلوب ، حرية بكل ازدهاء واحتفاء .

لانها ذكرى اليد الخيرة البناءة ، وذكرى الجدول السمح المتدفق بين رمال الصحراء القاحلة .. وليس اصعب من عهد البناء ولا اجهد .. فوراء الزهرة التى تبهج العين برؤيتها جهود مضنية تبذلها الطبيعة .

وكل هذه الجهود المتصلة تتم فى الخفاء . والنظرة العابرة لاتدرك من الزهرة غير طلعتها الحسناء . وكذلك بناء الامم ، ولاسيما اذا كان البناء يتناول الامة من جذورها العميقة ثم يرتفع بها صعدا نحو العلاء ، فهو من اشق الاشياء . وليس تغيير عقلية امة بالشىء السهل الذى يتم بين عشية وضحاها ، فليس أصعب من تبديل العادات الموروثة ، ومحو المفاهيم التى نشأ عليها الناس ، فذلك ولاشك يحتاج الى زمن طويل ، والى عزم الجبابرة الذى لايعرف النصب ولا القنوط .

وان من يتابع الطفرة الحضارية التى حققتها البلاد فى فترة قصيرة من عهد الملك سعود المديد باذن الله يملأه اليقين بالنهضة الشاملة الكبرى فى غد قريب .

واذا كان دور التأسيس قد تم بهذه الهمة التى لاتعرف الملل ولا الخور . وهذه الرغبة الاكيدة الصادقة فى الاصلاح ، واذا كان دور التنمية قد قطع شأوا بعيدا مرصوفا بالوعى والتفهم ، فان الحصاد سيكون موفور الغلال ، وان البذور المباركة التى غرستها أنامل المليك العظيم ستكون ادواحا باسقة مثقلة بالثمار .

فيعود الى هذا الوطن الام عزه الغابر ومجده الداثر ، يوم كان مهبط النور ومنبع الحضارة . وان فى وجود اب رحيم مثل العاهل العظيم سعود لاكبر ضمانة لتحقيق هذه الاهداف الكريمة التى يتطلع اليها كل عربى وكل مسلم فى مشارق الارض ومغاربها .

حقق الله الآمال ومد فى عمر المليك المفدى .

الفيصل العظيم

كل نفس ذائقة الموت . وكل أجل مهما امتد وطال لابد ان ينتهى ، لكننا لم نكن نتوقع أن يختطف الفيصل من بيننا اختطافا وهو فى أوج عظمته ، وذروة اشعاعه ، والناس جميعا فى امس الحاجة اليه .

لذلك لم تكن الفجيعة بالفيصل من النوع المألوف . لقد زلزل الناس زلزالا شديدا من قوة الصدمة وهول المفاجأة .

وكانت كارثة كبرى أسالت المدامع ، وأقضت المضاجع . فلم يكن عاهلنا الراحل ملكا كسائر الملوك ، ولا زعيما كغيره من الزعماء .

لم يكن يستمد عظمته من أبهة الملك ، ولا قوة المال ، ولاسلطان الجاه ، وانما كان يستمد عظمته من نفسه ، كان الرجل والرجال قليل . كان الاب الرحيم لشعبه يفرح لفرحه ويتألم لألمه ، ويسعد لسعادته .

وكان القلب النابض لامته ، والمخلص الوفى لعروبته . وكان المؤمن المتحمس لدينه ، يسعى الى نشره ، واعلاء كلمته . لقد عمل طوال حياته لرفعة شأن الانسان ، أينما كان ، بلا كلل ولا ملل . عمل لتثبيت القيم الخيرة على هذه الارض . لقد عمل للدنيا وكأنه يعيش أبدا ، وعمل للآخرة وكأنه يموت غدا .. وبذلك كان المثل الرائع للرجل المسلم .

لقد اختطف الفيصل من بيننا اختطافا وهو مايزال فى أوج عظمته ، وذروة اشعاعه . ذهب ولم يعط كل عطائه . ذهب ولم يحقق كل أحلامه ومطامحه . ذهب ولم يكمل كل رسالته .

لذلك كان حزننا عليه عظيما ، واذا ظفر بعض الزعماء بالاعجاب ، فان الفيصل قد ظفر منا بما هو أغلى وأثمن ، لقد ظفر منا بالحب .

لقد غادرنا فجأة ، فلم تبق عين لم تدمع ، ولا قلب لم ينفطر . طيب الله ثراه ، ونضر مأواه ، والبركة فى خير خلف لخير سلف .

مات اكبر النقـــاد
مارون عبود

لقد سقط فى ميدان الادب ، بعد نضال طويل جاوز نصف القرن ، كما يسقط الجندى الشريف فى ميدان المعركة ، وبعد ان اضاف الى الادب العربى ثروة لاتوصف .

سقط ولم يترك القلم ولا الكتاب ، كانت الكتابة بالنسبة اليه حاجة ضرورية ، كحاجته الى الغذاء والهواء والضياء .

لم يلمح شجرة نخرة فى عالم الادب الا وكانت فأسه الى اصلها ، ولم يترك بناء شعريا فاسدا الا وانزل فيه معوله بدون هوادة ولا رحمة .

ولكم تقصفت شهرات ادبية ، ولكم تهاوت تحت ضربات معوله الصلد .

كان ناقدا شريفا يهمه الاثر الادبى قبل كل شيء ولا يهمه اسم المؤلف مهما كان براقا .

كان الاخطل الصغير ، بشارة الخورى ، فى عنفوان مجده ، ولكن اشعاره كانت ترتجف وتتطاير كأوراق الخريف الصفراء حين كان يضعها مارون عبود على محكه الواعى . وكان العقاد فى اوج عظمته وذيوع صيته كشاعر فذ حين تناوله مارون عبود بالنقد ، فاذا بقصائده تغطى وجهها من القبح ، وتتوارى بعيدا عن عالم الشعر الصافى والادب الحق .

لم يدع كبيرا الا ودقق معه الحساب ، لا لحقد فى نفسه ، ولا لحسد فى قلبه ، ولكن لأنه كان يعتقد ان الناقد الحق يجب ان يكون جريئا على الكبار ، قبل الصغار ، لان الكبار هم القدوه ، والصغار هم الذين يحتذون .

وكم افقده ذلك النقد المرير من صاحب وصديق ولكنه لم يستطع ان يغير طبعه الذى عليه فطر .

يقول في مقدمة كتابه(على الطائر): رحم الله صديقي الكبير محمد كرد على فكلمته لاتزال ترن في اذني : الناس يبغضون الناقد . طفت اوروبا وما وقعت عيني على تمثال لناقد ، فأرح البشرية وارح نفسك .

فقلت له : انا لا اجيد الكتابة الا ناقدا ، لذلك تجدني معاركا على جميع الجبهات . فانه لايخلو شيء من النقد فقهقه صاحبي وقال : ستعيش وتموت بعد العمر الطويل ، ولانقد عندك الا في كتبك .

فيا اخواني المنقودين اذكروني بالخير ، فما قصدت الا نفعكم الادبي ، وما عملت الا بالكلمة المأثورة : صديقك من صدقك لا من صدقك .

فهل ذكره المنقودون الكبار بالخير ؟ لا اظن . فقد سلط مجهره المكبر على عيوبهم ، فاذا هي واضحة كالشمس ، عارية كالحقيقة .

اما الادباء الصغار ، فلم ينسوا فضله ؛ لقد امسك بأيديهم الطرية ودلهم على دروب الجمال ، حينا في رفق ، وحينا في خشونه ، ولكن في حنو ابوي اكيد دائما .

لقد كان الناقد الكبير لايفرح بشيء اكثر من فرحه بازاحة الغطاء عن المواهب الخبيئة ، كان يشجع الادباء الصغار اذا آنس في انتاجهم بصيصا من العبقرية ، ولم يكن يبخل عليهم بالنصح والارشاد ، والتحدث عنهم وفتح ابواب الشهرة امامهم ، مع بعض النقد الجارح احيانا حتى لايناموا على الثقة ويستسلموا الى الغرور القتال .

يقول الشاعر نزار قباني في ذلك : (ويوم يجيء الدور الينا ويسألنا سائل ، وانتم ياشعراء الفترة الممتدة من عام ١٩٤٠ صعودا الى هذا اليوم ، من هو الكبير الذي كان يقيم آثاركم ، ويزن الريش النابت في أجنحتكم ، ويدوزن الانسجة الطرية في حناجركم ؟ يوم يواجهنا سائل بمثل هذا السؤال سنقول له بدون ادنى تردد :

(كتبنا شعرا في عصر مارون عبود ، وعلى محك هذه السنديانة الماردة برينا اقلامنا .. وتركنا اسماءنا) ...

ويقول نزار فى آخر مقاله : اما نحن الذين عاصرناك واحببناك ومسحنا مناقيرنا الصغيرة ، بجذعك الرحيم العظيم ، وسرقنا الحب من جيوبك الممتلئة فما رددت منقارا ، ولا آذيت جناحا ، اما نحن فسوف نقول لمن يسأل عن خصائص عصرنا وطابعه :

(كتبنا شعرا فى عصر مارون عبود ...) نعم لقد سرق اكثر الادباء الناشئين الحب من جيوب مارون عبود الممتلئة ــ كما قال نزار ــ وترعرعوا على مائدته الدسمة ، فقد كان كرما على درب ، فى الصحف والمجلات والكتب ، يقطف منه كل اديب عابر ، اطيب الثمار واشهاها . كان موسوعة ثقافية متحركة لاينضب معينها تروى غلة كل ظامىءللادب الحق . أما اسلوبه فكان حريريا ، طبيعيا صافيا ، كأنه رونق الضحى ، يتدفق ويتدفق كالجداول بين الخمائل ويجرى ويثب كالأطفال فى ميعة الربيع . كان أسلوبا بريئا من الحشو والفضول والتقعر والغرابة ؛ الفاظه النقية تصطف الى جانب بعضها فى عفوية ونضارة كأنها اللآلىء المضيئة فى العقد الثمين فلا ينعكس عنها الا الصدق والروعة والبهاء .

كان ادب مارون عبود بعيدا عن الاملال ، مهما تشعب وطال ، لانه كان يضج بالحركة ، يقفز فيجاوز رؤوس الجبال العالية ويهوى فجأة فيزحف على قرارة الوادى السحيق . كان ادبا صاروخيا ملونا له طعم حلو وعبير زكى يأخذ بلب القارىء فلا يكاد يدعه ، كان قطعة من طبيعة بلاده الخيرة ، النضرة التى اوحت ولا تزال توحى لكل اديب وشاعر وفنان بأروع الايات والالحان .

ولا اعتقد ان اديبا استطاع فى لبنان ان يصور القرية اللبنانية ، وعاداتها ، واختلاف الوان الطبيعة الجميلة فيها مثلما صورها مارون عبود .

أما الفكاهة فكانت تترقرق فى كتابته ترقرق النسغ فى عروق الشجرة الحية ، ولكم ساعدته هذه الفكاهة على اشاعة النضارة فى تعبيره ، وكم خففت من غلواء نقده ، وحدة طبعه ، وجعلت المنقود يبتسم ويضحك ، ولو كان دمه يسيل ، ويضرج الثرى .

لم يقصر مارون عبود حياته على النقد بل كتب فى كل شىء وخلف وراءه

مايقارب الخمسين كتابا فى شئون الفكر المختلفة ، وكان فى كل كتبه مارون عبود الذى يستقى ادبه من اعماق الحياة الفوارة ، الصادقة التى لا زيف فيها ، وكان فى كل ذلك الاديب الذى شحن ظرفا ونفعا وامتاعا .

لقد كان ارزة باسقة من ارز لبنان الساحر ، بل كان دوحة شامخة من دوح العروبة الخالدة .. لقد علم بقلمه ابناء هذا الجيل اكثر من نصف قرن بكرم وسخاء وبلا من ولا استعلاء ...

ففى ذمة التاريخ هذا الكاتب البارع ، وعسى ان يعتاض عنه الأدب خيرا.

رحم الله الزيات

أحقا وقف ذلك القلب الكبير ؟
أحقا جف ذلك اليراع النضير ؟
أحقا ولى ذلك الربيع الخصيب ؟
أحقا انطفأ ذلك الذهن العجيب ؟

أحقا سكت الى الابد ، الكاتب البليغ احمد حسن الزيات ؟
كان الزيات رحمه الله نسيج وحده فى الادب والاخلاق .
كان له أسلوبه الخاص الذى به تفرد بين الادباء وتميز .
كان رب العبارة الشاعرة الساحرة ، ورب الجملة الدقيقة الانيقة ، كان (شاتوبريان) الادب العربى .

كان صاحب العاطفة المتقدة ، والاذن الموسيقية ، وكان صاحب الفكر المتزن ، والقلم العف .. عرفته أول ماعرفته على صفحات (الرسالة) وكنت فى ريعان الصبا ، وغضارة الشباب ، أعكف على تلاوة مقالاته فى لذة لاتوصف ، وغبطة لاتحد ، اقف عند كل جملة ، وأعيد كل تعبير ، لأملأ الذهن والقلب من هذا الفيض المتساوق من الانغام والاعطار والالوان ، فكأنني لم أكن معه بين حروف وورق ، بل فى حديقة ربيعية ترف بالندى وتضج بالحسن .

وان أنس لا انس رثاءه لولده (رجاء) فقد بلغ فيه الزيات قمة التعبير عن الفجيعة ، وفجر فيه الدموع من أشح العيون .

وعرفته بعد ذلك على صفحات (الرواية) ينقل روائع القصص الفرنسى يلقح بها ادبنا العربى ، ويبث فيه دما جديدا ، وحيوية جديدة ، فإذا بتلك الروائع تخرج من شق قلمه أبهى من الاصل وأجمل .

وعرفته ايضا فى (آلام فرتر) و (رفائيل) قيثارة مسحورة تسيل بأصفى الالحان ، تهدهد احلام الشباب الظامئة الى النور ، وتسكب فى افئدتهم الحب والخير والجمال ، وتبذر فى أغوار نفوسهم بذور الخلق والتفتح والابداع .

كان الزيات مدرسة لوحده ، وكانت رسالته المنهل العذب ، الذى استقى منه أدباء الجيل زاد الفكر ، وذخيره الخيال .

وكانت (رسالته) المجلة الرصينة الرزينة التى تربط الشرق بالغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر ، وعلى يديها تخرج كثير من الاقلام الموهوبة التى يعتز بها أدبنا المعاصر .

واذا كان ادب (السندوتش) قد طغى فى هذا العصر المحموم على أدب (المائدة) ، وجعل هاتين المجلتين لاتستطيعان الاستمرار فى اداء رسالتهما الرفيعة ، فما ذلك الا لان طابع العصر هو طابع السرعة والضحولة والسطحية ..

فما اعظم خسارة الادب العربى بفقد كاتب مثل الزيات نضر الله ثراه ...

أدب العبث

اعجبتنى تلك الكلمة الساخرة التى نشرها الدكتور عصام خوقير عن الادب اللامفهوم ، فى عدد سابق من عكاظ فالادب اللامعقول ، أو الادب اللامفهوم ، أو ادب العبث هو بدعة العصر المضحكة الموجعة فى آن واحد ، وهو من بعض ما صدره الغرب الينا من تفاهات وقشور .

لم يكفنا ان استوردنا منه الفوضى فى الأزياء ، واطالة الشعور ، وتركها مشعثة ، كما فعل انسان الغابات البدائى ؛ لم يكفنا كل مافى الخنفسة من سيئات وعيوب ، فقد استوردنا ايضا الفوضى فى الادب ، وهى ولاشك أسوأ اثرا ، واشد خطرا على مقوماتنا الفكرية ، ومفاهيمنا الادبية الاصيلة .

إن الأدب اللامعقول ، تعرف سيماه من معناه ، فهو نوع من العبث على الرمال ، كما يفعل الاطفال على سيف البحر . ولو كانت الفوضى هى اساس الطبيعة الانسانية ، لقلنا ان ادبهم هذا يعكس بعض ظلالها ، ولوجدنا لبدعتهم تلك بعض مايبررها ، ولكن الحياة لاتسير سيرا عشوائيا ، لاغاية له ولا هدف ، والا لما كان لجسم الانسان هذا التركيب الدقيق ، ولا لهذا الكون ذلك النظام العجيب . واذا كان بعض أدباء الغرب قد سلكوا هذه الطريقة المبهمة ، لانهم يعيشون فى دوامة من الحيرة ، وفى غمرة من التمزق والأسى ، ولانهم قد استوى لديهم الليل والنهار ، والعقل والجنون

فاننا لم نبلغ ، ولله الحمد ، هذا المبلغ من القنوط الذى يجعلنا نرى الاشياء فى تداخل واختلاط ، كالنائم فى أول صحوه ، واننا لانزال نرى فى العقل نبراسا نهتدى على ضوئه ، ومأرزا نستظل بظله .

ان العقل لم يخلق ليتخلى عنه الانسان ، كما ان الانسان لم يخلق ليمزق اقدس مافى الحياة ، وليهدم اعلى مافيها ، وانما ليزيد نموها نموا ، وليضيف الى روائها رواء ، من نسج انامله ، وليخلع على مفاتنها رداء من ابداع فكره .

واذا كان الادب اللامعقول مقبولا فى الشعر ، فانه فى النثر غير محتمل .
ان الشعراء قد يلجأون احيانا الى الادب اللا معقول كما يلجأ الرسام الماهر الى مزج الالوان ليبدع لونا جديدا يعبر عن فكرته ، وينقل صدى ارتعاشات روحه ، أو كما يلجأ البستانى الصناع الى تطعيم بعض اشجار حديقته لتكون اوفر ثمرا ، وأطيب نكهة .
وما ذلك الا لان الالفاظ جامدة ، عاجزة عن استيعاب جريان الفكر ، وارتعاشات الشعور واشواق الروح ، والشاعر يحاول بكل الوسائل اقتناص تلك الهنيهات الشاردة ، والتى هى كالظل كلما حاول القبض عليها ، افلتت من يده ، وتركت عليها بعض آثارها كما تترك الفراشات الملونة على انامل الاطفال ، شيئا من غبار اجنحتها وهى تطير ، ان ذلك الادب غير المعقول الذى نلمحه احيانا فى ثنايا الشعر ليس الا انعكاسا لامتزاج الاحاسيس ، وماله من هدف غير بسط سيطرة الخيال على رقعة جديدة من صعيد الحياة الذى لانهاية لامتداده ، حينئذ يكون للشذى لون المروج ، كما عند بودلير ، وللغمام لون هديل الحمام ، كما عند سعيد عقل ، وللمطر هطول فى القلب كما عند فرلين ، وهو رغم انه ادب غير معقول ، الا انه مفهوم ، وهو فى الشعر بمقادير قليلة ، وبدون مغالاة ، يزيد من ثروة الصور الشعرية ، ويخلع عليها جدة لانعهدها من قبل . فحين يقول بودلير فى احدى قصائده :

من العطور ماهو اخضر كالمروج ......

فانه من غير المعقول ان نرى لون العطر ، وانما من المعقول ان نشم شذاه .
وحين يقول الشاعر اللبنانى سعيد عقل .

الى البلد الحلو حيث الغمام بلون هديل الحمام ....

فانه لايعقل ان يكون للغمام الهف الابيض ، الرقيق ، لون كلون هديل الحمام ، ولكن يمكن ان يكون له صفاء ونقاء ذلك الهديل فى النفس .
وحين يقول فرلين:

المطر يهطل فى قلبى ، كما يهطل على المدينة ...

فانه لايعقل ايضا ، ولكن لايمارى احد فى انها استعارة بارعة ، ولطيفة ، ومعبرة .

فاللون ، والرائحة ، والطعم ، والصوت ، قد تحدث فى الدماغ اهتزازات متقاربة جدا فى التأثير النهائى ، حتى ليكاد يشبه بعضها بعضا ، ومن هنا كانت هذه الاستعارات اللطاف التى تجعل خيالنا يمتد الى ماوراء الافق المحدود المعهود .

وانا لا ادعو الى المغالاة فى هذا الادب اللامعقول الذى هو سمة من سمات الشعر الرمزى ولكنى اجده ، واكرر فى الشعر وليس فى النثر ، مقبولا ، بل واجده احيانا رائعا ، مالم يجاوز حده ، فهو لاشك يبرز امام الذهن شيئا جديدا ، ويزيد الشعر تفننا فى التلوين ، وفتنة فى التظليل ، وقدرة على التعبير .

وانا اكره ان اقف فى وجه اى تيار ادبى يزيدنا ثروة وامتاعا ، ولو خالف كل الاتجاهات المتبعة المعروفة ، الا اننى لم استطع ان اهضم ، فى حال من الاحوال ، هذا الادب اللامعقول فى النثر .

واذا رضى احد ان يتخلى عن عقله للحظة من اللحظات ، فلا يرضى احد ان يتخلى عنه ، طوعا ، لفترة طويلة من الزمن .

اضف الى ذلك ان الادب اللا معقول هو فى اغلب الاحيان ادب غير مفهوم .

ولا ادرى ماهى الفائدة من ادب لايفهمه احد ، حتى ولا الكاتب نفسه .

ولنضرب مثلا على ذلك مانشرته عكاظ لاحد كتاب اللامفهوم :

(فلاشىء يحدنى غير الجراح ، وامواج السماء . فمن ذا الذى يعربد على خط الاستواء ، ولايعرق من ذا الذى ينسج ايامه من اهداب العيون ولايختل او يعود طفلا له شنبات عنتر ...)

ان الاسلوب واضح مبين ، وهو اسلوب كاتب متمكن من زمام لغته ، يستطيع ان يعبر عن افكاره فى سهولة ويسر ولكن حب الغرابة والولع بتقليد الأدب المستورد هو الذى جعله يقفز من صورة الى صورة ، دون ترابط ودون اى هدف سوى اظهار قدرته على القفز ، وبراعته فى التمويه . ان الكاتب يكتب ليفهم ، لا ليبهم .

وان الادب اللامعقول ، أو الادب اللامفهوم ، أو ادب العبث ، سمه ماشئت ، سيظل كتلك السطور التى يخطها الاطفال على وجوه الرمال ، أو كتلك الاثلام البيضاء التى تخلفها السفن وراءها على صفحة الماء ، وهى تشق البحار البعيدة ، وما اسرع ماتختفى ...

كلمة صريحة

حتى متى نظل كالنعامة ، نخفي رؤوسنا فى الرمال وندعى ان لدينا ادبا رفيعا ؟ حتى متى نظل ننق كالضفادع فى الليالى المقمرة ، ونظل نطبل ونزمر لمن لايستحق التطبيل والتزمير ؟

حتى متى نحجم عن قول الحقيقة ولو كانت مرة لايسهل ابتلاعها ؟

ان الاعتراف بالنقص هو اول خطوة نحو الكمال ، ومادمنا لانعترف بنقصنا فسيظل الكمال امامنا ذروة يستحيل الوصول اليها .

لكى نتقدم ينبغى ان نعرف اخطاءنا اولا . ان ادباءنا الكبار ناموا على الثقة واخلدوا الى امجاد شهرتهم الماضية ، ولم يعودوا قادرين على تقديم اى جديد ، لقد اصبحوا ادباء محترفين يكتبون ليعيشوا ، ولايعيشون ليكتبوا .

انهم ينكثون ماغزلوا ، ويغزلون مانكثوا . فكتابتهم اليوم تكرار واجترار . ان الزمن قد تغير وتطور ، فلم يعد يكفى الاديب معرفة باللغة ، ولاحفظ لبحور الشعر ، ولا اطلاع على الاغانى ، والكامل ، وصبح الاعشى والبيان والتبيين ، وغير ذلك من امهات الكتب الادبية القديمة ، ... فلابد للاديب بالاضافة الى كل ذلك من اطلاع على كتب العلم ، والدين والفلسفة ، والادب الحديث ، ولابد من الموهبة التى هى جوهر الادب ، وشعاعه المضىء والتى بدونها لايكون الاديب أديبا ولو حاز اعلى الشهادات الادبية ، واطلع على جميع المعارف الانسانية .

ان الدراسة لاتصنع الاديب ولكنها ولاشك تصقل موهبته وتشحذها ، وتنميها وتعمقها وتزيد اشعاعها . ان الادب يتفاعل مع الحياة ، والحياة متحركة ليست راكدة ولذلك لابد من الاندماج فى هذه الحركة ولابد من السباحة فى ذلك التيار ، والا ظل الاديب ملقى على شاطىء الحياة يستحم فى دفء شمسها ولايخوض غمارها ، ويصارع امواجها العاتية العارمة.. لقد نسج هؤلاء الادباء الكبار حول ادبهم هالة من القدسية فلا أحد يستطيع الدنو منه ، ومن

تسول له نفسه نقده أو مناقشته على الاقل رموه بحجارة من الجحيم ، كأنه شيطان رجيم .

وادباء الشباب متمزقون ، حائرون لايعرفون أى سبيل يسلكون ، فليس امامهم قدوة حية يحتذونها باعجاب ، ولا أدب رفيع ينسجون على منواله وكل مايجدونه على مد بصرهم ، أدب جاف محنط كالمومياء ، هشيم تذروه الرياح لايروى ظمأهم ، ولايشبع جوع طموحهم ، وهم مايزالون ضعاف الاجنحة ، لايستندون الى صعيد صلب من الثقافة والادب .

لقد هجموا على الادب من اقصر الطرق ، وولجوا ميدانه من اسهل الابواب ، ولا عدة لهم غير حسن نواياهم ، ولازاد لهم الا تطلعهم الى الارفع والاجمل والامثل .

انهم لم يقطفوا الثمار الناضجة من غصون الاشجار العالية ، وانما اكتفوا بما تساقط تحتها من ثمار قبل الاوان .

انهم لم يشربوا الماء من المنبع الصافى وانما اكتفوا بما عبىء منه فى قوارير ، انهم لم يعانوا الادب معاناة حية ، وانما شرعوا يلمون بقاياه من هنا وهناك ، لذلك جاء ادبهم مزيجا غريبا لاتعرف هويته ، ولايدل على صاحبه .

وكل من يدعى بعد ذلك ان لدينا ادبا رفيعا متهم بالمكابرة والجهل ، والتعصب وكل من يدعى ذلك الادعاء متهم بأنه ضئيل الاطلاع على الادب الرفيع الذى يغذى الذهن والقلب فى آن واحد . ان كل ماينشر فى الصحف ليس هو الادب الذى ننشده ونصبو اليه ، انها محاولات ادبية لا اكثر لم تتبلور بعد على شكل عمل فنى كامل ، انه كلام يقال لقتل الوقت ، وطرد السأم ، وملء الفراغ والا فأين المقال الذى نحتفظ به فى حرص ، لنرجع اليه ؟

واين القصيدة التى تنتقل من شفة الى شفة ؟

وأين القصة أو الرواية أو المسرحية التى نفاخر بها ؟

إن الاعتراف بالنقص هو أول خطوة نحو الكمال ، ومادمنا لانعترف بالنقص فمن الصعب بلوغ ذروة الكمال التى نحلم بها ..

أهـذا نقد، أهذا رد؟

من الناس حساسون مفرطون فى الحساسية رقاق مفرطون فى الرقة ، خطرات النسيم تجرح خدودهم ، وهمس الحرير يدمى بنانهم ، فهم يخشون النقد ، ولا يطيقونه ، لانهم يخافون ان تمتد اصابعه اليهم فتنزع عنهم تلك الاوراق التى بها يتسترون وتتركهم تحت الاضواء ، على حقيقتهم بلا زينة او طلاء ..

انهم يخشون النقد وان كانوا فى قرارة انفسهم يعترفون بجدواه . الا فليطمئن هؤلاء .

ان الاديب لا يستطيع ان يهدمه احد ، وانما هو فقط يهدم نفسه بنفسه . والاديب ادرى من غيره بمقاتله ، وما لم ينتحر هو من ذاته . فلن يستطيع احد ان يحكم عليه بالاعدام .

وكلمة الحق يجب ان تقال ولو كانت مرة ، مادام فيها نفع للادب ، حتى وان كان قول الحق لايدع لقائله صديقا .

ان انتقادنا للادباء الكبار لم يكن لغاية فى نفسنا كما توهم الاخ (باجبير) وانما لاننا نحرص على ان يواكب التقدم الأدبى فى هذا البلد العربى الاصيل ، تقدمه العام الرائع الذى اثار اعجاب العالم رغم الفترة الوجيزة التى مرت على نهضته .

اننى حين كتبت مقالى (أدب العبث وكلمة صريحة لم أخطط لذلك تخطيطا ، كما خيل للاخ باجبير ، ولم أفكر فى مؤتمر الادب السعودى ، ولم أقصد مهاجمته قبل ان اطلع على ما جاء فيه ، ولم يكن هجومى على الادباء لان اسمى لم يدرج فى قائمة الادباء ، كل ذلك لم يخطر لى على بال فى حال من الاحوال ، كما توهم الاخ باجبير .

ان نشر ذلك المقال قبل يوم واحد من افتتاح مؤتمر الادباء لم يكن الا من قبيل الصدفة ولم يكن الا امتدادا طبيعيا لمقالاتى السابقة .

كل ما فى الامر انى منذ مدة طويلة ابحث فى صحفنا عن ادب رفيع يشبع الذهن والقلب فلا اعثر عليه . ومن يدرى فقد يكون لى فهم خاص للادب لا يقرنى عليه الاخرون ، ولكن ذلك لا يدعو الى الغضب ، والتجريح الشخصى ، والاتهامات الباطلة التى تكال جزافا ولا تستند على ظل من الحقيقة ، وانما الاحرى ان يدعو ذلك الى فتح باب المناقشة ، وادارة الحوار حتى يصح الصحيح ، ويندحر الزيف ، وتعرف الرغوة من الصريح .

ولاشك ان القارىء سيكسب من هذا الحوار الهادف ، وان الادب سيربح مفاهيم جديدة تعمق مجراه ، وتزيد فى سعته ..

وما اسعدنى حين يدلنى الاخ باجبير او غيره على ادب لدينا يتجلى فيه الابداع ، بما فى هذه الكلمة من معنى ، لأتراجع عن رأيى السابق ، وانضم الى القافلة لاطبل مع المطبلين ، وازمر مع المزمرين ، عن عقيدة واقتناع ، لا عن مسايرة واتباع ,

ان الادب الرفيع فى رأيى هو الادب الذى يستند على الابداع ، كالشعر والقصة ، والرواية ، والمسرحية ، اما ادب البحث والصبر والجلد ، فهو يعتمد على المطالعه والجمع والترتيب والتبويب اكثر مما يعتمد على الابداع ، وهو وان كان عملا ادبيا جليلا له قيمته ، الا انه يظل سلما للعمل الادبى المبدع ...

ولعل الاخ باجبير شق عليه ان اقول ان النقد عندنا مفقود او شبه مفقود ، حتى أصبح يصول ويجول فى ميدان الادب كل من امتشق القلم ووجد الحبر ، ولكن اليست هى الحقيقة الواقعة فما يطفو على وجه الصحف الان هل هو الأدب المنشود ؟

قد يكون لدينا مع ذلك عبقريات فذة مختبئة ، ولكن مع الاسف لا نرى لهذه العبقريات ظلا واضحا ، فى عالم الادب .

وهل يمكننا ان نحكم للاديب او عليه الا من خلال انتاجه ؟

قد يكون لدينا نقاد كبار ، ولكن مع الاسف ايضا ، لا نسمع اصواتهم

جهرة ، فما ذنبنا ان حكمنا على ما يصل الى ايدينا ، ويقع تحت ابصارنا .

وفى اعتقادى ان المجاملة ، وحب السلامة ، وايثار العافية كل ذلك يلعب دورا كبيرا فى حياتنا الادبية .

والا كيف يصر اديب كبير ومعروف فى جريدة واسعة الانتشار مثل عكاظ ، على نصب (ترجلا) فى بيته الآتى :

يوم صاحت تسعى ألم يان للفارس هذا ترجلا فى نداها .. لانها تمييز ، مع انها فاعل مكانه الرفع — وذلك ما يعرفه اى طالب فى مدرسة متوسطة — ثم لا ينبرى احد من الادباء الكبار او من المختصين بتدريس اللغة العربية على الاقل ، لتصحيح ذلك الخطأ الفادح .

أرأيت يا اخ باجبير كيف يؤثر ادباؤنا السلامة والعافية ، ولا يلتفتون الى ما ينشر فى الصحف ، ولا يغارون على لغتهم ولو تعرضت قواعدها للتحطيم وعلى ذلك فقس .

ولعل الاخ باجبير آلمه ايضا ان اقول ان ادباء الشباب لا يستندون على صعيد صلب فى الثقافة والادب .

وفى مقاله المنشور ما يؤيد ما ذهبت اليه .

فلو حذفنا منه كل هذه الحماسة المصطنعة ، وكل تلك الاتهامات الشخصية التى لا تمت الى الادب بصلة ، وكل تلك الافتراءات الوهمية التى بنى عليها رده ، مالذى يبقى منه ؟

هل استطعنا ان نفهم من مقاله ما هو مفهومه الادبى الذى جعل قلمه يجيش ويسيل ، وترمى اواذيه العبرين بالزبد .

هل استطعنا ان نلمح فى ثنايا مقاله رأيا جديدا ينم عن ثقافة او اطلاع او ابداع . لو حذفنا منه التهجمات العصبية ، والاتهامات الوهمية لما بقى منه فى ذهننا الا بعض الاخطاء النحوية واللغوية مثل قوله (القارىء الذى نكتب باسمه المقالات) بدل (تكتب له) وقوله : (التى اصيب بها الصديق خفيف الظل والروح معا ...) بدل (الصديق الخفيف الظل ..) وقوله : (ان هناك صدى ايجابى ...) الى غير ذلك من الاغلاط النحوية ، والتعبيرية التى ليس من

هدفنا الان تقصيها وحصرها ، والتى لا ترى الا عند المبتدئين الذين لا يتجرأون على النشر . افلا يحق لى بعد هذا ان اقول (ان ادب الشباب ، كما يصل الينا ونقرأه فى الصحف ، لا يستند على صعيد صلب .

ومن يدرى ، فقد يكون لدينا ادباء شبان متمكنون حقا من ناصية الادب ، ولكن كيف نعرفهم ماداموا مختبئين لا يبدون وجوههم ، ولا يرفعون اصواتهم ، تاركين الساحة لغيرهم يصولون فيها ويجولون ، ويهللون حين يرون اسماءهم وصورهم تتصدر الصحف ، ويظنون فى غمرة الغرور انهم اصبحوا من الادباء الذين يشار اليهم بالبنان .

هناك قاعدة اقتصادية معروفة ، وهى ان العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من الاسواق .. ويبدو ان ذلك صحيح بالنسبة الى الادب ايضا .

وما علينا لكى يؤتى ادبنا ثمارة الطيبة ، الا ان نزيح العوائق ، ونزيل الاشواك من طريق المواهب الصحيحة ، لتأخذ دورها الطبيعى فى التفتح ، والابداع ..

نشــوة التــأمـل

يقول الشاعر الفارسى الاشهر سعدى الشيرازى :

(لطنين ذبابة ، يضع الصوفى رأسه بين يديه ، ويروح يحلم فى غمرة النشوة)

ولاشك ان هذا الكون الكبير مترع بالاعاجيب ، فهو بما فيه من احياء مختلفة ، ومناظر متعددة ، واصداء متباينة ، وفصول متجددة ، يقدم مجالا واسعا للفكر المتدبر المتأمل .

ولكن هذا العصر النزق العجول أفقد ابناءه الكثير من نشوة التأمل . فأكثر الاعمال تتم اليوم بصورة آلية ، دون ان تزيد زيادة كبيرة من مكاسب الانسان النفسية .

ولا يستطيع احد ان يرتاب فى ان الآلة قد حققت للمجتمع تقدما رائعا ، وخففت عن الانسان كثيرا من الاعباء ، وامدته بذخيرة كبيرة من الراحة ، وساعدت على تحسين صحة الفرد ، ولكن هل استطاعت حقا ان تزيد من ثروته النفسية .

لقد اعطته باليد اليمنى ولكنها مدت له يدها اليسرى لتأخذ منه بدل ما اعطته ، لئن اعطته الراحة الجسدية ، فقد سلبته الراحة النفسية حتى غدا الانسان الحديث عرضة لامراض عصبية معقدة لم يكن يشعر بها الانسان القديم .

ولئن منحته النظرة الشاملة فقد سلبته النظرة العميقة ، فالانسان الحديث واسع الاطلاع بسبب ما قدمته له الآلة من سهولة ومن سرعة فما عليه الا ان يدير مفتاح المذياع ، او يتكىء على سريره وبين يديه صحيفة او مجلة حتى يتنقل بين اطراف المعمورة فى لمحة خاطفة ، وحتى يطلع على اهم ما يجرى فى العالم من احداث ، وهو بين التثاؤب والنعاس ، وهو اليوم يجوز الفيافى والقفار

والبحار على متن طائرة دون ان يحس بلذع الظمأ او لغوب السفر .

ولكن هل يتمتع حقا بما كان يتمتع به الانسان قبل اختراع الالة . انه يرى الدنيا خطفا ، ويجتازها وثبا وطيرانا ، بينما كان ذلك الانسان يعايش الطبيعة معايشة صميمة ، فهو فى سفره مثلا كان يحترق بلهيب الظمأ ، وكان يشعر بلذة الشبع بعد الجوع ، وكان يعرف الجبال والوهاد ، والصخور والنباتات والاشجار التى كان يمر بها فى طريقة معرفة وثيقة ، ويراقب عن كثب حركات الاحياء فى الطبيعة ، وقد يشعر بالخوف فترتجل نفسه خصائصها فى المواقف الحرجة ، فتراه يبدو شجاعا او جبانا ، كريما او بخيلا ، ويتصرف تصرف الانسان النبيل او تصرف الحيوان الذى لا يعرف الشيم الشهمة ، لقد كانت حياته زاخرة بالمشاعر العميقة ، حافلة بالاحاسيس الحادة ، لانه كان دائما يعيش متوجسا من خطر ، وكان عليه دائما ان يستجمع قواه الداخلية لمجابهة ذلك الخطر الذى قد يفاجئه فى كل زمان ومكان ...

اما الانسان الحديث ، حبيس الحجرات ، فهو لا يعرف الطبيعة الا نادرا ، واذا عرفها ففى حدود ضيقة فهو قد يشاهدها ولكنه لا يعاشرها ولا يندمج فيها وهو لكثرة معرفته السطحية اصبح كريشة فى مهب الريح لا يستقر على حال من القلق .

ولا ريب ان الحياة الحديثة قد طبعته بطابعها العجول النزق ، واثرت تأثيرا كبيرا فى تحركاته وتصرفاته ، فهو لم يعد يطيق الاناة او يحتمل الصبر ، او يطمح للصعب ، بل راح يفتش عن السهل الذى لا يكلفه مؤونة البحث او الجهد .

وقد انعكس ذلك على انتاجه الفكرى فنادرا ما نقرأ الاثر الفنى الرائع فى عصرنا الحاضر ، على كثرة ما تلفظة المطابع من مؤلفات لا تكاد تولد حتى تموت ، وقد انعكس ذلك ايضا على مطالعاته ، فاصبح القارىء الحديث شديد البرم بالفكر المركز الدسم ، كثير التهالك على السطحى التافه ، واصبح يقرأ للتسلية ، وتزجية الفراغ ، وجلب النعاس بدل ان يقرأ لتغذية الذهن ، وتنمية العقل ، ومشاركة الكاتب فى

الكشف عن اسرار الكون ، والاطلاع على مشاكل الحياة ، ومحاولة ايجاد حلول ناجعة لها .

ويقول فى ذلك الكاتب الفرنسى جورج ديهامل :

(كثيرون هؤلاء الناس الذين يأبون الجهد قائلين ما الفائدة من اجهاد انفسنا لاكتساب مدركات لها مساس بالفنون مثلا ، ان هذه المدركات مبثوثة فى اجواء العصر ، وحسب الانسان ان يعيش وسط آلاته وليس هناك من حاجة الى الاصغاء بل يكفيه ان يسمع ، فان جميع الموسيقات تنفذ فيه ، كما تنفذ رطوبة قماش مبلل مريح الى الجسم ، وكذلك تنساب اليه جميع الافكار ، حتى اذا ترك نفسه على سجيتها تمتع بمعرفة ، ان لم تكن منهجية ، فهى على الاقل كافية ، وذلك دون ان يبذل جهودا مضنية لاكتسابها عن طريق الانتزاع العنيف .)

ولاشك ان مستقبل الثقافة مهدد فى الصميم ، وان الابداع سيصاب بالعقم ان لم يعد الانسان الحديث الى التأمل ، واكتساب المعرفة بالجهد والارادة ، ومحاولة السمو على الذات بمجابهة العقاب والصعاب .

رد على نقد

اشكر الاخ الاديب النقيدان على اهتمامه بديوانى (عبير القلب) كما اشكره على صراحته فى النقد ، فنحن فى أمس الحاجة اليها .

وقد كنت اوثر ان لا ارد على نقده ، لا لشيء ، الا لاننى اومن بحرية التفكير والتعبير ، وادرك اختلاف الذوق الشعرى ، وتباين تجارب الناس ، ولاننى أيضا ـ وقبل كل شيء ـ صاحب الاثر المنقود ، فقد اتهم بالغرور ، والمحاباة ، والتعصب لاثرى الفنى ، لكن الديوان خرج من بين يدى الان ، ونزل الى بحر الحياة الزاخر ، واصبح بين ايدى الناس ، وحق لكل قارىء ان يبدى رأيه فيه ، فلماذا لا اكون انا ايضا احد هؤلاء ..

وأحب أن أعترف فى بدء ردى، انه لم يخالجنى ادنى شك فى الأخ النقيدان كان بريئا من الغرض فى نقده ، وان الحقيقة وحدها هى التى كانت غايته ، بلغها ام قصر عن بلوغها ..

ولقد رأيت الاخ النقيدان يتربع على كرسى النقد ، ويصول فى احكامه ويجول ، ويحلل ويحرم ، فعل الواثق من معرفته واطلاعه ، فخشيت ان تلعب نشوة الظفر برأسه فيعتقد ان ما قاله هو الصحيح ، او يظن بعض القراء ممن لا دراية لهم واسعة فى شئون الادب ، ان ما جاء به هو الحقيقة ، فنجنى بذلك على الادب والحقيقة ، وهذا ما حفزنى الى الرد عليه .

يتساءل النقيدان وهو يتحدث عن قصيدتى « صلاة » فيقول : « ولكن ما رأى الشاعر حين يزجى هذه القيثارة داعيا مبتهلا فى نفس قوية بالايمان والامل ، دون عبارات تأوهية جارفة ... »

اما رأيى فهو ان الشعر تعبير جميل عما يجيش فى النفس من خوالج وعواطف ، والنفس غنية بالانفعالات المختلفة ، فهى دائمة التذبذب بين الرجاء والقنوط ، بين الحزن والفرح ، بين القوة والضعف ، فلماذا لا يعبر الشعر عن

هذه العواطف والنزعات جميعها ؟ لنقرأ مطلع هذه القصيدة :

يا ألهي فى القفر تاه دليلى   والتوى الدرب فى الرمال عليا
أطفئت كل نجمة فى طريقى   وتهاوى الظلام فى ناظريا
انا لولاك حائر فى خضم   لا أعى من معالم الكون شيئا
انا لولاك ريشة فى مهب الر   يح اطفو فوق الحياة شقيا ..

افترى هذه الأبيات تمثل غير الحيرة التى قد يمر بها كل انسان فى بعض لحظات حياته ، وهل تجد فيها ابتهالات نفس ضعيفة الايمان ، ام انها صلوات نفس مترعة بالايمان ، لاجئة الى خالقها فى ساعات ضيقها ، والى من تلجأ النفس الحيرى ان لم تلجأ الى خالقها ؟

وينتقد الاخ النقيدان هذا البيت :

واجعل الخير من يراعى يجرى   سلسلا صافيا وحلما شهيا

فيقول : « ولنقف عند كلمة يراعى وقفة نحوية ، فياء المتكلم دائما ساكنة » ، وقد رد عليه الاستاذ ابو تراب الظاهرى وصحح له هذا الخطأ بما فيه الكفاية .

أما « الدوالى » التى قال عنها الاخ النقيدان انها غير عربية ولم يعرف معناها بوضوح فهى اشجار العنب وقد ذكرت كثيرا فى الشعر .

يقول الشاعر اللبنانى امين نخله :

أبوح اذن فهل تدرى الدوالى   بانك انت اقداحى ودنى

وقالت ام المنذر العدوية رضى الله عنها : « دخل على رسول الله صلى الله وعليه وسلم ومعه على بن ابى طالب ناقه ، ولنا دوال معلقة ، فقام ، وأكل ، وقام على يأكل ... »

ومن هنا ترى ان الدوالى عربية فصيحة معروفة قديما وحديثا . ويقول الاخ

النقيدان فى صدر كلامه عن قصيدة« تحية الذكرى » التى مطلعها :

يارمـال البيـد تيهـى وارتمى   فى دروب المجـد بـين الامم

(اذكر ان مجلة الرائد فى عدد ماضى استفهمت عن هذا التعبير ، وكيف يمكن لرمال البيد ان تتيه وترتع ولم ار للدكتور اجابة على ذلك)

والحقيقة ان مجلة الرائد انتقدت فقط معنى القصيدة فى الاذاعة الذى جعل من (يرتمى) (يرتعى) فشوه معنى البيت .

ولذلك لم تر لى اجابة على ذلك . ويعلق الاخ النقيدان على هذا البيت من قصيدة « ولدى » :

أخشى عليك حفيف اجنحة الصبا   وشـذى خدود الزنبـق المتبتل

فيقول : (بالرغم مما فى البيت الاخير من لين وعبارات راقصة تمثل النفس الحانية ، والضمير الحادب الذى امتلأ قلبه عاطفة واشفاقا فهو تكرار لمعنى شاعر اخر حين يقول :

حفيـف الريـاح يدمـى شفتيه   ومـر النسيـم يجـرح خديه

ولا ادرى كيف جمع الاخ النقيدان خيوط هذا البيت المحطم واعتبره شعرا سليما وهو ينقد الشعر ويميز غثه من سمينه !

والبيت الذى يشير اليه هو :

خطرات النسيم تجـرح خديه   ولمس الحريـر يدمـى بنانه

ولا ادرى كيف يكون :

اخشى عليك حفيف اجنحة الصبا   وشـذى خدود الزنبـق المتبتل

تكرارا للبيت السابق .

ويقول الاخ النقيد ان عندما يصل الى هذين البيتين من قصيدة « صباح » :

ياناعس الاجفان هل لفته تصب فى كاسى رحيقا وراح
فتنهل الامال من مائج كالسلسل العذب وتزهو انشراح

« ونرى فى هذين البيتين ، بل على الاصح فى قافيتهما غلطا فاحشا لا يمكن السكوت عليه لا من جمال السبك ولكن الناحية اللغوية . ففى البيت الاول عطف الراح على الرحيق ، والرحيق منصوب والمعطوف على المنصوب منصوب ، فوجب اثر ذلك ان يقول رحيقا وراحا ولا يغتفر له هذا الخطأ . واذا كنا او النحويون على الاصح تسامحوا على السكوت فى المعطوف على المرفوع او المجرور ... ولكنهم لم يسكتوا على المنصوب ، بل يجب نصبه . »

من الذى قال هذا يا أستاذ ؟ يقول الشاعر عمر ابو ريشة (من قصيدة كاجوراو) :

شقيت على اعتابك الغارات وانتحرت هوان (بتسكين النون)
وفتى يهم بقبلة ويكاد يقطفها حنان

وقد لا تقنع بشاعر محدث مثل ابى ريشة ، فلنفتح ديوان المتنبى ولنختر له هذه الابيات :

الا اذن فما اذكرت ناسى ولا لينت قلبا كان قاسى

ولنقرأ قصيدته « لا يحمد السيف كل من حمله » وهى ساكنة :

احبه والهوى وادؤره وكل حب صبابة ووله
لو خلط المسك والعبير بها ولست فيها لخلتها تفله

فكيف اباح ابو ريشة لنفسه ان يسكن هوان وحنان وهما حال ينبغى نصبهما ؟

وكيف اباح المتنبى لنفسه ان يسكن (ناس وقاسى) وهما مفعول به منصوب دائما ، بل كيف اباح تسكين (تفله) مع انه ينبغى نصبها لانه ، مفعول به ثان لخلتها ؟

لم يجرأ الشاعران على ذلك لو لم يكن ذلك مباحا فى قوافى الشعر الساكن .

ويعلق الاخ النقيدان على هذا البيت :

أيهــا البحــر يانجــى العصور   هدىء الموج واستمع لشعورى

فيقول : (ونلمح هنا جمع شعر على شعور وهذا يتنافى مع الوزن الصرفى لصيغة فعل بكسر الفاء وتسكين العين فهى لا تجمع الا على افعال فنقول عبء أعباء . حمل احمال . وكذلك شعر اشعار ولا يقال شعور)

ومن الذى قال لك يا استاذ انه « شعورى » هنا هى جمع لشعر ، فالشعور هو الاحساس النفسى واحمد الله انك لم تذهب فتظن اننى اقصد بالشعور الاشعار التى تغطى فروة الرأس .

قليلا من الانتباه والروية يا استاذ نقيدان فالناقد قبل ان يلفظ احكامه ينبغى ان يكون له عنق كعنق البعير الذى طالما تمناه الامام على رضى الله عنه .

ويقف الاخ النقيدان عند هذا البيت من قصيدة « قالوا ابتسم » .

والجدول الهيمــان عكر صفوه   نق الضفادع ، والصدى المتردد

فيقول : « فرأى الشاعر ان كلمة المتردد مرفوعة وفقا لالتزام الروى فى القصيدة ، وظهور حركة الضمة عليها ، غير ان (المتردد) نعت المجرور ونعت المجرور مجرور مثله ؟ تكون المتردد مجرورة لا مرفوعة والحالة هذه »

ومرة اخرى ارجو من الاخ النقيدان الانتباه والروية ، فالصدى هنا معطوفة على « نق » وليس على « الضفادع » ونعت المرفوع مرفوع . وكيف يستقيم الكلام اذا عطفنا الصدى على الضفادع ؟ الا يصبح المعنى هكذا :

عكر صفو الجدول نق الضفادع ، ونق الصدى المتردد ؟

أفنجد هذا الكلام مستساغا فى الذوق ؟

ويصل الاخ النقيدان الى قصيدة « انطلاق » فيقول : « ومن ثم نلتقى مع الشاعر فى زاوية البرم والضيق والاصطدام بصخرة التشاؤم . ولعل هذه اول قصيدة يظهر فيها الشاعر تذمره فى هذا الديوان . »

والقصيدة كما يبدو من عنوانها دعوة الى الانطلاق الشامل ، والى التمتع بالحرية الكاملة ، وليس فيها ذرة من التشاؤم بل هى دعوة صادقة الى الاقبال على الحياة بكل ما فيها من متناقضات ، من سعادة وشقاء ، من الم وامل ، والبحث عن كل ما فيها من مظاهر واسرار ، فالحياة الراكدة تميت النفس وليس سوى التجدد يستطيع ان يعيد اليها حيويتها ونشاطها :

دعينى سئمت الحياة الرتيبة
وكاد فؤادى يضيع لهيبه
دعينى اعيش حياة غريبة
دعينى ، دعينى اخوض البحار
واملا صدرى بوهج النهار
ففى غضبة الموجة الراجعة
غذاء لاحلامى الجائعة

ومن هنا لم يفهم الاخ النقيدان كيف ان « الموجة فى قصفها وعصفها هى غذاء للاحلام « فيقول » المتعة والغذاء حين هبات النسائم وتخييم الهدوء »

ويرى اننى فى هذه القصيدة احب السلبية بعكس ما كنت عليه فى قصيدتى « درب القمم »

وكأنه لم يقرأ فيها هذه الأبيات :

. دعينى اصعد صخر القمم
واصهر قلبى بنار الالم
دعى الشوك يصبغ كفى بدم
دعينى يمزق روحى الندم

فالقصيدة كما ترى ليس فيها اى رائحة للسلبية ، ولا هى دعوة الى الراحة ،

وإيثار الدعة ، وانما هى تمرد على الرتابة ، وتوق الى كل جديد فى احضان الطبيعة والحياة ، وهى صدى لنفس سأمت من الهدوء والاستقرار ، فأرادت ان تذكى لهيبها بتنويع تجربتها ، ولا يهمها بعد ذلك سعدت ام شقيت ، ما دامت تغنى بتجاربها المتنوعة ، وتزداد تغلغلا الى اعماق الكون .

وتحياتى الى الاخ النقيدان ...

القنديل والهجرة

حينما قلت فى عدد سابق من عكاظ ان اغلب الرعيل الاول غدا ينظم الشعر نظما ، همه كل همه الفراغ من قصيدة ذات وزن وقافية ، وان الجيل الصاعد لم يعد يجد فى هذا الشعر ضالته ، حينما قلت ذلك لم اكن متجنيا على الشعراء الرواد ، وانما كنت اقرر الحقيقة بكل بساطة وتجرد ، وبرهانى على ذلك هذه القصيدة المنشورة فى عكاظ (الهجرة النبوية) للاستاذ احمد قنديل .

والاستاذ قنديل غنى عن التعريف فهو من الشعراء الاوائل ، وهو شعلة من النشاط الادبى لاتكاد تخلو صحيفة من صحفنا من مقال له ، او قصيدة ، او نقد اجتماعى ، بأسلوبه الفكه الساخر الظريف الذى جعله اثيرا لدى القراء ، محببا الى قلوبهم .

الا انه فى هذه القصيدة تعثر منذ اول بيت فيها :

ايها الرائد الدروب توالت عاطرات الذكرى .. بها ذكراها

فهل (بها ذكراها) تناسب حقا هذا البيت ؟

لقد بدأ البيت يسير الهوينى واذا به يميد ويضطرب ، وكأنه كان يسير على طريق ممهدة ، ثم فجأة برزت له حجر عثرة فهزته هزا عنيفا .

ولنفترض ان هذا البيت هو نثر محض ، فهل تصلح (بها ذكراها) كامتداد طبيعى لذلك السطر من النثر ؟

ان الشاعر لا يزال فى اول الطريق ولم يتعب بعد ، ولم يلهث فنلتمس له العذر ، الم يكن احرى به ان يقوى نقطة انطلاقه ، ويثبت قدميه على صعيد صلب قبل ان يندفع فى تيار قصيدته ؟

لقد تحدث النقاد القدامى كثيرا عن براعة الاستهلال فى القصائد الشعرية ، وعدوها خاصة مميزة من خصائص الشعراء الفحول ، لانها هى التى تشد القارىء وتجذبه للاندماج فى جو القصيدة الشعرى ،

افيكون هؤلاء القدامى اكثر منا معرفة بمواطن الحسن ؟
ويقول فى بيت لاحق :

ولقد ان ان يرى الحزم صونا للكرامـــات قادر اغلاها .

و (قادر اغلاها) لا تقل تعثرا عن (بها ذكراها) ولا سيما وان البيت جميعه معقد ، نتج تعقيده عن التقديم والتأخير ، وتركيبه غير مستساغ نثرا فكيف حين يكون شعرا ، كما ان معناه لا يشفع له بهذا التعقيد والالتواء ، لانه عادى مفرط فى عاديته .
ويقول بعد ذلك :

وتوالوا نحو المدينة ارتال وفود .. أزهـــى السنـــاء سناها

و (أزهى السناء سناها) لا تمدنا بأى جديد ، لا من الناحية النفسية ، ولا من الناحية الفكرية ، وانما جاءت اشبه ببعض المجاملات التى يتبادلها الناس فى شتى المناسبات .
ان القارىء ليتوقع من القافية ان تأتيه بصورة شعرية لطيفة ، او لمحة ذهنية طريفة تمنح البيت اجنحة يطير بها لا ان تخمد انفاسه ، وتكون كالمظلة التى تطلق وراء بعض الطائرات لتخفف من سرعتها قبل التوقف على المدرج .
ويقول بعد ذلك :
اجمعت امرها بقتل رسول الله ليلا ...
افيصح ان نقول اجمعت امرها بقتل رسول الله ، ام الصحيح هو اجمعت امرها على قتل رسول الله ، والا فان المعنى يخرج الى معنى اخر ، وهذا طبعا ما لا يقصده الشاعر .
ويقول :

ناثــرا حفنــة التـــراب ذراها برؤوس للكفــــر حان ازدراها

والأدق ان يقال ذراها على رؤوس الكفر وليس برءوس الكفر ، كما ان

(ذراها) ... بعد (ناثرا) هو نوع من التكرار الذى يذهب بقوة البيت وعافيته ويجعله يترهل ، ويحرمه من خفة الحركة ، ثم ما قيمة (حان ازدارها) هنا ، هل جاءت حقا فى مكانها المناسب ام انها فقط كلام كاى كلام يخطر على البال ، ويصلح فقط لملء فراغ بيت موزون مقفى .

ويقول :

لم يزل امسهـا وضيئـا كما **اليـوم عزيـزا تحفـه ذكراها**

لم يزل امسهـا وضيئـا كما — اليـوم عزيـزا تحفـه ذكراها

أما (تحفه) هذه فقد شلت حركة البيت شللا تاما ، وهى شاحبة ، باهتة ، ليس لها طعم مميز ، ولا توحى باى نبض شعورى ، ولكنها على كل حال قد تصلح لبنة لملء فراغ البيت .

ويقول :

فى انقطـاع الابـن الشفيق — ومـولاه اجـادا مهمـة ادياها

ففى (اجادا مهمة ادياها) اقل من نثر عادى يتلفظ به سائر الناس فى المكتب والطريق والمنزل ، وفى كل مكان .

ثم يقول :

ان فيهـا روح العظيـم ابيها — قد تجلـت مواقفـا لا تضاهى

فأما (المواقف التى لا تضاهى) هذه فقد جاءت ، رغم ما فيها من واقعية وصدق ، جافة كالعظم ، لا ادرى لماذا ، وكأنها قد جردت تماما من اللحم والدم .

ثم ما هذه المحسنات البديعية المتعمدة المقصودة : وتذكر مستعرضا بعض ما لاح مليحا ... ايها النابض الفؤاد وقد خف كلما حف ...

سر وعد الايام عسراء راحت فاستراحت ...

انها لتذكرنا بمقامات الحريرى ، وعصور الانحطاط فى الأدب العربى .

وبعد فلنحط الرحال ، ولنلق عصار التسيار ، كما كانوا يقولون ، عند هذا البيت :

والبنيات هازجات تغنى طلعة   البـــدر بازغـــا قد اتاها

فبازغا هذه حشو لا لزوم له لان طلعة البدر تغنى عن كل بزوغ ، والشعر لمح تكفى اشارته ، ولا داعى فيه للاطالة .

ارأيت كيف يتسع الشعر الموزون المقفى لكل هذه الرقع من الاحجار الصغيرة التى يمكن ان تسد بها كل ثغرة ، ويرتق بها كل فتق .

لا ريب ان مثل هذا الترقيع هو الذى جعل انصار الشعر الحر ينفرون من الشعر العمودى ، ويتخذون منه ذريعة لهجره ، ويحسبونه من الضرورات الملحة التى لا يمكن ان يتخلص منها ، او ان تفارقه فى يوم من الايام .

ان الشعر يحتاج الى صبر طويل ، وعمل مرهق دائب ، وتنقيح لا يكل ولا يمل ، ووضع كل لفظة فى المحل المناسب الذى يبرز اشعاعها وحيويتها .

يقول هنرى تروايا فى حديثه عن شيخ القصة الفرنسى غوستاف فلوبير : « كان ينهض فى كل لحظة ، ثم يقرأ بصوت حاد ، مرعد ، ما يكون قد كتبه ، متوقفا ليدرس رنة كل كلمة ، او يستبدل بها كلة اخرى اكثر بلاغة ، او يحذف صفة ، ثم يجلس متعبا ليعيد الكرة ، وهذا ما كان يدعوه الاختبار الحنجرى . كان يردد قوله : « لا حياة للجملة إلا حينما تستجيب لادوات جسدية ، فانا لا اعرف جودتها الا بعد ان اقرأها بصوت عال .

هذا هو العمل الفنى فى النثر ، افيكون الشعر اقل حاجة منه الى ذلك ؟

ولنترك كل هذه الفوارق الدقيقة التى تدخل فى اصول صناعة الشعر ، ولنتساءل اخيرا وهو الأهم ، ما هو الاثر الذى تتركه فينا هذه القصيدة بعد الفراغ من قراءتها ؟

ان الاخبار التاريخية التى فيها مبثوثة فى كل كتب السيرة ، بأسلوب عربى فصيح بين ، يستطيع ان يستمتع به كل من يشاء ، فهل استطاع الشاعر ان

يعمق احساسنا بتلك المواقف التى لا تضاهى ، على حد تعبيره ، وذلك عن طريق النغم والصورة والانفعال ؟

وبمعنى اخر ، هل استطاع الشاعر ان يسكب فى قصيدته ، من روحه الشاعرة ، شعاعا جديدا متألقا ، فاذا بها تشف اكثر مما يشف النثر ، وتوحى باكثر مما يوحى ، وتكشف عن معان وصور لا يمكنه هو ان يرقى اليها ، او يدنو منها ، لان الناثر يمشى على الثرى ، والشاعر يحلق فى الاجواء العالية الطلقة ؟

ان فى الحوادث التاريخية لمعينا لا ينضب للشاعر الذى يريد ان يستمد منها الهامه ، ومجالا رحبا لازدهار خياله ، وتفتح احلامه ، والشاعر الحقيقى لا يتكىء على الحادثة التاريخية الا لينطلق منها الى آفاق ابعد مدى ، فهى ليست اكثر من نقطة ارتكاز له ، تماما كما ينطلق الطائر من على غصن الشجرة الضيق الى زرقة السماء الفسيحة ، اما ان يبقى فيها اسيرا كالقطار بين القضبان الحديدية ، فانه يجعل الشعر مكبلا بالاغلال ، لا يعتمد على فوران الشعور ، وتحليق الخيال .

وختاما فانى لا اقصد بنقدى لهذه القصيدة العابرة ، الغض من مكانة الاستاذ قنديل الادبية ، او التقليل من اهمية ما قدمه لنا ويقدمه كل يوم ، من عطاء خصب طيب يجعله محببا الى نفوس القراء ، اثيرا لديهم ، وهو ، بعد كل شىء ، يظل فى دنيا الادب ، كاسمه ، قنديلا مضيئا يطارد بقلمه فلول الظلام ، وانما وجدت فى هذه القصيدة ما يلقى بعض الضوء على ماذهبت اليه من رأى فى اغلب الشعر الذى ينشر فى صحفنا اليوم ، وما هدفى سوى تنقية الشعر من الشوائب ، والعودة به الى روائه الاصيل المؤثر .

مقال الأستاذ قنديل

أحمد قنديل يرد على قياسه

لقد قرأت ما نشر بالعدد الاسبوعى من جريدة عكاظ اليوم السبت الموافق ١٧/١/٩٤ بعنوان « القنديل ـ والهجرة » نقد الدكتور عارف قياسه ... وأود ان انتهز المناسبة لاقرر كتمهيد .. الاتى :

أولا ـ تقتضينى الامانة الادبية ان اسجل هنا ان ما كتبه الدكتور يستاهل الحفاوة به باعتباره .. كمبدا .. لونا من الوان النقد الادبى الشعرى الذى نفتقده .. ولانه نقد صادر عن شاعر يدرك اصداء الشعر .. جمالا .. وعيوبا .. والفاظا لا تصلح الا له .. ولعدم وجود نقد ادبى شعرى له وزنه وهدفه لدينا .. سوى ما يتلاهى به ... بين الفينة والفينة بعض من لم يبلغوا الحلم فى دنيا الفكر والادب بله النقد ـ ونقد الشعر بالذات ... جيده ورديئه على حد سواء .. ثانيا ـ لقد مهد الدكتور ـ لنقده ـ قبل الدخول فيه ـ بتحميله موسيقية لطيفة ـ عما نشره فى عدد سابق من عكاظ ، من ان اغلب الرعيل الاول غدا ينظم الشعر نظما .. مما دعا الجيل الصاعد الى الانصراف للشعر الغربى .. ومن اتخاذه من قصيدة الهجرة البرهان على ما قاله من قبل .. مع ازجائه الثناء العاطر لصاحبها ، مما تقتضى اللياقة مبادلته اياه ... ولو بترديد ببغائى للجملة التقليدية تقال فى مثل هذه المواقف « لقد اخجلتم تواضعنا .. يادكتور » ..

واننى لأوافقه فى صراحة تامة على ان ذلك مادأب عليه الرعيل الاول فى جل ما يقدم من « قوالب » شعرية ـ لا يستطيع اغلب افـراده الخـروج عن « جبسيتهم » فيها مهما حاول فتلك انية بيته كما قال ابن الرومى لمن طلب اليه مجاراة ابن المعتز .

لكننا نرى ان هذا الوجود العمودى الشعرى ... كأصل قد تطور من حيث وحدة القصيدة والمضمون .. والصور .. وتنويع القـوافى .. والاوزان ... والكلمات من البعض لدينا ... منذ معالجتهم له ... وتطويرهم اياه ... شبابا ثم كهولا ... او شيوخا ـ. مما يعتبر فى بلادنا انموذجا حيا وصالحا لمواكبة الجيل الصاعد له ... ان وجد القدرة على المعاناة لاستكمال ادواته الاساسية ونفخ الروح الشابة الفتية فيه ... وتطويره اكثر فأكثر .. بدل اللجوء الى الشعر الغربى .. او الانطلاق نحو هذا « الهلاسى » الذى يصح ان نسميه اى شىء .. الا ان نسميه شعرا ... لتجرده من التفعيلة والمضمون اللذين هما من دعائم الوجود الشعرى .. كموسيقى وكمضمون يحددان معنى الشعر وذلك ما فعله بعض شباب الاقطار العربية فى بدء تطويرهم له ـ وحتى الان ـ وفيما بعد فيما نقدر ـ ممن لم يغفلوا الاساسيات المميزة للشعر ... كفن جميل ذى اصول وقواعد من حيث الاصل المميز له عن النثر العادى ـ او المطلق ـ او الفنى :

ثالثا ـ كيف غاب عن الدكتور ان ما نشر عن الهجرة هو جزء مقتطف من « الزهراء » وهى الملحمة المعدة لمؤتمر الادب بمناسبة يوم الهجرة ـ رغم التنويه الصريح بهذا من جريدة عكاظ اليومية فى اليوم السابق للنشر ؟

ولا ادرى هل فعل ذلك عامدا متعمدا ليبنى كثيرا من احكامه مثل : اول الطريق ـ وبراعة الاستهلال وسواهما ـ ام انه لم يقرأ مانشر ؟ او انه لم يلاحظ ذلك ؟

رابعا ـ لايرى الدكتور ان « بها ذكراها » تناسب البيت :

ايها الروائد الدروب .. توالت عاطرات الذكرى .. بهـا ذكراها

حتى لو افترضت النثرية فيه .. فتلك وجهة نظره .. ولكل وجهة .

كما تحدث عن البيت باعتباره اول الطريق ـ كما ظن .. وهو ليس كذلك .. وان كونه ليس كذلك ... مع الاعتذار عن هذه الكافات المتلاحقة ـ لا يشفع ـ او لايقدم او يؤخر كثيراً فى الامر :

خامسا ـ ويرى الدكتور ان الاصح ان يقال « اجمعت امرها على قتل رسول الله ... لا « بقتل رسول الله » وهذة تفلية قاموسية دقيقة ـ لا حيلة لنا فى

نقضها ومع ذلك فان اجماع الامر يكفى ... ولن يخرج حرف « الباء » الذى احتل مكان « على » المعنى عن ... مفهومة المراد له ـ وللدكتور ان يسأل الف قارىء .. وقارىء عما فهمه ..

سادسا ـ وتلحق بها فى الحكم « الباء » الثانية فى « برؤوس للكفر .. بدل « على » من البيت ناثرا حفنة التراب ... ذراها برؤوس للكفر ـ حان ازدراها ...

أما الذى يمكن فى كلام الدكتور ان تكون لنا حيلة فى نقضه فهو قوله « ما قيمة » حان ازدراها هنا ؟؟ وهل جاءت حقا فى مكانها المناسب ... ام انها فقط كلام كأى كلام يخطر على البال .. ويصلح فقط لملء فراغ بيت موزون ـ مقفى ؟؟

ونقول للدكتور .. فى ادب وفى تواضع صادقين .. ان « حان ازدراها » .. انما جاءت فى مكانها المناسب . بل انه لابد من وجودها او وجود سواهما مما يؤكد معناها .. وذلك ان اذى قريش .. او ازدراءها .. قد طال .. ولم يكن للنبى واصحابه بد من الصبر عليه ... اما وقد اذن الله له بالهجرة وبمجابهتهم .. فان وقت ازدرائهم قد بدأ بفعل : كنثر التراب ليجدوه فوق رؤوسهم فيما بعد وقد حان ..

سابعا ـ ويعقب الدكتور على البيت :

لم يزل امسها وضيئا .. كما اليوم ـ عزيزا ـ تحفه ذكراها قائلا : ان كلمة ... « تحفه » هذه قد شلت حركة البيت شللا تاما .. وهى شاحبة ... باهته .. ليس لها طعم مميز .. ولا توحى باى نبض شعورى ـ وكما قلنا من قبل ـ فان للدكتور ذوقه ووجه نظره ... ونحن مع ذلك لاندعى انها الكلمة الادق ـ او « الانبض » ..

ثامنا ـ كما يرى الدكتور فى البيت :

فى انقطاع الابن الشقيق .. ومولاه ـ اجادا مهمة .. ادياها .. ان جملة ادياها اقل من نثر عادى يتلفظ به سائر الناس فى المكتب ـ والطريق ـ والمنزل وفى كل مكان ـ ونحن معه فى ذلك ـ لان الشعر فى بعض « الحالات » الخاصة

جدا . لا يخرج عما يتلفظ به سائر الناس .. لاداء مفهوم محدد الغرض والاداء ..

تاسعا ـ ويعقب الدكتور على البيت :

ان فيها روح العظيم ابيها قد تجلت مواقفا لا تضاهى ـ بقوله ـ فأما « المواقف التى لا تضاهى »هذه .. فقد جاءت .. رغم ما فيها من واقعية وصدق .. جافة كالعظم .. لا ادرى لماذا ؟؟ وكأنها قد جردت تماما من اللحم والدم » .. ومادام الدكتور لا يدرى لماذا تجردت هذه الجملة من اللحم والدم ؟؟ فليس لنا براعة وفهلوة الجزار الذكى الذى يستطيع ان يحمل اللحمة بيده ليضعها فى كف الدكتور .. ويهزها الى اسفل ليقنعه بانها « هبرة » ثقيلة .. ذات لحم ودم :: وحسبها قبل ذلك ـ او بعده ـ ما فيها من واقعية وصدق ـ كما قرر الدكتور « بعظمة »لسانه ..

ثم يقول الدكتور مستعرضا بعض ما لاح .. مليحا ..

ـ ايها النابض الفؤاد .. وقد خف ـ كما حف ..

ـ سر .. وعد الايام عسراء راحت ـ فاستراحت ..

انها تذكرنا بمقامات الحريرى وعصور الانحطاط فى الادب العربى ..

ونحن نقول للدكتور : ان المحسنات البديعية موجودة ـ كأصل .. فى اصل البيان العربى منذ خلقه .. كديكور بيانى .. وأيقاع موسيقى متناسق متناسب .. ولم يستغن عنها قديما .. قبل الحريرى ومقاماته . ولا حديثا بعده فى اى شعر قديم او حديث والا قد وجب ان يصدر بيان ادبى رسمى .. تحقيقا لرغبة الدكتور ـ يؤخذ علانية تحريم استعمال المحسنات البديعية اطلاقا ... لانها انقرضت بانقراض المقامات الحريرية .. تماما كما يمكن او يجب ان نحرم السجع .. مثلا .. أو استعمال كثير من الالفاظ العربية ذاتها ... لماذا ؟؟

لاستعمالها فى المقامات ـ وفى عصور الانحطاط فى الادب العربى ـ فقط لا غير زيادة ..

ان العيب ـ ياسيدى الدكتور .. فى الاسراف فى استعمال المحسنات البديعية كقوام .. ودعامة ... واصل فى المقامات : اما ورودها فى موضع

او اكثر فى محلها المناسب فليس جريمة ـ او عيبا لانها وردت فى مقامات الحريرى وفى عصور الانحطاط فى الادب العربى .. فكم .. وكم من محسنات بديعية ـ وسجع ـ والفاظ وجمل بذاتها وردت واستعملت انذاك .. ولا تزال لها حلاوة الاستعمال حتى اليوم .. لمن يذرها ذر الملح فى الطعام ..

ثم يقول الدكتور « وبعد فلنحط الرحال ـ ولنلق عصا التسيار كما يقولون عند هذا البيت : والبنيات هازجات ـ تحيى طلعة البدر ... بازغا ـ قد اتاها ... فبازغا هذه حشو لا لزوم له لان طلعة البدر ... تغنى عن كل بزوغ .. والشعر لمح تكفى اشارته ـ ولا .. داعى فيه للاطالة ... اى انه اسلوب « تلغرافى » الحساب ..

ومع ذلك ـ فيمكننا ان نخاطب الدكتور الشاعر باسلوب التصور الشعرى ... لنقول له : ان البدر المعنى هنا لم يكن بدرا مسامتا لمستقبليه ـ او طالعا فى سماء مكان استقبالهم ـ وانما هو قادم فى مطلع ركب ـ فالبزوغ هنا له معنى « حالة » التبشير المفاجىء للطلعة ... والبيت مكمل ومرافق للبيت قبله :

حينما ابصرت مطالع ركب قد اشعت بنوره حرتاها .

ويذهب الدكتور بعيدا جدا فى استغلال كلمة « بازغا » كحشو فى مفهومه ـ ليتخذ منها « ترقيعا » يجعل انصار الشعر الحر ينفرون من الشعر العمودى ، ويتخذون منه ذريعة لهجره ... ويحسبونه من الضرورات الملحة التى لا يمكن ان يتخلص منها او ان تفارقة فى يوم من الايام » .

ونحن نسأل الدكتور .. بغرض ان الكلمة « حشو » ... هل خلا الشعر الحر من الحشو » ؟؟

بل نؤكد له ان هذا الشعر الحر انما يقوم على الحشو ... تكرارا ـ وتردادا لكلمة ـ او .. لجملة بذاتها . تشبه فى حلقات الذكر البائدة كلمة : حى .. حى .. حى .. فى جذبة لانهاية لاغمائها الطويل ..

وعاشرا : وقد اخرنا هذا البند من فاتورة الحساب .. عمدا ... فيقول الدكتور عن البيت :

وتوالوا نحو المدينة ارتال وفود ... ازهى السناء سناها ... و « ازهى السناء

سناها » اى ازهى ضوء المدينة ضوءها ... لاتمدنا باى جديد .. لا من الناحية النفسية . ولا من الناحية الفكرية .. وانما جاءت اشبه ببعض المجاملات التى يتبادلها الناس فى شتى المناسبات » .

وكنا نود للدكتور عارف قياسه الا يتورط فى جعل السناء ــ بمعنى الضوء .. فى اللفظين ... ليبنى على هذا التورط او الاغفال المقصود ما بنى ... وذلك ليعطى للمفهوم من مفهومه المغرض الصورة المضحكة فى تفسير الماء ــ بالماء :: مع ان المعنى واضح فى ان سناء المدينة اى رفعتها وعلاها ... ازهى سنا المدينة ... اى ضوءها ..

ولقد تساءلت بيبى وبين نفسى .. ضاحكا فى سرى للنكتة ولكن دون رفع الصوت بالقهقهة باسلوبى البلدى : هو انت مهو تعرف برضو يدكتور : ان السناء هنا غير السنا ؟؟

والا يعنى ــ يدكتور عارف : انت .. منت عارف ؟؟

اخيرا : فانني بصدق ــ وبرجولة ــ ومع كثير من التقدير .. اصافح الدكتور الشاعر .. عارف قياسه وأحييه لوزن نقده وهدفيته النبيلة .. وليته يتفرغ حينا من الوقت للنقد الشعرى .. على الا يطغى هذا التفرغ فيحرمنا من تقديمه لنا النماذج الحية من شعره .. شعره العمودى بالطبع ــ وشكرا ..

عـودة الى القنـــديل

لقد اعجبتنى الروح الرياضية العالية التى يتمتع بها الاستاذ قنديل فى تقبل النقد ولم استغرب ذلك منه ، فالادباء الكبار ، بما فطروا عليه من سعة فى الافق ، لا يضيقون ذرعا بما يوجه اليهم من نقد برىء ، ولا يتبرمون به ، وانما يجدون فيه مادة لذيذة للحوار ، ومجالا مفيدا لصراع الافكار وكشـــف الحقائق .

وما كنت احب ان اعود الى قصيدته (فى الهجرة) لولا انى علمت من رده ان قصيدته تلك هى جزء من ملحمة الزهراء التى اعدها ليقدمها فى مؤتمر الادب السعودى القادم فما انا من هواة التصليح والتصحيح ، كل ما فى الامر ، أنى اعشق الشعر واتذوقه ، واغار عليه ، وكذلك اطمح فى ان ارى محياه وسيما ، معبر القسمات ، لا يخالط بهاءه ، اى ظل شاحب .

وليسمح لى الاستاذ الكبير ان أهمس فى أذنه ان قصيدته لم تكن مصنوعة على مهل ، ولم تنضج على نار هادئة ، وانما كانت كوجبة طعام عاجلة ، واذا كنا نقبل مثل هذه القصيده من غيرة ، فلا نقبلها من القادرين على التمام ، مثل الاستاذ قنديل ، ولا نزال نرى فيها ما يحتاج الى اعادة النظر ، ولا سيما وان هناك متسعا من الوقت قبل انعقاد المؤتمر .

ولا احب الآن ان اناقش من رده الادبى على ، سوى الجزء الاخير منه ، وهو (ازهى السناء سناها) .

لقد فسر الاستاذ قنديل ذلك بان سناء المدينة اى رفعتها وعلاها ازهى ضوء المدينة وانا فسرتها بان ضوء الوفود ازهى ضوء المدينة .

والشاعر ولاشك ادرى بقصيدته . ولكن اذا كان هناك من ذنب فليس بالتأكيد ذنبى انا .

لانك جعلتنا يا أستاذ قنديل فى دوامة من التعليل والتأويل ، حين مددت المقصور وقصرت الممدود ، وقدمت ما كان يجب فيه التأخير ، واخرت ما كان يجب فيه التقديم ، وهات براعتك يا منجم !

ولقد حسب الاستاذ قنديل انى لم اعرف معنى السناء وهو العلاء ، فظننته الضوء وانا أطمئن الاستاذ الكبير بانى لا اجهل الفرق بين السناء والسنا فبيت ابن زيدون يعرف معناه كل طالب : يا اخا البدر سناء وسنى . ولكنى فسرت السناء بالضوء لانى ظننت انك انت مددت مقصورها للضرورة الشعرية .

ولذلك قلت معناها : ازهى ضوء الوفود ضوء المدينة ، اما تفسيرك ذاك بان رفعة المدينة ازهت ضوء المدينة ، فأنت وما قصدت . على كل حال ، لا هذا التفسير ولا ذاك يزيد البيت او ينقصه ـ هذا فى رأيى على الاقل ـ شيئا ..

ولنعد الى القصيدة العتيدة . فلا يكاد البيت الاول يهل علينا حتى يفاجئنا بهذا ... الخطأ :

أيها الرائد الدروب توالت عاطرات الذكرى بها ذكراها
أترانا نلف وندور ونعود الى (بها ذكراها)

لا ليست هى هدفنا هذه المرة فقد نالت نصيبها ، انما هدفنا الان : عاطرات .. الذكرى .

فالذكرى مؤنث مفرد ، وعاطرات جمع تانيث ، افيصح اذن ان يقال عاطرات الذكرى بدل عاطر الذكريات .

ثم يأتى البيت الاتى :

قائلا يا على نم فى فراشى وتسجى فى البرد ، تأمن أذاها

ولا ادرى لماذا ترك الشاعر (تسجى) هكذا متمطية كحسناء فى كرسيها الطويل ، دون ان يقط ذيلها ، فهى معطوفة على امر : نم ، واذا كان الشاعر يعتبرها جملة معترضة بين فعل الامر وجوابه ، فان هذا التدخل الفضولى لا يعفيها من اللوم ، لانها بتدخلها غير المشروع ، قطعت خط الاتصال فى هذا

البيت .

ويقول :

فى تولى البيت الكريم شئون الرحل　　　معنـــى رقت به معنـــاها

فوراء (رقت) هذه ، شئون خفيت علينا ، ودقت .

أتراها جاءت من الرقة ، لا اظن فالمعنى لا يستقيم بهذا التفسير . انها جاءت اذن من الترقية .

ان الترقية هى هم الموظفين الاول فى أيامنا هذه التى عم فيها الغلاء ، حتى غدت عل كل شفة ولسان ، فلعلها تسللت الى بيته خلسة دون ان يلمحها .

ولنعد الى (معنى رقت به معناها)

ان الضمير فى معناها يجعل القارىء فى بلبلة وحيرة ، فهو لا يعرف الى من يرجع ، .. لولا ان يستمر فى مطالعة القصيدة فيدرك اخيرا ان الضمير يعود الى اسماء ذات النطاقين :

حين شقت ذات النطاقين اسماء　　　عصابـــا لسفـــرة من كساها

(ومعناها) حيرتنى كثيرا ، واخيرا بعد كد ذهنى غريب ، وطول تفكير عجيب وجدتها ،

وهى ان اسماء مشتق اسمها من السمو ، وبتولى البيت الكريم شئون الرحل ، رقت معناها وزادته رفعة .

وارى ان ترقية المعنى بالمعنى هو ضرب من التسلق اللفظى ، فكما ان بعض النباتات ، فى الطبيعة تتسلق جذوع الأشجار ، كذلك بعض الالفاظ ، فى الشعر ، تتسلق ظهور الالفاظ .

فهل فى هذه الترقية ما يسد جوعنا الادبى ، ام انه كذلك الطعام الذى يؤكل فى المنام لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وقريش تلوب كالثــور قد هاج كمــا الذئــــب عاويــــا بفلاها

والصحيح ان يقال كالذئب ، لان (كما) تتطلب فعلا يليها وليس اسما ، فمتى .. تنقذونا من هذا الخطأ الذائع الشائع فى بعض صحفنا .

ويقول

بعــد ان سار واجـــف القلب يســاوى من الخطــى ممشاها

انى اعترف بعجزى عن فهم (يساوى من الخطى ممشاها) الا ان يضع قدما امام قدم ، .. محددا لكل خطوة مسافة معينة ، لازيادة فيها ولا نقصان .

ولعل الشاعر اراد ان يقول : كان يمشى على اطراف اصابع قدميه متأنيا ، متوجسا حذرا ، لكى لا يثير اى ضجة ، ولا يلفت اليه اى انتباه .

فهل يساوى من الخطى ممشاها توحى بمثل هذه الصورة الوجلة الحذره .

ولعله اراد ان يقول ان الخوف لم يجعله يفقد اتزانه فيسرع فى سيره ، فهل توحى تلك الصورة بذلك ايضا .

ويقول :

يوم قالــت لابنهـــا قف وقاتل لم يهــن عزمهــا القــوى عماها

والذى اعرفه ان (وهن) فعل لازم غير متعد ، ولذا كان على الشاعر ان يقول : لم يوهن عزمها عماها . و (عماها) هنا ثقيلة ، لا تتقبلها النفس ، فقد كان فى وسع الاستاذ قنديل ، وهو من هو ، رهافة ذوق ، ان يأتى بايماءة الطف منها وقعا ، ولا سيما فى موقف مدح مثل هذا الموقف .

ولقد سأل أحد الخلفاء العباسيين ، واظنه المأمون ، احد جلسائه عن عمره ، فأجاب لقد شهدت قران ابيك الطيب على امك المباركة ، فاستحسن ذلك منه ، واجزل عطاءه ، ... لانه لم يقل شهد قران ابيه المبارك على أمه الطيبة ، وفى ذلك ما فيه ، كما لا يخفى ، من لطف فى الاشارة ، ودقة فى اختيار الكلام ..

ويقـــــول :

فارتمى بين حضنها يتباهى ...

وبين لا تكون الا بين شيئين . كبين يديها مثلا ، ولذلك ، فان الصحيح هو : فارتمى فى حضنها .

وقول : يوم صاحت ــ تسعى ــ الم يان للفارس هذا ترجلا ــ فى نداها .

وحق (ترجلا) الرفع لانه فاعل يأن واظنها غلطة مطبعية .

وأرى ان هذا البيت ، متهدج الانفاس كشيخ عجوز يصعد احد الجبال ، متداخل متشابك كأسلاك الهاتف فى ليلة قاصفة عاصفة .

ولنستمع الى الكلمة الوضيئة الشفافة ، كلمة اسماء بنت ابى بكر ..

أما آن لهذا الفارس ان يترجل . انها كافية وافية ، دون حاجة الى هذه الذيول الطويلة التى تجر على التراب ، وتثير وراءها عاصفة من الغبار تحجب اشعاع تلك الكلمة الفذة .

ويقـــــول:

ضمت الفرحـة الكبـيرة ترعى   بـين احضانهـا بهـــا اعلاها

و (بها اعلاها) اخت (قادر اغلاها) وابنة عم (رقت به معناها) ، ولا اشك فى اننا لو اطلعنا على كل الملحمة لرأينا من نسل تلك الذرية المباركة العجب العجاب ، وقد تزيد فى العدد على اخوات كان وان .

ويقول :

وبيوت الانصار مشرعة الابواب   طلـت منهـــا صنــوف قراها

أما (طلت) هذه فلا تقبل من شاعر كبير كالاستاذ قنديل . فهو يعنى اطلت من الاطلال والبروز ، اما طلت هذه فهى من الطل ، ولا اخال شاعرنا الراوية يجهل البيت القديم :

فلما حللنا منـزلا طلــه الندى   انيقا وبستانا من النور حاليا .

فالمنزل الذى طله الندى ، هو الذى بلله الندى . ويقال طلتنا السماء اذا امطرتنا مطرا خفيفا .

واخيرا آن لنا ان نبلغ هذا البيت ، فننعم بنسمات شذية من جوار عين جارية او ساقية شادية :

وتناغى منها العيــون السواقى · اتبعــت دلوهــا طويــل رشاها

ولكن ما هذا الدلو ، وذلك الحبل الطويل ، يا استاذ قنديل :

ولماذا هذا الانقطاع المفاجىء فى التيار الكهربائى ؟

لقد لاحظت ان الشاعر يكثر فى قصيدته من استغلال الجوازات الشعرية ، صحيح يجوز للشاعر ما لايجوز للناثر ، ولكن بشرط ان لا يسرف فى استعمال هذه الجوازات ، وان لا يلجأ اليها الا فى الضرورة القصوى ، والا جاء شعره مليئا بالبثور ، كوجه المجدور .

ان الشاعر قد يتدفق احيانا كالنهر الذى يفيض على جانبيه ، ويتجاوز حدود مجراه ولقد يشفع له بذلك ما يقدم من مبتكر ورائع وطريف ، مما يجعل تجاوزه هذا من الهنات الهينات التى لايؤبه لها ، ولا يلتفت اليها ، ولكن اذا كانت القصيدة غير ناضجة تماما ، فان اى عيب فيها يبدو صارخا مضخما ، وكانك تنظر اليه من خلال المجهر ، فلا اقل من تقوية الاساس ، لئلا يتصدع البناء وينهار .

وتنتهى القصيدة بهذين البيتين :

ان فى الهجرة الكريمة قانون حياة قد سنــــه مصطفاها
فوعته الشعوب درســا وعانته نفـــوس الاحـــرار فى بلواها

وكلاهما تجريد لاتلمح وراءه أى بصيص لنور الخيال ، وكلاهما وعظ ينهال من على منبر عال .

ان التجريد يقتل الشعر ، والوعظ مكانه الصحيح هو النثر .

فلنترك ، فى الشعر ، الصور تتحدث عن نفسها ، بالوانها المتموجة ، وظلالها

الموحية ، واشاراتها اللطيفة ، لنتركها تهمس فى سرائرنا بأصدائها المنوعة ، العذبة الخلابة .

ولندع المشاعر تنطلق ، من الشعر ، شفافة ، رفافة ، مجنحة ، غير مثقلة ، لندعها تنبثق طبيعية ، عفوية ، كما ينبثق الماء من نبع الجبل ، والدفء من اشعة الشمس ، والعبير من براعم الزهر ، والغناء من حناجر الطيور ، وللاستاذ الكبير ، احمد قنديل ، تحياتى وشكرى .

فى غيابة الجب

لم يكن ابوه نبيا ، ولم يكن يدعى يوما بيوسف ولكنهم مع ذلك القوا به فى غياهب الجب .

* لقد دخل العقاد السجن فأطلع لنا كتابه الطريف : عالم السدود .

ودخل محمد بهار السجن ، ومكث فيه ثلاثين يوما ، كانت اطول عنده من دهر . فأخرج لنا ديوانه (فى غيابة الجب) .

ورغم انى لست من أنصار الشعر الحر ، ولا من الداعين اليه فى يوم من الايام ، الا اننى لم املك نفسى من الاعجاب به ، كأثر فنى ، وان كان يظل فى نظرى اثرا ناقص التكوين من الناحية الشعرية .

فلنسمه ضربا من النثر الفنى ان أحببنا ، او فلنسمه شعرا منثورا ان شئنا فهولا يخلو من النغم العذب فى بعض الاحيان .

ولست أشك فى حال من الاحوال ، فى أنه لون من الوان التعبير الجميل الصادق الذى يزرى بكثير مما ينشر فى الصحف من الشعر الموزون المقفى الذى لا هم له الا الاجترار ، واعادة الصور المكرورة ، والذى يذكرنا بتلك المعلبات التى تباع فى الاسواق ، وقد افقدها التجفيف كل طاقاتها من الفتامينات التى تمنح النضارة ، وتساعد على استمرار الحياة وتألقها .

فمنذ الليلة التى فيها اعتقل حتى ليلة الافراج عنه ، يلاحق الشاعر ، بريشته المتيقظة تصوير كل لحظة من اللحظات التى عاشها فى عالم الظلمات ، ويثبت كل خلجة من الخلجات بأسلوبه الخاص المعبر ، فهو لا يعيش على كلمات غيره ، ولا يعتمد على خيال غير خياله ، ولا على أحاسيس غير أحاسيسه ، ولذلك جاء شعره صادق اللهجة ، شجى النبرة لانه ينبع من صميم وجدانه ، ومن اعماق ذهنه ، وكانت له شخصية مميزة وكانت له طريقة خاصة فى الاداء لا يعوزها الابداع ولا الجرأة .

ويذكر الشاعر اسباب النكبة التى حلت به فيقول :

اذا كان حزبى الربيع
وكان الد خصومى الصقيع
اذا كان سيفى الغناء
وشطر صلاتى السماء .
اذا جار غيرى ، وغيرى اشتكى .
اذا غصن عند بابى اتكى .
ومثل ماَقى السماء بكى .
فما الذنب ذنبى .

فالشاعر يأبى الذل ، ويكره الجور ، ولا يسكت على ضيم يراه ، فما ذنبه اذا تغنى بذلك فى اشعاره .

انه يحب الربيع ، ويمقت الصقيع ، ولا يطيق ان يرى على بابه غصنا ذاويا باكيا .

ولكن الظالم لا يعدم حجة يبرر بها تعسفه وبطشه ، ولو كانت حجة واهنة واهية :

ضبطناك خلف القمر
تحيى الشجر
وملء شعاع الصباح
تروع هوام الخميلة .
لماذا تضيق بها ، بالبغاث
وتحنو على غيرها بعناد ؟
ضبطناك مثل الفراش .. بلا فائدة
تهيم ، تعود ، بلا عائدة
لمن لونك الفستقى
وظل جناحيك عند الظهيرة
وخطرتك الحالمه

لنا ام للواء الجمال ؟

الان فهمنا لماذا زج بالشاعر فى غيابة السجن . فهو لم يسخر موهبته وشعره لخدمة الجور ، بل آثر خدمة الحق والعدل والجمال .

والشاعر وان كانت تعوزه الرنة الموسقية فى بعض الاحيان ، الا انه لا تعوزه الصورة الرائعة الفذة .

يقول الشاعر بعد ان عاد من غرفة التحقيق ولقى ما لقى هناك من إهانة وشتائم وتحقير :

رجعت الى غرفتى الضيقة
أنفض عنى الشتائم
رجعت كعصفورة مطرقة
تكومت فى الزاوية
وحولى البلابل مثلى كثيره
تقلب انظارها فى سديم
كأن مناقيرها مقفلات .

ويصف الدرب الطويل الذى اجتازته العربة وهى تحمله الى مكان التعذيب :

قفى قفى ياعربة ..
الدرب دهليز طويل الرقبة .

ويفاجأ الشاعر بابنه وقد اتى لزيارته فى سجنه فيقول فى فرحة وأسى :

حقا أتى على تطاول النوى والقيد والسجن
وجهك اصفر كالتبن
يازهرتى اليتيمة .
وجهك مراتى الجديدة القديمة .

لكن وجه الولد الذى يبرز من عالم المأساة يظل باهت الملامح ، جامد القسمات ، لا يضحك ولا يبكى فيخاطبه ابوه الشاعر :

مالك لا تجيب
لا تخش هذا الوافد الكئيب
قل ما تشاء
افضح بياض كبدى
انطق فما احلى الكلام
حرا طليقا كالحمام
أم هل عرفت ثمن الكلام
ورحلة الاباء .. من غير سلام .

ويخرج الشاعر من السجن بعد تلك المحنة الطويلة :
ثلاثون يوما .. ثلاثون قبرا تقاذف روحى
تقلبنى فوق شوك الظنون كسفود مجمر ..
فيهتف لذلك الصباح بملء فيه ، ومن اعمق اعماقه ، بعد ان تنشق نسيم الحرية ، وذاق حلاوة الانطلاق :

صباحك سكر
صباحك اندى وانضر
من الصبح والروض والزقزقات
وانور .
صباحك عمر جديد
ولحن سعيد
وشهد مكسر .

وهكذا تنتهى مأساة هذا الشاعر .
فى شعر محمد بهار صور رائعة ولاشك ، ولكنه قد يغرب احيانا فى التصور ويبالغ فى الغموض حتى لتكاد تكون بعض صوره غير مفهومة .
يقول :

الصمت مخدوش كجرح فى السماء
كسعلة السراب
وكالهباب فى ذوائب الضباب .

فسعلة السراب هذه وان كانت صورة مبتكرة ، الا انها جاءت فى غير محلها ، وصدرت عن شاعر غرق فى بحار اللاوعى ، ولم يستطع ان ينقذ نفسه من امواجها العارمة المتلاطمة .

ومهما يكن من شيء فان هذا الديوان ينم عن شاعرية اصيلة متدفقة ، فهو تاريخ حياة جرح حقيقى يسيل من قلب الشاعر ، سجل بين صفحاته كل احاسيسه من البداية حتى النهاية ، وأشركنا معه فى قلقه وهلعه ، وثورته وعذابه ، وقنوطه ورجائه ، وهو غنى باللفتات النفسية العميقة ، والملاحظات الذكية الدقيقة ، والصور الشعرية الجريئة ، انتزعها الشاعر من قلبة ولحمه ودمه ...

فلم يكن شعر الشاعر هنا وليد احلام واوهام ، وانما كان وليد شقاء وآلام وواقع مرير .

ولابد لنا اخيرا من التساؤل .

لماذا استطاع هذا الديوان ان يؤثر فينا ، احقا لانه ابتعد عن الشعر العمودى ، وسلك سبيل الشعر الحر ، كما يحلو لبعض الناس ان يزعم .

أما أنا فلا أظن ذلك . فكل الفضل فى نظرى يرجع الى اصالة الشاعر ونبض أدائه ، وحرارة بوحه ، وجدة صوره .

فقد كنت وانا امضى فى قراءة الديوان أحس أحيانا بشيء من التكسر والانسحاق ، وأننى اسير فوق هشيم يابس ، فى يوم من ايام الصيف .

وما كنت أشعر بالطرب الحقيقى الا حين كان الشاعر يقترب من الشعر العمودى الاصيل ، عند ذاك كانت النبرة تصفو ، واللهجة تحلو ، وكانت الصورة تشرق بكل ابعادها الممكنة ، وبكل ظلالها المعبرة .

فالعلة ليست فى شعرنا العمودى ، وانما هى فى شعر بعض المتشاعرين ...

علـــى الضفـاف

ديوان جديد أنيق الطبع للشاعر المعروف طاهر الزمخشرى عبر فيه عن آلامه واحلامه ، فى فترة من حياته مشبعة بالأسى والمرارة .. يقول الشاعر فى قصيدة له بعنوان (زفرة) :

فأحيا مع الذكرى اذا الليل ضمنى ... وتنزف آلامى فأصدح شاديا

وفى اعتقادى ان نفسية الشاعر قد اختصرت فى هذا البيت ، فالذكرى والالم والغناء ، هى العناصر الثلاثة التى تسيطر على حياة الشاعر الزمخشرى ، كما تسيطر على أشعاره فى هذا الديوان حتى لنكاد نلمح أطيافها ، ونشم رائحتها فى كل صفحة من صفحاته .

فالزمخشرى شفاف النفس ، مرهف الوجدان ، يتأثر حتى من خطرات النسيم ، وهو أيضا ذو مزاج كئيب حزين ، يذكى فى نفسه الالم ويؤرثه ، فلا غرو ان رأيناه يلجأ الى الغناء لينسى همومه وأحزانه ، وليجد فى هذا الغناء بعض السلوى والعزاء ، ككل الشعراء ..

ولكن الشىء الذى يسترعى الانتباه هو أن الالم عند الزمخشرى ليس زائرا عابرا ، وانما هو ضيف مقيم لايريم ، وهو كالفكرة الثابتة لايستطيع تخلصا منها ولا فكاكا .

ويبدو لى أن الشاعر الزمخشرى يعشق الالم ، ويجد لذة فى هذا العشق وانه

يمضغ الالم ويجتره ليطيل أمد هذه اللذة الوهمية :

وكان التياعى من جوى فى أضالعى   فلما خبا أصبحت ارجو التياعيا

ولاشك أن الالم ، خاصة بالنسبة للشعراء ، شيء مبارك خصب ، قليل منه يحرك الوجدان ، ويوقظ الخيال ، ويشب العاطفة ، ولكنه اذا امتد وطغى صار مضنيا ومدمرا ..

و (على الضفاف) ديوان صارخ بالحب والشوق والحنين ، فيه أمل ، وفيه أيضا كثير من لوعة الحرمان التى تصاعدت وتقطرت فأصبحت شعرا ... والزمخشرى فى هذا الديوان شاعر رومانتيكى رقيق البث ، حلو الغناء ، ينساب فى سهولة وعذوبة وهمس محبب ، فى شعره طراوة ونضارة وطلاوة ، فهو مخضل بالندى والزهر ، وطافح بالخمائل والغصون والاطيار والالحان ، مما يجعله يتسم بالصفاء ، ويخلع عليه الاشراق والهدوء رغم مافيه من مرارة قاسية ، وعبوس قاتم .

والزمخشرى شديد المحبة للطبيعة ، كثير الاعجاب بمفاتنها وألوانها وظلالها ، وقد انعكس ذلك كله على محيا شعره ، فبث فيه جوا أشبه بجو الربيع ، وأضاف الى أبياته الحانا صافية عذبة .

والزمخشرى له ريشة بارعة الوصف والتلوين . يقول فى رباعيته :

وعربد (الكاس) مأخوذا بفتنتها   وفوق وجنتها من (خمره) لهب
فقبلته وفى أطرافه حبب   من اللجين توارى تحته الذهب
وهاجها «فتعرت» من ملابسها   «والنهد»من زحمة الالحاظ يضطرب

فاضطراب النهد من زحمة الالحاظ تصوير رائع لايقدر عليه الا كبار الشعراء . ولكن عيب الديوان ان امثال هذه الصورة الخلابة المركزة فيه قليلة .

ويصف الشاعر النهد فى قصيدة اخرى (فى الماء) فلا يوفق كثيرا :

وتعرت فى الماء تسبح كالحوت بطفلـــين تحتهـــا حملاها
يشرئبــان للحراســة فى الصدر وفى البحــر يسبقـــان خطاها
كلما حاولت الى القـــاع غوصا ساعداهــــا فحـــددا الاتجاها

فوصف النهدين بالطفلين لايدل على تأثر عميق بالجمال ، كما ان هذين النهدين اللذين من تحتها حملاها يخطر على البال كرتين من المطاط منفوختين ، كاللتين يستعين بهما المتبدئون حين يتدربون على العوم وكذلك (ساعداها فحددا الاتجاها) بعيدة كل البعد عن الغزل الرقيق ، والشعر الرفيع ، فتحديد الاتجاه قد يدخل فى اختصاص الملاحين فى البحار ، ولا علاقة له بالنهود ، ولا أدرى كيف يحدد النهدان الاتجاه ، الا أن يكون فى كل منهما بوصلة تدل على خط السير ، أو انهما بلغا من الضخامة والثقل بحيث يكونان كالمرساة يساعدانها حقا على الغوص أو على الوقوف فى ثبج الماء الهادر .

وأنا لا أحب فى نقدى للشعر أن أحكم العقل كثيرا ، ولا أن أزنه بميزان المنطق الصارم ، ولكننى أعتقد ان الخيط الذى يضم لآلىء العقد ينبغى أن لا ينقطع والا كان الشعر خاليا من القيمة الحقيقية التى تكفل له الروعة والخلود .

ويقول الشاعر :

أطــوف فى الخيـــال بكل أفق فلا ألقـــى بمسرحـــه سواك
أصافح فيــك أفراحـــى فأشدو ويسرى بالصدى عذبــا رضاك
وفى شفتيـــك معـــزاف نغوم وصيدحـــه المغـــرد ناظراك

وأنا لا أنكر فى هذه الابيات تسلسلا موسيقيا تطرب له الاذن ، وترتاح له النفس لأول وهلة ، وهذه ميزة من ميزات الشاعر الزمخشرى التى لامرية فيها ، فشعره جميعه يهمس بأحلى النغمات ، ولكن المعنى فى هذه الابيات شاحب سقيم ان لم يكن مشوشا ، واذا كنا استطعنا ان نتقبل معنى البيت الاول ، وهو متداول لدى الشعراء معروف ، فاننا لانستطيع ان نهضم البيت

الثانى والثالث .

وأنا لا أحب أن أقرر أن الموسيقى عند الزمخشرى هى نوع من ذر الرماد فى العيون ، يصول بعدها الشاعر ويجول ، على هواه ، وكيفما شاء له خياله .

والذى يبدو لى بعد قراءة الديوان ، ان الشاعر الزمخشرى أسير لبعض الالفاظ يرصفها فى شعره رصفا ، ويقحمها عليه اقحاما ، ويدور عليها دورانا ، ان لم أقل انه ملأ بها الثغرات كلما لاح له ثقب فى بنيانه الشعرى .

فما أكثر ما فى الديوان من ألفاظ مكرورة معادة ، تجعل الكثير من شعره يتسم بالتشابه والفتور والرتابة ، وتجعل قليله يغنى عن كثيره ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الصدى ، والتباشير ، والمعزاف ، والبشاشات ، والمناغم ، والتصفيق الخ . حتى ان شعر الزمخشرى يعرف صاحبه للوهلة الاولى من هذه السمات المميزة التى تشير اليه ، ولا تدل الا عليه :

والتباشـــير له أغنية والصـــدى العـــذب يدوى فى الرحاب

تترامـــى على صداه التباشير وتنســـاب فتنـــة فى الدروب

★★★

والبشاشـــات التـــى كنـت بها أعبر الـــدرب فتشـــدو خفقاتى
وبأفوافـــه الفتـــون بشاشات تهـــادى بهـــا دلالا وعجبا

★★★

والشذا ناعـــم المعـــارف شدوا فى ظلال السنا الضحوك الفريد
والشباب الريان معزفه ألحانى وأوتـــاره نيـــاط القلوب

ويعجبه تعبير (همس الجفون) وهو عنوان ديوان لميخائيل نعيمة فيكرره فى شعره مرات ، دون أن يضعه فى مكانه الملائم :

احتسى (الخمر) من مراشفك الحمر
فتشدو المنى بهمس الجفون
وبهمس الجفون أصدح بالنجوى
ليسرى الصدى الى أذنيك

ولو رحت استقصى الالفاظ المكرورة لنقلت اكثر الديوان ...

والغريب ان هذه الالفاظ المسيطرة على لسان الشاعر وذهنه تظهر فى شعره فاقعة اللون ، ناتئة كالبثور التى تشوه الوجه ، وهى لاترتبط بقصائده بروابط عضوية متينة ، منبثقة عن الطبيعة الحية ، بل تبدو وكأنها أزهار اصطناعية ملصقة على فروع خضراء اللون .

ولو استطاع الشاعر الزمخشرى أن يتخلص من عشق هذه الالفاظ ، ومن تكرار تلك الصور الرتيبة ، وكان أكثر ابتكارا وايجازا لكان لنا منه شاعر غنائى رقيق من الدرجة الاولى ، فالشعر ـ كما يقول (فرلين) ـ موسيقى قبل كل شيء .

وشعر الزمخشرى حقا يهمس بأصفى الالحان ...

مع خليل رامز سركيس

فى كتابيه « من لاشىء » و « أيام السماء »

لعل من أخصب الكتب التى طالعتها فى الآونه الاخيرة ومن امتعها كتابا الأستاذ خليل رامز سركيس : «من لاشىء» و «ايام السما» .

لقد تذكرت البحر وانا افرغ من مطالعتهما ، تذكرت البحر بما فيه من عمق وصفاء واتساع ، وما فيه ايضا من امواج يأخذ بعضها برقاب بعض ، فما تكاد تفنى على الشاطىء موجة ، حتى تعقبها موجة اخرى ، وهكذا دواليك .

ان فى كتابى خليل سركيس شيئا يحمل القارىء حملا على التفكير والتروى والاناة ، ويجعل ذهنه متيقظا متفتحا ، حتى ليضطر فى اغلب الاحيان ان ينصرف عن الكتاب بعض الوقت ، ويستأنف الحوار مع اعماق ذاته ، أو مع اسرار الكون ومشاكل الحياة .

ولو لم يكن للمؤلف غير هذه المزية ، على وفرة ماله من مزايا ـ لكفاه فضلا فى عالم الادب وآفاق الفكر . حسبه انه الكاتب الذى استطاع ان يثير فينا التفكير ، ويجعلنا نقرأ فى استمتاع ، على مهل .

وميزة اخرى للاستاذ سركيس هى اننا ازاء فنان ماهر ينحت أسلوبه بيديه ، وينفخ فيه من روحه ، حتى لتكاد تجد على كتابته انطباعه انامله ، ودفء انفاسه فلا حشو ، ولا فضول ، ولا لف ولا دوران ؛ وانما وضع الكلمة فى مكانها حتى لتراها متربعة فى أبهـة واطمئنان ، فلا يقدر احد على تبديلها أو زحزحتها ؛ كل ذلك فى وضوح شفاف ، وايجاز مترع بالتعبير ، وعمق خافق بالحياة ، ودقة نادرة النظير ، حتى ليخيل الينا ان المؤلف يزن الفاظه بميزان حساس وكأنه يزن اللؤلؤ .

وميزة ثالثة للاستاذ سركيس ، هى هذا القلب الكبير الذى تتدفق منه المحبة ، كما تتدفق الينابيع الثرة من الجبل الاشم ، فتسقى السهل والوعر والشوك والزهر ، ولايهمها فى كل ذلك الا ان تكون كف عطاء وفيض نماء .

ففى (من لاشىء) و (أيام السماء) ومضات خلابة رائعة ، تسكب العزاء فى نفوس المعذبين على الارض ، وفيهما اجوبة على مشاكل ابدية هى ، على ايجازها ، مفعمة بالحكمة والخير والحق والجمال .

فما احوجنا فى هذه الحقبة التى طغت المادة فيها ، وشاع الحقد ، وران التعصب الى مثل هذه الانامل الخيرة التى تبذر ، فى كل درب ، المحبة والسلام والتسامح ، وتحث على الايمان بالمثل العليا ، والاخلاص لها ، وتنقل الى ارضنا الجدبية ، بعض ايام السماء الخصيبة .

وبعد ، ليس من السهل الكشف عما جاء فى (من لاشىء) و (ايام السماء) ، اذ ليس هما قصة فتلخص ، ولا نظرة فلسفية واحدة فتوجز . فالكتابان غايتهما قبل كل شىء تمجيد الانسان واعلاء شأنه ، وهما مزروعان بالافكار الحية النيرة التى تساهم فى ازالة العراقيل من طريق هذا الانسان ، وبعث مافيه من امكانات غنية كامنة ، حتى يصبح الكون أفضل مما هو .

ولا بأس ان انقل من ذلك البحر بعض القطرات يذكر الاستاذ سركيس الغاية من كتابه (ايام السماء) فيقول : «وما الغاية ههنا الا الاستماع لصوت امرىء يفكر ويشعر ويألم ، على ان شأنه شأن من لايفضى به الالم الى الخيبة والانهزام ، بل يحثه على ابلاغ الكلمة واسماع الصوت» .

وهو يحاول ككل كاتب ومؤلف مؤمن بالانسان ، مخلص فى قرارة ذاته لرسالته ، ان يبصر الشعوب بالشرور التى تهدد مستقبلها ، والكوارث التى تنتظرها ، حتى يؤمن للانسان تفتحه وازدهاره وسموه على الارض .

ويتعرض الكاتب لآفة اجتماعية خطيرة تشل تقدم الانسان وتفتح مواهبه وملكاته ، الا وهى العوز ، فيرى ان المساعدة ليست هى الطريق الصحيح لمعالجته فيقول (وهل ثمة امر اشد امتهانا للبؤس ، واكثر تعاميا عن علله ونتائجه ، من اشفاقنا على ذوية دون معالجتنا لاسبابه معالجة جذرية بناءة ؟) ثم يصرخ بملء فيه : (ليس عطاء ان نشعر من نعطيه بأننا قد اخذنا منه ، من نفسه ، من كرامته ، أضعاف مامنحناه من مالنا او مال سوانا) .

الى ان يقول : ثم ان نغمط حق اخينا من الحياة الحرة الكريمة وقد اوصينا بحبه كأنفسنا ، لسنا أقل تبعة منا مقصرين عن انقاذه من الغرق مثلا)

ثم يتحدث الكاتب عن غاية العطاء ، فيرى ان العطاء ليس انبل غاياته امتلاك من نصنع اليه ، بل غايته الجلى هى اتاحة الفرصة لمن نهب له حتى يتحرر ، وهكذا نعتقه من البؤس دون ان نسترقه بالعطاء .

ويمثل هذه النظرات الخيرة ، التى تنبع من قلب كبير ، يستمر الكاتب فى معالجته مشكلات الانسان ليرفع عنه القيود والاغلال ، وليعيد الى وجهه نضارة الانسان الحق ، وليجعله يمارس انسانيته التى خلق من اجلها .

وفى فصل (فى مستوى الانسان) يستهل الكاتب بهذا السؤال الواعى كيف أكون انسانا ، كيف انشىء حياتى ، كيف أغنيها ؟

ويتحدث عن عظمة الانسان فيقول : (عظمة الانسان ـ اولا ـ فى داخله . لا مصير فى خارج الانسان وعندئذ فأنى للمصير ان يتحكم ؟ ان مايسمى تحكم المصير ليس فى الأرجح الا عذر الوانى الجبان ليسوغ تقصيره عن ان يطل من الداخل ـ داخله ـ على عمق حياته) .

ويتحدث عن الموت حديثا مشبعا بالسمو ، فيقول : (وما الموت الا الساعة التى تتعطل فيها هذه الوحدة . فيتلاشى الجسد وتنحل مادته ، غير ان مهمة الروح هى ان تواظب ، بعد تلاشى الجسد ، على تحقيق الوحدة التى كان الجسد يشارك فى تحقيقها وهو حى . وذلك بان تتخذ الروح عمر اتحادها بالجسد سبيلا كى تدخل الزمان دخولا مؤبدا ، فلا تكون الحياة حدها الموت ، بل تكون استمرارا لعمل الروح التى كانت تحرك الجسد) .

ويتحدث المؤلف عن العافية فيجد لها تعريفا جديدا ينبض بالشاعرية ، فيقول : (اذا كانت العافية هى سكوت الجسد ، فالاصح ان يقال ان العافية فى سكوت الجسد ليكون اوفى استماعا لنبض الحياة) .

ثم ينتقل الكاتب الى الثقافة ، فيتغلغل فى الموضوع تغلغلا صميما ويعرف الثقافة تعريفا صحيحا ، فيقول : (الثقافة لاتحفظنا بل تفهمنا . والثقافة

لاتدربنا على العمل ، بل تعلمنا احترام العمل ، وتدلنا على نهج ابداعه ، ثم تذكى حبنا للكائنات على تنوعها : من العشبة ، الى الشجرة الى العصفور ، ومن الكتاب الى تحفة الفن الى الاكتشاف العلمى ، ومن قلب الطفل ، الى وفاء الصديق الى سلام الامم) .

والمثقف الحق ، فى نظر خليل سركيس ، هو من يسهم مع الطبيعة فى اشاعة الحق والجمال فيقول فى ذلك : (وكما ان المودة قد تولد الحب ، كذلك الثقافة تحبك بيننا وبين الكائنات وشائج حب عريق . فالمثقف يرى الى مافى الكون من حق وجمال ، فيلبى الدعوة الى اشاعة الحق والجمال) .

وليست الثقافة ، فى رأى كاتبنا ، حشد معرفة ، وجمع معلومات ، وانما هى وسيلة لرفع مستوى ذلك الانسان الذى احاط بتلك المعرفة ، ليس المثقف من يفوق غيره حيازة اشياء ، انما هو من يفضلهم كينونة بها .

بمثل هذا الاسلوب المضىء المركز ، المشبع بالمثل العليا ، يمضى كاتبنا الكبير فى تأدية رسالة الحق والخير والجمال .

ومانقلت هنا الا بعض الشذرات التى قد لاتكشف جيدا عن كل مافى كتاب خليل رامز سركيس .

ولكنها تدل دلالة اكيدة على مافى ذلك المنجم من ثروة .

أرضنا الجديدة

لخليل رامز سركيس

يعجبني من الاستاذ خليل رامز سركيس اسلوبه فى معالجة مشاكل الكون والحياة .

فهو على بعد غوره واضح كالشمس فى رأد الضحى ، وهو على تركيزه لا أثر فيه للكد والجهد تراه يغوص فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ويصارع انواء عاصفة ، ويظل بعد كل ذلك شفافا ..

له دقة الاسلوب العلمي وبيانه ، ولكن ليس له جفافه وجفوته ، فهو ذو نعومة حريرية ، ورشاقة متناهية .

خليل رامز سركيس دائم التوق الى السمو ، شيمة النفس الخيرة الواعية ، كثير الايمان بالانسان ، لذلك تهب من قلمه نسمات محييه أشبه بنفحات الربيع .

آلمه الواقع المرير الذى يضطرب فيه أغلب الناس ، فى تفاهة وسطحية وتمزق ، فحاول فى (لا شىء) و (أيام السماء) أن يشق دربا نحو النجوم ، وهو فى كتابه الحديث (أرضنا الجديدة) يتابع سيره فى ذلك الدرب الصاعد ليعيد الى البشرية المعذبة وجهها المضىء .

وهو فى كل مايكتب يسعى ان ينفض الغبار عن طاقات الانسان ، ويزيل من طريق تقدمه العراقيل ، ليجعله اكثر عافية وابداعا ، وافسح رجاء ، وبالتالى اقدر على ممارسة انسانيته .

ولئن كان كثير التطلع الى السماء ، فما لرغبة منه فى النأى عن الارض ، ولا حبا فى الجرى وراء المغيبات ، وانما ليضيف الى الارض الطيبة عنصرا خصباً به تنتعش وتزدهر .

فهو فى (أرضنا الجديدة) يحث فى اصرار وايمان ، على التحديق الى كل شىء : الى اعماق النفس البشرية ، والى اسرار الكون الخفية ، على السواء . فالانسان فلذة من الكون الذى فيه يعيش ذرة مفكرة ، ولذلك كان عليه ان يكون بينه وبين ذلك الكون وشائج حميمة من اخذ وعطاء ، فاذا عنه انفصل كان كالورقة الهاوية من امها الشجرة لاتلبث ان تذوى فتموت . والكون هذا العالم العجيب بسحره الذى لايحد ، وكنوزه التى لاتنفد ، فارغ لا جدوى فيه ولاقيم ، مالم يمد اليه الانسان عينه وفكره ويده .

وحين ينهد اليه يفجر طاقاته ، ويكشف عن دفائنه ، ويستخرج نفائسه ، ويعانيه معاناة صميمة ، يزداد به الكون غنى ، كما يزداد هو بالكون سعة ، ورفعة شأن وسمو مصير .

« ألسنا من انفسنا فى برج تأمل ، ومن الكون على ارض اختبار . نحن لانكون مالم نعان الكون ، وقد تأثرنا منه واثرنا فيه . والا فنحن فى غربة منه ، وكأنا عن انفسنا مغتربون ليس الكون عندنا بالحدث الطارىء ، والظاهر الدخيل ، بل هو من وجودنا فى منتهى الصميم ، فاذا تعمقنا فيه أصبنا غاية المعرفة فحققنا أنفسنا ، واياها رأينا ، فيما نحن ناظرون .. »

فالمعرفة ، والطموح ، والعمل ، هى العناصر الثلاثة التى تقودنا الى الارض الجديدة المتشهاة .

واذا كان التأمل فى الذات والموضوع يمدنا بالمعرفة والوعى ، فهو يمدنا ايضا بالقلق الذى يزداد كلما نما وعينا .

« القلق يزيد مازاد وعينا وتشعبت أسبابه . القلق فى الوجود قديم كالوجود عينه ، بيد ان البشر لم يكونوا يوما اعظم قلقا منهم فى هذا العصر .

القلق الوجودى المعاصر يعترى جذورنا حتى الاعماق ، وكأن ثمة ما يهددنا كل حين ...» ولكن هل يستطيع هذا القلق الجارف ان يدمر كيان الانسان المؤمن بالغد البهى ، أو على الاقل هل يستطيع ان يثبط عن عزمه على بلوغ غايته النبيلة المرجوة ؟

كلا : (فإن فى الكون من خلال ملايين الخلائق ، والوف الوف السنين ، نظاما يسير بالبشر الى الامام والى فوق على قصد معا ، وان تحت السماء كثيرا كثيرا من الجديد الطالع ، وان اكتشاف الجديد عمل يستمـر مادامـت الحياة ...)

فلامبرر للخوف اذا ، ولا داعى للقنوط ، وما على البشر الا ان يشمروا عن ساعد الجد ، لاكتشاف العوالم المجهولة الكثيرة ، وتفجير الطاقات الدفينة الهائلة ، وان يتعاونوا على البناء والابداع والخلق .

وكل فرد من البشر مسئول عن المساهمة فى العمل لرفعة الجنس البشرى ، فالانسان لم يعد يعيش لنفسه ، وفى تخوم بلده فحسب ، بل اضحى صوته يدوى فى ارجاء الارض النائية . ولذا كانت وحدة الانسانية هدفا ينبغى ان يتجه لتحقيقه ، لانه (لزوم حيوى لسلامة الكون واستمراره) .

ولاشك ان الطريق طويلة ، وان صعابا عديدة قد تعترض سبيلنا ، ولكن هذه الصعاب هى التى تشحذ مواهبنا ، وتكشف عن طاقاتنا الكامنة ، وتجعلنا نستمتع بممارستها : « لسنا نبغى المعرفة ، وبالتالى لسنا نطلب العلم لنزيد معرفة وحسب ، بل كى نزداد وجودا على الخصوص . فكم تحدثنا الحياة بمشكلات اذكت فينا روح الخلق ، فابتكرنا لها حلا ... »

ولبلوغ هذه الارض الجديدة المؤملة ، لابد ان ننمى فى حنايانا عنصر الحب ، ونشيح بوجهنا عن كل الفوارق والاحقاد ، ونؤمن ان الانسانية جميعها اسرة واحدة ، ذات جوهر واحد ، غايتها تحقيق وجودها الاكمل ، وكيانها الامثل فى جو من الوئام والسلام : (فلاشىء يعدل الحب جامعا مشتركا بين نفسين بل بين انفس الى بيت واحد ، فبلد واحد ، فوطن واحد ، بل بين اهل الارض اجمعين)

ولابد ايضا من تآزر جميع القوى الخيرة لاخصاب هذه الارض ، فتعاون المادة والروح ، وتضافر العلم والدين ، ضرورى لتكون تربة تلك الارض صالحة لنمو الانسان الكامل . واذا كان بعض الماديين يرون ان الدين لاينسجم مع العلم ، فإن خليل رامز سركيس يرى ان الدين يكمل العلم ، كما يكمل العلم الدين ، لرفع مستوى الانسان : (الصراع بين الدين والعلم امر ، فى المعرفة

قديم الا انه قد جعل يتحول من مرحلة السلب الى طور الايجاب . اذ تبين ان ليس لكليهما غنى عن الآخر . فالعلم لايجاوز نفسه ، سموا واطراد رقى ، ما لم يؤمن بكون جل مافيه ذا غاية معينة . والعلم ، مؤلفا الطاقة فى وحدة عاملة يفضى – على مايرجى – الى وحدة نهائية عاملة من اجل العالم .

الدين والعلم اذا ، فعل معرفة مشترك يحقق غاية واحدة : الوجود .

فى عالمنا المدجج لا خلاص لنا مالم نر عمل الله فى الخليقة ، وما لم نر الله فى حقيقة العالم) . هذه بعض آفاق الارض الجديدة التى يطمح الى وجودها خليل رامز سركيس ، وكل مصلح فى هذه المعمورة ، محب لخير الانسانية وتقدمها .

فما احوجنا جميعا فى هذا العصر النزق ، المحموم ، الى مثل هذه الافكار النيرة الهادئة ، التى تجمع بين بنى البشر على صعيد المحبة ، والتأمل المثمر ، والابداع الخلاق .

وما احوجنا ايضا الى قلم متميز نضير ، مثل قلم خليل رامز سركيس ، ليوقظ مشاعرنا النبيلة ، ويذكى فينا مواهبنا الاصيلة ، فنصنع للانسان غدا بهيا يليق بكرامته وسموه .

مع خليل رامز سركيس في

« مصـــــــير »

« انسان اخ لكل طالب حقيقة »

أهم موضوع عند خليل رامز سركيس هو الانسان . اليه دائما يتجه فكره ، وعليه غالبا يدور حواره . الانسان ، هذا الجرم الصغير الذى فيه انطوى العالم الاكبر .

ففى « ايام السماء » وبعده فى « ارضنا الجديدة » واليوم فى كتابه الاخير « مصـــــير » منشورات الندوة اللبنانية ، لم يكف المؤلف عن التصدى لمشاكل الانسان ، واقتراح حلول لها ، ولم يفتأ يذكره بالمخاطر التى تنتظره على دربه كى لايتردى ، ولم ينفك يوقظ فيه الطاقات المبدعة الخيرة ، كى يبلغ الهدف الاسمى .

تلفت خليل رامز سركيس ، فيا لهول ما رأى ! رأى الارض بركانا والنهار ليلا ، والامم سلاحا ، ووجد المسرة لا ظل لها ، والسلام فى حالة احتضار . جيل ضائع غير مبال ، اعمته المادة ، ومزقه القلق ، وغلفت قلبه الشهوات ، فهو لايتطلع الى الجلى ، ولايرتفع فوق ذاته ، يسير ولايعرف لماذا يسير ، ويتحرك وكأنه فى غمرة من الحلم .

الكلمـــة المضيئـــة الهاديـــة

ايقف الخليل مكتوف اليدين ، وهو من النخبة الواعية ، المسؤولة ازاء مايتهدد جيله من كوارث !

ايسكت وقد غدت الانسانية على شفا هاوية ؟

((لا !))

لابد ، على الاقل ، من بث الكلمة الهادية ، المضيئة ، وذلك اضعف الايمان . فلم يسعه الا ان يهتف فى مرارة وسخط ملء حنجرته . (جيلنا اليوم اخرس ، غير ناطق على مابه من صخب وضجيج . لا صوت . لاحراك لا شعر فى عصرنا . عصرنا كله نثر . قصائدنا ابيات . ابياتنا حطام ، كلنا اليوم حطام . البندقية أردت العصفور الذى فينا ، الا انها لم تستطيع ان تقضى على سجية التغريد ...)

لا داعى اذن للقنوط ، ولا يأس مع الحياة ، فان خيوط النور تغالب الغياهب ، ومجال العمل رحب ومفتوح امام الجميع ، فلا عذر لمتقاعس ولا لمتشائم : (وجيلنا قد انتصف ليله او يكاد ولعله الى الشمس ادنى مما يحسبون . بين جيلنا وبينى موعد حب فى عهد حياة)

ســـر ســـــقوط جيــــل

والمؤلف الذى يتطلع دائما الى فوق ، لا يلبث ان يبوح بسر تحطم هذا الجيل : (بالسماء لم يحلم جيلنا بعد .) ولم يكتب خليل «مصير» الا ليدله على تلك السماء التى هى وثيقة الصلة بالارض .

«مصير» قصة انسان ممتاز . انسان الغد المرتجى الذى يأنف ان يعيش على هامش الحياة ، بل يزمع على ان يشق طريقه الى القمة ، بيديه القويتين اللتين لا تسأمان العمل الدائب .

مغامـــــر كبــــــير

انسان «مصير» لايؤثر الدعة ولايركن الى اللامبالاة ، وانما هو مغامر كبير فى سبيل اهداف عليا يأبى الا ان يصارع امواج الحياة المتلاطمة ، ليجتث اصول

القبح والشر ، وينمى معانى الحب والخير ، حتى يحقق أنسانيته الكاملة ، بكل مافيها من طاقة وأبداع .

وهو متحرر الذهن ، طموح النفس ، أريحى القلب ، يحب الانفتاح على كل اتجاه ، لان فى ذلك تجديدا لافاقه ، واستخلاصاً لطاقات الخير والجمال التى لاتنفد ، وهو ، على سعيه الى تجارب خاصة ذاتية ، لا يستهين بتجارب الاخرين ، بل يجد فيها اغناء لذاته ، وانماء لكيانه ، وهو اخ لكل طالب حقيقة ، وان لم يكن على مذهبه ، لان « المعرفة لاتقدم لها يذكر لولا الصراع» .

العناصر الحيوية الثلاثة

الايمان ، المعرفة ، الحب ، هى العناصر الثلاثة التى لايستطيع ان يستغنى عنها انسان خليل رامز سركيس ، وهو يقوم فى هذا العالم بمغامرته الكبرى ، الا وهى تحقيق مصير الانسان الخير ، المبدع ، الذى يطمح دائما الى فوق والى امام .

وكل بناء يشاد وهو خلو من هذه العناصر الرفيعة ، بناء مشوه ، اساسه على رمل ، ومصيره الى انهيار .

فالايمان يصل بين الانسان وخالقه ، بين الارض والسماء ، فاذا (نهاية الازمنة ليست نهاية العالم ولانهاية التاريخ ، بل هى مطل على مدى للعالم جديد) .

وبالايمان وحده تصبح (نهاية الازمنة ليست فناء العالم ، بل هى غاية الخطو نحو الاكتمال) .

ولكن الايمان ليس فقط صلة بين الخالق والناطق ، بل (الاولى ان يقال انه صلة ذاتية وموضوعية بين الانسان والانسان ، زيادة على كونه صله دينية عالمية — خاصة وعامة — بين الاله والبشر أفرادا وجموعا .)

والمعرفة تنبه الى مالوجود الانسان من غايات سامية ، وتعرفه بحقوق الاخرين فيراعيها برغم مافيها من تداخل وتشابك ، كما انها الطريق الوحيدة

الى العمل الواعى المثمر .

الا انها بحر لجى لا ساحل له ولا غور ، ولكن الايغال فيه يزيد من عظمة الانسان : (انى اطمح الى فريد امعان فى ابجديتى ، فاتقرى معناها قبل ان يكون وبعد ان يكون . لكم شعرت بأنى دوام المغامرة فى مالايدرك عمقه ! لكم شعرت بان ما اروم يتأبى على كلما اوغلت فيه ! هذه مأساتى وعظمتى فى يوم معا ، مأساة المغامر وعظمة المصير) .

والحب ، وهو توأم الايمان والعقل ، يزيل الفوارق بين البشر على اختلاف اوطانهم ، ويقوى التآزر والتعاطف بينهم ، وهو يرعى الاجنحة الضعيفة لتنطلق وتحلق فى الاجواء العالية ، ويقضى على اسباب الحروب ، ويطلع فى حقول الحياة ازهار السلام ، وهو يبشر بالرفق ، ويعالج الانحراف بغير عنف : (مهما كابدت مغامرتى من مشاق طلب المعرفة سعيا لما اعتقد انه الحق فلن اتخلى عما لايتجزأ من كيانى : شرعة الحب) .

مصـــير مثالـــى واقعــى

وبعد ، فان انسان « مصير » انسان مثالى واقعى يجمع بين الروح والمادة ، بين الايمان والعقل ، بين الدين والعلم ، بين الحب والاصلاح ، وهو فى كل اعماله وحركاته لايسير الا على هدى الشيم الشهمة : (ذلك ان بالمغامر المؤمن اصالة معرفة تأبى ارتجالا ، واصالة حق يأبى ان يحول العدل الى ظلم وانتقام ، فضلا عن اصالة طموح يأبى الطمع ، واصالة خلق يأبى تسخير القيم لقسر واذلال) .

ورسالـــة واعيـــة

خليل رامز سركيس ، فى مايكتب ، لايحرك قلمه ليسجل خلجة عابرة ، ولا ليبدى فنا من فنون براعته ، بل ليؤدى رسالة حيوية واعية ، آمن بها قلبه . واقتنع بها فكره ، ليرفع من شأن الانسان ويعيد اليه نضارته .

فقلمه نظير مبضع الجراح الحاذق ، يستأصل الاورام الطارئة والخلايا المهترئة ، فى رفق وحب واتزان ، ليترك للخلايا الحية مجالا لنمو طبيعى مشبع بالعافية .

ورغم ان هذا الكاتب يهمه الفكر وصدق الاداء قبل كل شيء فان اسلوبه المضىء نسيج وحده فى الرشاقة والدقة والاشراق .

لست ازعم انى وفيت الكتاب حقه فى هذه العجالة ، فالبحر لايختصر فى قطره ، والروض لاينقل فى زهره . ففى كل صفحة من صفحاته مجال رحب للتأمل والتدبر والتفكير .

ولاريب ان القارىء المتأنى سيخرج منه وهو اكثر حبا للبشر وأوفر فهما للحياة واقوى ايمانا بالغايات السامية ، وسيجد نفسه اعظم ثروة مما كانت عليه قبل قراءته .

حسب هذا الكتاب انه يفتح امام الانسان افاقا رحبة ، فيها جدة . وفيها عمق ، ملاى بالحب والامل والعمل ، ليرتفع هو فوق ذاته .

وحسبه ايضا انه ينأى به عن الهاوية التى تفغر شدقيها فى وجهه . هاوية التمزق والضياع واللامبالاة .

جعيتا

جعيتا ، هذه المغارة اللبنانية .

الحافلة بعجائب الطبيعة ، حيث المياه المتدفقة ، والفرحة المتهللة ، والتماثيل الحانية ، وحيث كل شيء فى سلام ، وعلى وئام وتواصل . جعيتا هذه هى التى اوحت لخليل رامز سركيس بهذا الكتاب .

هذا الانسجام الجميل فى هذه البقعة الساحرة ايقظ فى الكاتب قلق التساؤل ، فشرع ينفض عن الاشياء الغبار لتعود اكثر جدة ، وانصع بريقا ، وادنى الى حقيقتها الصافية .

ولولاها (هى) ، زوجته ، لما انبثقت من ذاته هذه الطاقة الخلاقة ، فالحب هو الذى يصنع المعجزات ، والمرأة هى التى تلهم ، وتنير غياهب الكون ، وترفع عن العيون كل الاغشية الصفيقة حتى ليبدو كل شيء جديدا جديدا (لولاك لم أر فى جعيتا ماقد رأيت وما انا فيه على ازدياد ، كل الاشياء عندما تخرج من بين شفتيك تبدو ايام ابتكار .. كل العالم بكر مادمت فيه اليك ..)

وفى الحقيقة فان مغارة جعيتا ، لم تكن الا نقطة ارتكاز لافكار المؤلف تنطلق منها ثم تعود اليها لتستريح ريثما تنطلق ثانية ، كما يطير العصفور من الشجرة الوارفة ليحلق ثم يرجع الى مقره بين عذوبة الظل ، ونضرة الاغصان .

انه يحلم بغد امثل وبعالم جديد ، طالما تمناه قبله الفلاسفة والمصلحون ، يمارس فيه المرء انسانيته الكاملة دون ضغط ولا اكراه ، وفى حرية صحيحة ، فتتفتح مواهبه الكامنة ، وتنشط طاقاته المبدعة ، ويساهم فى بناء الكون البهى : (ان جعيتا لتعانى كثرة اشياء ينبغى تحديدها ، وكثرة اشياء ينبغى الكشف عنها ، وكثرة اشياء ينبغى ابتداعها أى ابتداع ..)

فليس «جعيتا» اذن كتابا يبحث فى جغرافية المكان ، وليس دليلا للسياحة ، وانما هو رحلة من رحلات الافكار التى لاتهدأ عند صاحبها فى الليل ولا فى النهار ، هدفها الاول رأس النبع ، الانسان .

«جعيتا» محطة شعرية للتفكير ، للتأمل ، للحب ، للايمان ، لاكتناه معانى الوجود لجعل حياة الانسان على هذه البسيطة اعمق وارحب ، واعلى وأخصب :
(اريد ان اكتنه معانى وجودى ، وان اكتنه معانى سواى ، فلا اكون فى عمه طوال الحياة ...)

لكن محاولة الاكتناه هذه ليست بالسهلة ، فهى تحتاج الى الصبر الطويل ، والجهد المرهق ، فعليه ان يتسلق الاشجار ، ويستنطق الاصداف ، ويضرب فى المغاور ، ويغوص فى الآبار ، دون خوف ولا وجل ، ودون سأم ولا كلل ، حتى يصل الى مبتغاه ؛ ولكن هل وعورة الطريقة هذه تفت فى عضده ، أو تثبط من عزيمته ، كلا ، انه يمضى قدما الى غايته فى عزم واصرار مهما كانت النتائج ، وانه ليجد فى هذا الصراع ، وفى تحمل تبعاته لذة كبرى ، لان عمله هذا يقترن دائما بالحب : (لانى بالحب أجبل كل شىء من اشياء العمر .. انى اهيم بكل ما اعمل ، وما لا اهيم به لا اعمل ..)

«جعيتا» حوار فكرى بين (هو) و (هى) يتناول الاشياء والافكار ، والقيم ، فيرفع عنها الاغطية التى اسدلها الجهل والبغض ، والالحاد ، ويضفى عليها لونا بكرا فيه براءة الطفولة ، وعذوبة الانسانية ، وجود النفوس الكبيرة :
(مهمة جعيتا ان تمسح التناقض ، وترأب ما انقطع من اسباب التواصل ..
جعيتا ثورة حياة تنبعث فى الوجدان لكى تنقذ الارض من آفات العطش ...

بقى ان نقول كلمة فى اسلوب خليل رامز سركيس فهو الاسلوب المنقى المصفى ، البرىء من الشوائب والفضول ؛ يتصرف الكاتب بالعبارة تصرف الماهر القادر ، المتمكن من زمام لغته ، فهو يملكها ولا تملكه ، واذا وجد فى اسلوبه احيانا بعض الغموض فليس ذلك لعجز فى التعبير ، وانما لبعد فى آفاق التفكير ؛ فما كل قارىء يدرك كنه رموزه ، او يستطيع الارتفاع معه الى تلك الاجواء العالية ، او الغوص معه فى تلك الاغوار النائية ، مالم يكن قوى الجناح ، مديد الانفاس ، مزودا بالثقافة الحق .

انه يكتب لمن يقرأ على مهل ، ويتابع حركات الافكار فى لهفة ، ويتذوق صفاء العبارة فى لذة ، انه يكتب قبل كل شىء ليوقظ فى القارىء مزيدا من قلق التساؤل والوعى . والعمل .

حبيبتي

شعر نزار قباني

لقد كنت انتظر بتشوق ولهفة وصول (حبيبتى) ، الديوان الجديد للشاعر نزار قبانى .

فقد كتبت عنه الصحف كثيرا ، واشادت به ، واثنت عليه الثناء المستطاب ، ولكنى مع الاسف الشديد ، لم اجد فيه ماكنت اتوقع ، أو بعض ماسمعت ، أو بمعنى اصح لم اجد فيه شعرا يتناسب مع تلك الدعاية الواسعة التى بثت حوله . ويبدو لى ان تقييم الآثار اصبح اليوم فى ايدى الصحف السطحية العابرة ، ولم يعد بين الايدى الأمينة الخبيرة التى لاتتأثر الا بما فى الاثر الفنى من جمال ، مهما بلغ صاحبه من امتداد الشهرة ، وذيوع الصيت .

وانا لا أنكر على نزار قبانى شاعريته ، فنزار شاعر حتى رؤس انامله ، فقد قرأت له قصائد عامره ، مشبعة بالصدق نابضة بالدفء والحياة انتزعها من صميم وجدانه وقلبه ، وجعل صورها الابكار تختلج على الورق وتتحرك فى أبهة وخيلاء وبهاء .

ونزار لم نعرفه فى يوم من الايام ، شاعرا متكلفا يقول غير مايحس ، وانما هو شاعر اصيل يفيض ببساطة وعذوبة ونغم .

قد لا يعجب بعض الناس شعر نزار القبانى ، ويرون فيه معرضا لتجميل المرأة ، فأكثر شعره منصرف الى وصف المرأة ، وصف ادوات زينتها ، وستائر غرفتها ، وقوارير عطرها ، والوان (فساتينها) ، وكيفية ارتدائها ملابسها ، وكيفية خلعها لها ، الى آخر هذه الاشياء الصغيرة التافهة التى تداعب احلام المراهقين ، وتستثير الشهوة فى غرائزهم الملتهبة .

ولكن الفن فى رأيى شىء ، والاخلاق شىء آخر . والفن ، قبل كل شىء غايته التعبير بدقة وصدق وجمال ، ولايؤبه لما ينجم عن ذلك من خير او شر ، وللشاعر او الفنان كل الحرية فى التعبير عن خلجات وجدانه ، ومشاعر قلبه ، مادام يقدم ذلك كله فى اطار مشبع بالجمال .

ومما لاشك فيه ان اصغاء الشاعر للاحاسيس الرفيعة ، وتعبيره عن المشاعر البناءة يخلع على شعره هالة من السمو ، ويمده بطاقة اكبر من الجمال والفتنة ، لان فى المشاعر النبيلة السامية سحرا يضاف الى سحر التعبير ، فيضم الشاعر ، آنذاك الجمال من طرفيه ، ويغدو الشعر رائعا وبناء فى وقت واحد ، وبذلك يتم جماله كما يتم حسن الوجه بحسن الاخلاق فى الانسان .

ومهما يكن من شىء ، فاننا لانستطيع ان ننكر ان نزار قبانى وهو شاعر من شعراء الادب المكشوف ، قد استطاع ، فى بعض شعره ، ان يزرع الجمال فى تلك الاشياء الصغيرة ، بما لديه من قدره خصبة ، وبما تنطوى عليه نفسه من صدق وتوهج وموهبة ..

ولكن ببغاوية الشعر الحديث ادركته فى ديوانه ، الجديد (حبيبتى) فاذا به ينق احيانا كالضفادع على حواف الترع فى الليالى القمراء . والا ما معنى هذا الشعر فى قصيدته (اكبر من كل الكلمات) :

سيدتى
فى هذا الدفتر
تجدين الوف الكلمات
الابيض منها
والاحمر
الازرق منها
والاصفر
لكنك ياقمرى الاخضر
أحلى من كل الكلمات

أكبر
من كل الكلمات

أو فى قصيدته (**خطاب من حبيبتى**) :

هذا خطاب منك
ما اخطأنى شعورى
عرفته
من خطك المنمنم الصغير
من حبرك الاخضر .. من اسلوبك الامير
من رشة النقاط .. فى أواخر السطور
من اسمك النائم .. عنقودا من العبير
فى آخر الصفحة
عنقودا من العبير ..

أو فى قصيدته (**حبيبتى**) التى اتخذها عنوانا لديوانه :

حبيبتى
ان يسألوك عنى
يومـــــا
فلا تفكرى كثيرا
قولى لهم
بكل كبرياء
يحبنى
كثيرا ..

وينهى نزار هذه القصيدة العرجاء فيقول لافض فوه :

حبيبتى
يا الف يا حبيبتى
حبى لعينيك انا كبير
وسوف يبقى
دائمـــــا كبـــــــيرا ...

وانى ادعو انصار هذا النمط من الشعر الحديث ليدلونى على ماخفى من عبقرية فى هذه الاشعار الخرساء ، فقد تكون فى الزوايا خبايا لا تدركها كل العيون . واذا كنا نغفر لشاعر مبتدىء مثل هذا التعبير الفج القاحل ، فاننا لانغفر لنزار قبانى ، وهو الشاعر الذى طبق صيته ارجاء العالم العربى مثل هذا الشعر الا بكم الكسيح ، واننا فى سكوتنا عنه نجنى على الادب العربى ، ونجعله يسير فى دروب التفكك والانحلال .

لقد قلنا اكثر من مرة ان هذا النمط من الشعر الحديث يجنى على اصالة الشاعرية فى الشاعر ، ويجعله يركن الى السهولة واليسر ، وينأى به عن التركيز والتكثيف . هذا الشعر المقتبس عن (ايليوت) وامثاله قد يلائم طبيعة غير طبيعتنا ، وبيئة غير بيئتنا ، ولكنه لايزدهر فى تربة متوهجة كتربتنا ، فالعرب لم يعرفوا فى ادبهم المطمطه ومضغ اللبان ، وانما كان كلامهم حكما ، وايجازا مجنحا ، وكانت قصائدهم اشجارا تنوء بالاثمار .

ان نزار القبانى الذى عرفناه شاعرا يحمل الكلمة ثروته الحية فتنطلق كالسهم الى اجواز الفضاء ، نراه فى اغلب هذا الديوان يزحف على الثرى مثقلا بالقيود ، لقد تخلى عن شاعريته الفياضة الحلوة وجنح الى النثر الركيك ، واخذ ينظم الشؤون الصغيرة بذهنه وفكره ، لابعاطفته وقلبه :

شؤون صغيرة
تمر بها انت دون التفات
تساوى لدى حياتى
جميع حياتى

حوادث قد لاتثير اهتمامك
اعمر منها قصور
وأحيا عليها
شهور..

لقد سيطر على نزار حب الغرابة ، فراح ينفض السهل والوعر ، والسماء والبحر ، لم يترك بهار الهند ، ولا مزارع البن فى البرازيل ، ولم ينس سجاد شيراز ، ولا خزف الصين ، ولا مانجو افريقيا ولذلك جاء اكثر شعره حافلا بالصنعة والتكلف مما جعل بينه وبين القارىء جدارا كثيفا من الجليد لايخترق :

يقول فى قصيدتــــــه (**اوريانتيا**) :

أوريانتيا
تكونت من رغوة البحار
من نكهة المانجو
من الاصداف والمحار
من كل مافى الهند
من طيب
ومن بهار
أوريانتيا
نهدان واقفان
كقبتى نحاس
فى ذهب المغيب
صحنان صينيان
رائعان
قلعان من لهيب
تزودا من آسيا

بزهرتى غاردينيا
بعنبر
بفلفل
بطيب
وحبتى زبيب .

رحم الله احاديث جدتى التى كانت تقصها علينا فى سن الطفولة ففيها كثير من هذا الشعر ، الذى يمليه الذهن املاء دون أى انبثاق من اعماق الوجدان ، ودون اى فورة من فوران الشعور .

انه شعر جامد يعالج الامور من ظواهرها ولايتدخل الى غياهبها حيث الحياة الدافقة ، والحرارة المتوهجة .

لقد طوف نزار ، بحكم وظيفته الدبلوماسية ، فى أقاصى آسيا واوربا وامريكا وافريقيا ـ ولا أدرى اذا كان بلغ استراليا . وما كان منه الا ان جمع مارآه من فتات ، هنا وهناك ، ليقول لنا بعد ذلك انه ابدع قصائد جديدة .

ثم ما هذان البرجان العاجيان او النهدان الواقفان كقبتى نحاس ، او كصحنين رائعين من الصينى .

الشاعر الحق يجعل الجامد يتحرك ، ويبث فى الميت الحياة فيختلج ، ونزار هنا يمسخ النهدين بقدرة قادر او شعوذة ساحر ، فاذا هما قبتا نحاس فى كاتدرائية من كاتدرائيات باريس او روما — لا ادرى ـ او صحنان من صحون الصينى .

أفهذا هو مفهوم التجديد الذى يراه ضروريا للشعر العربى ؟ ... ان الشاعر القديم الذى شبه قد حبيبته بغصن البان ، هذه الصورة التى اصبحنا نمجها اليوم لفرط مالاكتها الالسن ، هو عندى اصدق من نزار تعبيرا وانفذ منه الى مسارب الحياة والروح .

ثم ما هذا العنبر ، والفلفل والزبيب ؟ أنحن على مائدة الشعر الحافلة بغذاء الروح أم على مائدة احد المطاعم الفقيرة ؟

ويقول نزار ، سائرا على طريقة (سعيد عقل) فى النحت الذهنى والاهتمام فقط بالرنين والشكل الخارجى :

وانتظر الصوت
صوتك
يهمي على
دفيئا
مليئا
قوى كصوت نبيى
كصوت ارتطام النجوم
كصوت سقوط الحلي .

فاذا بشعره فارغ من كل شيء الا من الرنة الموسيقية ، والمبالغة الممقوتة المتكلفة ، والا فما هو وجه الشبه بين صوت حبيبه وصوت نبيى وصوت ارتطام النجوم لا سمح الله ، وصوت سقوط الحلى ، سوى ملء فراغ الروى . ان نزار يلعب هنا بالالفاظ ، ولما لم يجد لديه مايقوله لجأ الى هذه البهلوانيات القشرية ، ليوهم الناس بعمقة ، ولاشك ان هذه البهرجة الكاذبة التى لاتمت الى الشعور بصلة ، لاتخفى على الاذواق المتفتحة .. فنزار هنا قد بذ القدامى من انصار البديع والتحذلق فى عهود الانحطاط الادبى .

لقد كان نزار قبانى شاعرا يوم كان يستمد لوحاته من طبيعة بلاده ، من طبيعة الشام الضاحكة النقية ، أو من طبيعة جبل لبنان المتبرجة الشذية ، ولما راح يستمد صوره من هونج كونج ، وحانات باريس ، ومزارع البن فى البرازيل ، فقد الكثير من براءته وعفويته وغناه .

لقد اعمت الشهرة نزار ، فترك لخياله العنان ولم يعد يحسب للقراء او النقاد اى حساب . حسبه ان يمد يده الى اسم احد المسارح (القمر الاخضر) فيقتلعه

ويخاطب به حبيبته قائلا : ياقمرى الاخضر ، وحسبه ان يبث فى شعره الاسفنج والمحار ، والقراصنة ، والتبغ ، والمطر الاسود ، والفلفل والبهار ، على طريقة الشعر الاجنبى الحديث ، ليقول بنا بعد ذلك أنه أتى بشعر رائع جديد .

الا رحـــم اللـــه الشـــعر ....

نزار قبانى والشعر الأرجوانى

ما من شعر لقى من الشهرة والانتشار مثلما لقى شعر نزار قبانى .. فأبياته تنطلق من حناجر المغنيات والمغنين ، كما تدور على شفاه المعجبات والمعجبين ، لا لانه قصر شعره تقريبا على الغزل بالمرأة ، يشرح كل حركة من حركاتها ، ويصور كل نزوة من نزواتها ، ويصف كل عادة من عاداتها ، كما خيل إلى بعض الناس ، ولا لأنه يدغدغ بشعره أهواء الناشئين ، كما خيل الى بعض آخرين ؛ فقد تغزل بالمرأة كثير من الشعراء غيره ، واسرفوا فى دغدغة الاهواء ، ومداعبة العواطف ، ولكنهم مع ذلك لم يلقوا مالقى من شهرة ، ولم تنتشر اشعارهم مثل انتشار أشعاره ، بل ان كثيرا من قصائدهم مات فى مهده قبل ان يبلغ النفوس ، أو يخالط الوجدان .

السر الحقيقى فى ذيوع شعر نزار قبانى هو انه يمتلك موهبة شعرية أصيلة لاشك فيها ، ولدت معه يوم ولد ، وترعرعت بالتجربة والصقل والمران .

وهناك فرق كبير بين الشعر الذى يضىء من حرارة الشعور ، والشعر الذى يتجمد من برودة التكلف ، فليس التكحل فى العينين كالكحل ، وليس الشعر المستعار مثل الشعر الاصيل .

وشتان ايضا بين الشعر الذى يعتمد على الابداع والتجديد ، والشعر الذى لايعتمد الا على النسخ والتقليد .

نزار قبانى صاحب مدرسة خاصة فى الشعر ، أصبح يعرف بها وتعرف به ، ولئن تأثر فى مستهل حياته بأبى ريشة ، وسعيد عقل ، وغيره من شعراء الرمزية الجدد ، فأنه سرعان ما حاد عنهم ، ونهج نهجا مستقلا ، وأصبح شعره بعد ذلك له ملامحه الخاصة ، وسماته المميزة ، فنزار ــ ينسجه بروحه وقلبه وانامله .

ولا غرابة فى ذلك فكل شاعر يبدأ بالاعجاب والتقليد ثم لايلبث ، أن كان أصيلا ، أن يشق دربه الخاص الذى يقوده الى هدفه .

هذه المقدمة لابد منها قبل الدخول الى قصيدة نزار الجديدة التى قالها فى ذكرى حرب تشرين وجعل عنوانها :

ترصيع بالذهب على سيف دمشقى ..

ان حرب تشرين رفعت رأس العرب عاليا بعد تلك النكبة المشئومة التى حلت بهم على حين غرة ، قبل سبع سنوات ، فزلزلتهم زلزالا شديدا ، وزعزعت من ثقتهم بأنفسهم ، وكادت تزرع اليأس فى قلوبهم ، وتعصف بآخر آمالهم .

فمجال القول فى هذا الموضوع ذو سعة ، والفارس فى هذه الحلبة الرحبة يستطيع ان يصول وان يجول .

فماذا قال نزار قبانى ؟

لقد أنشأ قصيدة طويلة بلغت الثمانين بيتا ادارها على قافية واحدة ، وبذلك ركب مركبا صعبا لايستطيع التحكم فى زمامه الا من كان متدفق الشاعرية ، غنيا بالمفردات اللغوية ، ونزار حظه من هذه يسير ، وثروته محدودة ، لذلك اضطر أحيانا الى الترقيع لسد الفراغ ، ولم يتمكن من اختيار الاصح ، والاعذب ، والاكثر تعبيرا .

لقد أضطر فى قصيدته الطويلة هذه الى استعمال اليانسون والليمون ، والسكر المطحون ، والتين والزيتون ، والعجين ، والسردين ، والزيزفون ، ولم يبق عليه الا ان يستعمل الملح والفلفل والكمون ، لتصبح قصيدته مخزنا من مخازن البقالين ، أو دكانا من دكاكين العطارين .

نزار من ذوى النفس القصير فى الشعر ، ولكنه أحب هذه المرة ان تمتد قصيدته فأضاف اليها الحواشى والذيول لتبدو عروسا فاتنة ، طويلة القامة ، تجرر اذيالها .

بدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على الديار ، والتغزل بحبيبته على طريقة الشعراء القدامى ، وتذكر فواتن الصالحية ، وباح بهواه وأظهر لوعته ، وقال أن حبيبته لها عيون تذبح من تحت النقاب ، ولم تكن حبيبته تلك غير دمشق .

لقد غاب الشاعر عنها «دهرا» ثم عاد فاذا هى لم تتغير ؛ لم تزل أنهارها السبعة تتدفق ، ولم يزل ياسمينها فى المنازل يعبق ، ولم تزل شوارعها تضيىء بالحور العين وتتألق .

وفى غمرة من الشوق الجارف ، والحب المتأجج ، يطلب الشاعر من جبل قاسيون ان يضمه كطفل ، ويحتضنه مرات ومرات ، خمسين ألفا وألفا ، لم تنقص ولم تزد .

فهو مشوق الى حبيبة العمر دمشق ، مجنون بهواها ، ومن يدرى فلعلها هى ايضا على مثل حرارة شوقه .

ولا ينسى الشاعر أن يعرج فى طريقه على الكتابة فهى جرح ليس يشفى ، وهى مارد ملعون لايهدأ ، والشاعر يعانى فى الشعر موتا جميلا كما تعانى من الرياح السفين ..

ثم يلج بنا الشاعر ، بعد كل تلك الرحلة الطويلة ، الى صميم الموضوع :

حرب تشرين .

جاء تشريــــن ياحبيبـــة عمرى　　　أحســن الوقــت للهــوى تشرين
ولنــا موعــد على جبـــل الشيخ　　　كم الثلـــج دافىء .. وحنون .

فقد مرت سنوات سبع عجاف ، استقال الشاعر فيها من الحب ، وجفت على شفتيه اللحون ، لكنه لم ينس مع ذلك هوى حبيبة العمر ، غير ان الحمى مستباح ، وليس من السهل ان يحب السجين ، والهوى يصير ذليلا كلما ذل للرجال جبين ، لكن اليوم قد تغيرت الحال ،ونفضت دمشق عن وجهها غبار الذل ، وقتلت العنقاء على جبل الشيخ ، وخلعت على ثلوجه اضراس التنين ، فصارت حبيبة العمر بعد ذلك أحلى ، وغدت فيها سنابل القمح أعلى ، فالغزل اليوم قد طاب ، وهذا هو أوان الفخار ، والتغنى بالمجد والانتصار .

لقد عدنا أسيادا كما كنا ، فنهر التاريخ ينبع فى الشام ، ونحن أصل الاشياء ، وبنا يبدأ التكوين وينتهى ، ولن يخلد فورد على ايوانه ولا رابين ،

وانما نحن سنكون الخالدين ، والزمان معنا سيزيدنا عددا وعدة :

كل ليمونـــة ستنجـــب طفلا ومحـــال ان ينتهـــى الليمون

ثم يختتم الشاعر قصيدته الوطنية بهذا البيت :

أركبى الشمس يادمشـــق حصانا ولك اللـــه ... حافـــظ وامين .

وبالمناسبة ، فأنا لا أرى هنا ضرورة لذكر الحصان ، فامتطاء صهوة الشمس كاف وزياده ..

على كل حال القصيدة نابضة بالشوق ، صارخة بالحب والحنين ، والاعتزاز بالبطولة العربية ، ولكنها مع ذلك كثيرة الثغرات .

لقد تغزل نزار بحبيبته فى أول قصيدته على غرار الشعراء القدامى ، ولكن غزله هذه المرة جاء فاترا لانه اعتمد على الذاكرة اكثر مما اعتمد على الشعور :

أتراهـــا تحبنـــى ميسون أم توهمـــت ، والنســـاء ظنون

فهذا البيت رغم حلاوة جرسه ، وصفاء رنينه ، لا يجعلنا نمر به مطروبين دون ان نتوقف متسائلين عند (والنساء ظنون) ، فهو تعبير مبتور ، وجنين ناقص التكوين :

فحين قال شوقى :

خدعوهـــا بقولهـــم حسناء والغوانـــى يغرهـــن الثناء

كشف لنا عن ضعف كان فى نفوس النساء ، وهو أنهن يغررن بالثناء ، فزادنا بذلك معرفة بالنفس البشرية .

ولكن نزار ترك (والنساء ظنون) غامضة دون ان يكشف لنا النقاب عن وجهها ، وأظن انه قصد أن الرجال قد يتوهمون حب النساء لهم توهما وظنا ، وعن طريق التخمين لا عن طريق اليقين . فهل تؤدى «والنساء ظنون» ذلك المعنى .

ولو قال « والغرام ظنون » لهان الامر ، وعذرناه بعض الشىء .

ويأتى بعد ذلك بيت رائع فيه شجن عميق ، وحنين حزين :

ما وقوف على الديار وقلبى   كجبينى قد طرزته الغضون

فالزمان الذى طرز جبين الشاعر بالغضون ، لم يعف عن قلبه حتى أصبح قليل الحرارة ، ضئيل النضارة .

وتطريز القلب بالغضون رائع ، وأكثر من شعر ، وفيه أسى على مامضى وانقضى ، وبكاء بلا دموع ، على ربيع من العمر ولى وليس له من رجوع .

ثم يقول :

لا ظباء الحمى رددن سلامى   والخلاخيل مالهن رنين

وفى هذا البيت مصداق على تغضن قلب نزار ، ودليل على شيخوخة جناحه . فمتى كانت دمشق مرتعا للظباء يانزار ، ومتى كانت الخلاخيل ترن فيها ، وكأنها قطعة من الصحراء ، أو حى من احياء البادية .

هنا سقط نزار فى حمأة التقليد ، ولذلك جاء شعره جامدا لا اختلاج فيه ، فاترا لا طعم له .

ويصف بيوت دمشق فيقول :

النوافير فى البيوت كلام   والعناقيد سكر مطحون

اما كلام النوافير فقد فهمناه ، فبودلير يقول فى قصيدته (النافورة) : « فى فناء الدار ، النافورة تثرثر ، ولاتسكت فى ليل ولا نهار ... »

أما تشبيه عناقيد العنب بالسكر المطحون فهو بعيد عن الشعر بعد الثرى عن الثريا ، وهو اقرب الى نظرة التاجر منه الى تأمل الشاعر . أفلم ير نزار فى عناقيد العنب اكثر من سكر مطحون ؟ أين النضارة التى ترف ، وأين النور الذى يشع ، واين البهجة التى تسعد العين والفؤاد ؟

العناقيد نهود الدوالى يانزار ، ونجوم الكروم ، ورمز الحياة وهى على أية حال أجمل كثيرا من كل سكر مطحون أو غير مطحون .

ثم يقـــــول :

والسمــاء الزرقــاء دفتــر شعر والحروف التى عليــه السنونو

السماء دفتر شعر صورة اكثر من حلوة ، لايتذوقها حق التذوق الا من كان كثير التطلع الى السماء ، طويل التأمل فى عجائبها التى لاتحد ، وجمالها الذى لايوصف ؛ إنها حقا صورة تجعل الخيال يسبح فى عالم لازوردى من نشوة الروح ، ولكن (والحروف التى عليها السنونو) سرعان ماقضت عليها .

فنزار بخفقة جناح ، نقلنا الى ذروة عالية ثم مالبث ان هبط بنا فجأة الى الحضيض . ويبدو ان بعض الصور تسيطر على خيال نزار فلا يستطيع الفكاك منها ، فيكررها ويسرف فى تكرارها ، حتى ولو جاءت أحيانا فى غير محلها ، ومن تلك الصور الاثيرة لديه : السنونو . فما اكثر مارأينا هذا الطائر الاسود الجناحين يطل بمنقاره من خلال اشعاره .

وفى هذه القصيدة الوطنية الأرجوانية ، الملتهبة بالنار ، المضرجة بالدم ، تكررت صورة السنونو فى بيت آخر من أبياتها ، قال نزار مخاطبا دمشق :

كيف صارت فيك السنابــل أعلى كيف صارت عيناك بيت السنونو

وانى لاتساءل فى دهشة كيف يحط السنونو فى عينى دمشق الساحرتين ، قد يحتج الشاعر بان السنونو هو رمز الربيع وبشير قدومه ، ودمشق بعد ان خلعت عنها نير الذل ، عاد اليها الربيع الجديد ، وتمايلت فى حقولها السنابل الخضر ، وتفتحت فى حدائقها الازهار الملونة ، فلا غرابة فى ان تطير فى سمائها اسراب السنونو .

ومهما كان التأويل أو التعليل فانى لم استطع ان اهضم ان تصير عينا دمشق بيتا للسنونو ، فهى صورة غريبة غير دقيقة تكلفها الشاعر تكلفا ولم يوفق الى اخفاء تكلفه ، كما انه لايقال فى اللغة ان للسنونو بيتا ، فقد يقال ان له عشا ، وقد يقال ان له وكنا ، اما ان يكون له بيت ، فليس ذلك الا من تساهل

نزار ، وقلة عنايته بلغته ، وهو الغيور على عروبة وطنه ، والفخور بتراث أمته .

أما سبب تعلق نزار بالسنونو والاكثار من ذكره فى شعره فالكشف عن سره يحتاج الى التحليل النفسى اكثر من التحليل الادبى ، وليس هذا محله .

ثم يحاول شاعرنا ان يتفلسف فيغرق حتى اذنيه فى التقمص ونظرية وحدة الوجود ، كما فعل بعض المتصوفة من قبله :

يادمشق التى تقمصت فيها ... هل انا السرو ، أم انا الشربين
أم انا الفل فى أباريق امى ... أم انا العشب والسحاب الهتون

وكأن نزار شعر بأنه قد بدأ يميل ويترنح ويفقد توازنه ، ويضطرب فراح يصرخ معتذراً :

يادمشق التى تفشى شذاها ... تحت جلدى كأنه الزيزفون
سامحينى اذا اضطربت فانى ... لامقفى حبى ولاموزون

ولا أدرى كيف يتفشى الشذى تحت الجلد ، فقد يتفشى الداء والعياذ بالله ، وقد يتفشى العض أو الرض تحت الجلد ، وقد تتفشى بقع الزيت فى الماء ، ولكن تفشى الشذى تحت الجلد شىء عجيب غريب ، لا عهد لنا بمثله فى الشعر ثم يقول :

وازرعينى تحت الضفائر مشطا ... فأريك الغرام كيف يكون

ويبدو ان الاضطراب قد انتقل هذه المرة من الشاعر الى شعره ايضا ، فالصحيح ان يقول (أرك) بحذف الياء لانها مجزومة جواباً لأمر ، ولا أرى أى مبرر لدخول الفاء هنا على الفعل ، محاولة من الشاعر للافلات من وجوب الجزم .

ولم يقتصر الشاعر على الاخلال بالنحو ، فقد اخذت الركاكة تغزو وتكتسح بعض ابياته ، فتصبح كالشعر (الحلمنتيشى) :

علمينا التفكير لا نصر يرجى ... حينما الشعب كله سردين
إن اقصى مايغضب الله فكر ... دجنوه وكاتب عنين

وإنى لاستغرب ان يصدر مثل هذا الشعر المرتجل عن شاعر فنان أنيق التعبير والبيان ، مثل نزار قبانى .

أكبر ظنى ان الشاعر لم يقصد فى هذه القصيدة الى الناحية الفنية ، والا لأعارها بعض العناية والتنقيح وأولاها الكثير من التشذيب ...

ويبدو ان نزار ارادها ان تكون من الشعر الخطابى المجلجل الذى يطرب الجماهير ، فيلهب الاكف بالتصفيق ، ويبح الحناجر بالاستعادة ، ولابأس بعد ذلك ان ذهبت مع الريح ، او تلاشت فى الهواء .

لذلك حشد فيها بعض الالفاظ الطنانة الرنانة التى تثير اكثر مما تنير ، وتفرح الاذن اكثر ماتفرح القلب . وليس معنى هذا ان القصيدة فارغة من الشعر ، ففيها ولاشك أبيات حلوة تليق بشاعر كبير مثل نزار قبانى :

سنوات سبع من الحزن مرت ... مات فيها الصفصاف والزيتون
سنوات فيها استقلت من الحب ... وجفت على شفاهى اللحون
مزقى يادمشق خارطة الذل ... وقولى للدهر كن فيكون
استردت أيامها بك بدر ... واستعادت شبابها حطين
بك عزت قريش بعد هوان ... وتلاقت قبائل وبطون
وطنى ياقصيدة النار والورد ... تغنت بما صنعت القرون

وهكذا فان فى القصيدة أبياتا لايخفى جمالها ، وصورا أبكارا مبعثرة ، وحنينا حارا ، وشوقا صارخاً ، انها اجمالا ، دون مستوى شعر نزار الغزلى المعروف : فعنصر الابتكار فيها ضئيل ، والعناية الفنية فيها ضعيفة ، كما ان وحدة القصيدة مضطربة ، فهى متداخلها وغير متكاملة .

ولعل طولها المفرط قد جنى على جمالها ، فالجمال فى الاعتدال وليس الجمال فى الافراط ولا التفريط .

وبعد فلماذا لا اكون صريحا اكثر واقول ان نزار ـ لايجيد الشعر الوطنى كما يجيد الشعر الغزلى ، على الاقل كما بدا لنا فى هذه القصيدة : فنزار لم يخلق للشعر الوطنى ، ولا للشعر الملحمى ، وحسبه شعره الغزلى العطر .

ديوان القلائد

تلكمو غايتي وهذا طريقي	أنا ماض رغم الظلام العميق
ويقيني هو اليقين وان ضاقت	حياتي وغص حلقي بريقي
وطريقي ياليل يملؤه الاحرار	وكل حر رفيقي
ملأ النور ناظري وقلبي	وجرى في دمي وملء عروقي
فاعصفي يارياح عصفا جنونيا	فلن تطفئي ضياء الشروق
أنا ماض رغم الدياجير والانواء	والرعد واللظى والحريق ..

بمثل هذا الشعر الرائق الجزل ، وبمثل هذا الاسلوب الرقيق السهل ، يتغنى الشاعر محمد على السنوسى بلسان مجلة « المنهل » في ديوانه (القلائد) الذى صدر حديثا ...

وانه ــ والحق يقال ــ لشعر عربى اصيل فيه شيء من طلاقة الصحراء ، كما ان فيه شيئا من زمجرة الرياح العاصفة وهى تهب على الصخور ، وفوق كثبان الرمال .

واول ما يستوقف النظر في هذا الشعر هو هذا التماسك ، فالابيات متسقة ، متلاحقة ، يأخذ بعضها برقاب بعض وكل بيت يفرغ في البيت الذى يليه شحنته الشعورية ، ونغمته الموسيقية ، فما يكاد القارىء يتم القصيدة حتى يشعر انه أمام اثر فنى جميل ، يبعث فيه المتعة والارتياح ، ويزيد من معرفته بأسرار الكون ، ومفاتن الطبيعة ، ويعمق تجربته الشعورية في غضون الحياة ...
وما اشبه هذا الشعر بالنهر تتجمع مياهه من هنا وهناك ، من قطرات المطر ، وشلالات الجبال ، وسواقى الغابات ، فينساب حالما في هدوء وصفاء وبهاء ...

والشاعر السنوسى لا ينطلق لسانه بالشعر ، غالبا ، الا حين تنفعل نفسه وتستوفز اعصابه ، ويحس انه بحاجة الى التعبير عن مشاعره واحاسيسه ، ولذلك نلمس فى شعره حرارة الصدق وتوهج الايمان وهو حتى فى شعر المناسبات ــ وما اكثر شعر المناسبات فى ديوانه ــ يظل محتفظا بهذه الميزة التى تستمد خطوطها الكبرى من العاطفة المتأججة ، والتى يصبح الشعر بدونها مجرد الفاظ مصفوفة وصور مرصوفة تدل على البراعة والفن أكثر مما تدل على الاصالة والموهبة .

وديوان (القلائد) سجل جميل للاحداث العربية التى مرت فى حقبة من الزمن .

يبدأ الشاعر ديوانه بقصيدة طيبة يمدح فيها جلالة الملك سعود المعظم فيقول :

كأنك فيه الشمس والشمس كوكب
اجلك يامولاى عنه وارفع
وهل كان للشمس المضيئة فى الدنا
أب كأبيك الفذ ايان تطلع
أب ملأ الدنيا حديثا معطرا
ومازال رنانا صداه المرجع

لولا ان البيت الاول يذكرنا ببيت من الشعر العربى القديم :

كأنـــك شمس والملـــوك كواكب　　　اذا طلعت لم يبد منهـــن كوكب

وفى مطلع قصيدة (البيعة) يصف الشاعر الاسى الذى خيم على بلاد العرب اثر وفاة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ، وفى غمرة ذلك الاسى الشامل ينهض الشبل بأعباء الحكم ، فيبدع الشاعر فى وصف ذلك الاسى وتلك اللوعة :

نهضت وفى قلب العروبة لوعة　　　تلوب وفى جفن الجزيـــرة ادمع
وفى كبد الغبراء من حرقة الاسى　　　شواظ يدمـــى او لهيـــب يلذع

ويتتبع الشاعر حركات العاهل العظيم (سعود) بريشته المصورة ، فلا يرى مأثرة الا اثبتها ، ولا فضلا الا اشاد به . ولعل من اجمل التصوير وصفه لثورة القبائل فى جبل (القهر) وهو جبل شامخ الارتفاع ، فتأمل كيف يخلع الشاعر

عليه الظلال والالوان والصور حتى يشعرنا بمدى شموخه :

قام بين السمـاء والارض منه — حائط يمنح السحـاب انتشارا
يتشظـى على جوانبــه البرق — شواظـا ونيــزكا وشرارا
قمـم تفحـم الريــاح فتعلو — نفسـا فى صعودهـا وانبهارا
وذرى يعقـد الضبـاب برودا — فوق هاماتهـا ويضفـى ازارا

وهكذا نرى أن الشاعر السنوسى ـ حتى فى شعر المناسبات ـ يستطيع أن يرتفع ويبدع ، ويأتى بشعر جميل ممتع .

وانى لألمح من خلال شعر الشاعر اجنحة قوية قادرة على التحليق فى الاعالى ، ونفسا مديدا لا يلهث ، فما احراه ان يجرب قلمه فى الملاحم الشعرية ففى ديوانه بعض خطوطها البارزة التى تبشر بالنجاح .

ولا يقتصر الديوان على تصوير احداث الجزيرة العربية ، بل يشارك ايضا فى مآسى الوطن العربى الاكبر ، ويغنى آلامه وأفراحه .

والشاعر السنوسى يجعل من شعره شعلا تنير الطريق للاجيال العربية الصاعدة ، الظامئة الى النور والحياة الحرة الكريمة ، ويتخذ من يراعه لسانا يعبر عن احلامها وتشوقها للمجد ، وايمانها بغد سعيد مجيد ، وهو يتبرأ من شعره اذا خان رسالته أو لم يبلغ أمانته .

أملقت من أدبـى اذا هو لم يكن — شعلا تنير صوى الطريق لمن سرى
وبرئت من قلمى اذا هو لم يكن — فننـا بأحـلام العروبـة مثمرا

وقصائده (حطم المارد القيود) و (تأميم وتعميم) و (بطولة الجزائر) و (اليقظة العربية) و (جنكيز خان) تعج بهذا الشعور الطاغى ، وتضج بهذه الروح الطيبة المؤمنة بعروبتها وكرامتها .

واننا لنرى الشاعر من فرط حبه للعروبة ، يتغلغل فى ماضيها السحيق ، وينقل من تاريخها الخصيب بعض الملامح المعبرة فينسج عليها قصائده كما فى (دارة جلجل) و (فارس اللاحلام) .

وهو بذلك شاعر العروبة لا مراء .

وفى (القلائد) بالاضافة الى أشعار المناسبات ، اشعار وجدانية صرفة ، وهى اكثر صفاء من سائر شعره ، ولا غرابة فى ذلك فان الشعر الوجدانى يخلو

غالبا من القشور ، ويكون الشاعر فيه أكثر انفعالا ، وأكثر اندماجا وتآلفاً مع الموضوع ، بينما يظل شعر المناسبات حاويا القشر واللباب ، ومزيجا من الرغوة والصريح .

والشيء الذى جعلنى استغرب وأعجب هو أننى لم ألمح اى طيف للمرأة فى هذا الديوان ، فلعل للشاعر فيها قصائد مخبوءة لم يبح لها أن تنعم بالنور .

والديوان رغم طباعته الانيقة فيه كثير من الاخطاء المطبعية التى لا تخفى على القارىء اللبيب .

الا ان هناك اخطاء نحوية لا ادرى كيف سها عنها الشاعر .

يقول فى بيت له :

وسرت كالشهاب ينصدع الليل على جانبيـــه (واه) كئيبا

والصحيح ان يقال (واهيا) منصوبة على الحال .

ويقول فى « ليلة الهجرة » :

وعيــون السمــاء من كل نجم (رصــدا) للعصابــة الرصداء

والصحيح رفع (رصد) لانها خبر لعيون السماء ، وكنت اظنها من جملة الاخطاء المطبعية الا اننى حين رجعت الى القصيدة ذاتها وهى منشورة فى (الرائد) أيقنت أن الشاعر ارادها منصوبة ويقول فى بيت آخر :

واذا بالغــرور (ذلا) وبالكيد (خضوعا) وبالاباء (صغارا)

والصحيح رفع (ذل) و (خضوع) و (صغار) لانها خبر ..

ومن الناحية الفنية نرى شعر السنوسى يضعف احيانا لان الشاعر قليل العناية بالتدقيق والتنقيح ، وهو يستعمل تعابير معروفة مما قد يفقد شعره روعة الجدة ، وقد لا يدقق فى معانى الكلمات فيقول :

رؤى كأشعــة الاصبــاح لاحت قبيــل الفجــر والاشراق قابا

فــ (قابا) هذه نابية ثقيلة لا تنسجم مع رشاقة البيت وخفته ، واظن ان الشاعر استعمل قاب بمعنى اقترب واللغة لا تعطيها هذا المعنى ففى اللغة قاب الارض : اذا حفر فيها وقاب الطائر بيضته اذا فلقها . الا أن يكون الشاعر

اراد قابا بمعنى قاب قوس أى قدره . وهذا إجهاد للكلمة ، وتحميل لها فوق طاقتها .. ثم أن (الاشراق قابا) حشو وتكرار باهت لما سبق ، وسد لثغرة فى البيت ، فما كان اغناه عنها .

كما اننا نلمس احيانا عند الشاعر تنافرا فى حروف البيت :

كلما حامت الشياطين شيطت بشواظ وروعت برصيد

* * *

رقة كالندى على طرر الروض المطرى

فتتابع « الشينات » و « الطاءات » و (طرر الروض المطرى) يذكرنا بالبيت الناشز المشهور :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

كما ان نقص التنقيح عند الشاعر يجعلنا نسمع منه مثل هذا البيت :

ويحفظ ماءها والماء روح ومن حفظ الحياة فقد اصابا

ولو استبدل الشاعر بهذا العجز أى كلام آخر لكان اكثر اصابة ولجاء شعره اوفر جمالا وحيوية وجدة .

ولا ادرى كيف اباح الشاعر لنفسه ان يرفع (المهود) فى البيت الآتى :

وسرت نشوة الضياء تهز الشعر هزا ، هز الوليد (المهود)

فقد التمست له كل الاعذار ، فلم اظفر بمبرر للرفع . ولا يخفى أن هذا البيت جنين ناقص التكوين ، كما ان تكرار الهزات هنا بشع ومخيف يذكر بالزلازل والبراكين .

وكم كنت اتمنى أن يكون ديوان السنوسى بريئا من هذه العيوب .

فشاعر فحل كالاستاذ السنوسى ينبغى ان يكون شعره صافيا من كل شائبة ، بعيدا عن كل ما يشينه وينقص من روعته .

ومهما يكن من شىء فان ديوان القلائد يتنفس الشعر ملء رئتيه ، واننى لأقرأ للمرة الاولى ـ فى هذه الجزيرة العربية ـ شاعرا حديثا يعطى مثل هذا العطاء ، ويتدفق مثل هذا التدفق ، فى خصوبة وعذوبة وسخاء .

خطوات فى النقد

انها حقا ساعات ممتعة صرفتها فى صحبة هذا الكتاب .

وانى لأشكر للصديق الاستاذ عبد الفتاح أبو مدين ما أتاحه لى من متعة حين أرسله لأبدى رأيى فيه .

والكتب أنواع ، بعضها تقرؤه وأنت شبه نائم ، وتفرغ منه فلا يترك فى نفسك سوى ما تتركه الأرجوحة فى نفس الطفل : خدر لذيذ ثم لاشىء ، وهيهات أن تحتاج الى أن تمد يدك اليه مرة ثانية ...

وبعضها لا تستطيع أن تقرؤه الا وأنت مستوفز الشعور ، مشرئب الانتباه ، تستعيد بعض أفكاره ، وتناقش بعض أقواله ، وقد تقف عند بعض صفحاته ، وقد تغلقه مؤقتا ، لتستغرق فى رياضة ذهنية رائعة .

و (خطوات فى النقد) من هذا النوع الأخير .

حسبه أنه حملنى على أن أقف موقف المتأمل المتبصر عند كثير من نظراته ، وحسبه أنه فتح أمام خيالى ، وذهنى نوافذ جديدة ، كانت تهب منها نسمات صافية منعشة .

ولقد ذكرنى الاستاذ يحيى حقى ، فى كتابه هذا ، بالاديب اللبنانى الكبير مارون عبود ، فلكل منهما فى النقد أسلوب ساحر ، آسر ، على بسطة فى المعرفة ، ورهافة فى الذوق ، ونعومة فى السخرية محببة ، قد تجرح ولكنها لا تسيل الدماء .

و « خطوات فى النقد » مجموعة من المقالات النقدية نشرت فى الصحف والمجلات فى فترات من الزمن متباعدة ، تناولت انتاج بعض الكتاب والقصصيين والشعراء منذ ٣٥ عاما ثم أحب الكاتب أن يجمعها فكان منها هذا الكتاب .

والناقد (قد اختار من المقالات بعضها لا كلها حتى لا يتضخم حجم الكتاب) وهو ليس راضيا عنها كل الرضى فهو (قد نشأ ومعارك النقد لا تترفع عن حدة اللفظ والتجريح ولكنه مع ذلك لحظ بشيء من الرضا اعتدال اللهجة حين تقدم به العمر) لذلك فهو (يلتمس أن يصفح عنه كل من غضب منه)

ولست أرى فى كتابه ما يدعو الى الاعتذار ، والتماس الصفح والغفران ، ففى أكثر أقواله حقيقة صارخة ، واحكام متزنة ، والحقيقة ينبغى أن تقال ولو كانت مرة المذاق .

والنقد كبعض العمليات الجراحية ، لابد من اجرائها احيانا ولو كانت مؤلمة ، وذلك فى سبيل الحفاظ على سلامة الكيان الادبى ، ورد نضرة العافية الى محياه .

والاديب الحق لا يتألم من النقد مهما كان قاسيا ، الا اذا كان مغرضا ، بل يعجب لفطنة الناقد ، وادراكه لأسرار الحسن ، أو مواطن القبح ، وينتفع من بعض ملاحظاته فى انتاجه المقبل .

أما الدافع الذى حفز الاستاذ يحيى الى اصدار هذا الكتاب بعد مرور زمن طويل على تدبيجه تلك المقالات ونشرها ، فهو : « فى حقيقة الامر ان نفسى قد اشتاقت فى ضعفها وتحنانها وقد تقدم بى العمر ، أن أضم فى مرجع واحد اشتاتا من مقالات مبعثرة فى الصحف والمجلات ، فأجمع عند الفسق من حولى أبنائى ، لا فرق بين دميم ووسيم ، من قبل أن يأخذ الكرى الاكبر بمعاقد الاجفان ... »

وقد أحسن الناقد الى القراء ، كما أشبع فى نفسه نزعة الحنان وعاطفة الابوة ، حين أقدم على جمع مقالاته فى هذا الكتاب بعد ان كانت متناثرة فى صحف مختلفة قلما تقع عليها عين ، أو ينتفع بها ذهن .

من خصائص الاستاذ يحيى حقى أنه يعطيك فى ألفاظ مختصرة صورة واضحة الملامح ، كأنه الرسام الماهر يستطيع بلمسات قليلة من انامله ، وبتوزيع ظلال خفيفة من ريشته ، أن يقدم اليك صورة معبرة تكاد تنطق .

يقول فى أسلوب سعيد العريان « اما اسلوب العريان فمن عجينة واحدة فى الحزن والفرح فى الوصف والحوار ، فى الغزل والحرب ، أسلوب بليغ جزل ، ولكنه كالماء الصافى لا لون له .)

ويقول عن الشاعر عزيز أباظه فى حديثه عن مسرحية (العباسة) : (ولكن شعر المسرحية فى مجموعه خال من اللمحات العبقرية ، ويسير فى طريق طالما عبدته اقدام الشعراء السابقين .) ويتحدث عن أسلوب احسان عبد القدوس فيقول : « اصبحت ألفاظه تجول وتتصادم فى فوضى لا ضابط لها ، وتساق الى أمكنه ليست لها ، وعذره ان لها رنينا ونغمة ..)

ولعل أكثر الموضوعات التى ألح عليها هذا الكتاب وتناولها بالبحث هو الاسلوب .

فالاسلوب الجميل ، فى رأى الناقد ، هو الاسلوب الموجز الذى يخلو من اللف والدوران ، والذى يضع الكلمات فى أماكنها ، والذى يعقد زواجا جديد بين الالفاظ التائهة ...

(نريد كتابا ينفضون عن الالفاظ العربية غبارها ، ويهزونها هزا عنيفا لتستفيق من سباتها العميق ، فحبذا لو خرج لنا كاتب يجمع بين ألفاظ لم تلتق من قبل ، ويفك تلازم كلمات أملها طول الجوار ، فيشيع فى أسلوبه هواء متجدد ينعش النفس ، وكيف لا يصاب المرء بالحول لطول رؤيته لفظين لفظين لكل معنى واحد ... »

فما أصدق هذه الملاحظة ، وما أولاها بعناية الادباء . لقد أصبح التكرار الممل ، والازدواج الفارغ ، شعار بعض الكتاب ، واللغة لم تخلق للعب بالالفاظ ، ولا لهدهدة الاذهان لتستسلم الى الرقاد ، وانما خلقت لأداء رسالة سامية مقدسة ، الا وهى التعبير عن ارادة الفكر ، ونزعات الوجدان ...

لقد أصبحنا نرى الحفظة الذين يرددون ــ كالببغاوات ــ كلام غيرهم ، يعتبرون أنفسهم أدباء ، فيغثون الارواح بنقيق انتاجهم ، ويصكون الاسماع بجعجعة رحاهم التى لا تعرف الطحن .

فمتى ندرك ان الاسلوب الخاص هو الاديب ذاته ، ولا وجود لأديب حق مالم يكن له أسلوب متميز ينم عليه ويشير اليه .

ألم يقل (بوفون) : الاسلوب هو الرجل نفسه .

ولعل من أعمق فصول الكتاب « حاجتنا الى أسلوب جديد » وهى محاضرة قيمة عميقة ألقاها الاستاذ يحيى حقى فى جامعة دمشق ، وفيها ابرز عيبين كبيرين فى أساليب أدبائنا هما الميوعة والسطحية ، ولن يصلح أدبنا للترجمة والنقل مالم يخلص منهما .

لقد ورثنا عن عصور الانحلال السجع اللفظى ، وأمكننا أن نتخلص من هذا الداء ، ولكن ذلك السجع اللفظى لا يزال يندس فى بعض أساليبنا فى صورة مستترة سماها الناقد بالسجع الذهنى ، وذلك بأن تقضى على الجملة جملة أخرى ، لا تزيد فى معناها وانما تردد صداها .

واذا كان بعض الكتاب يجدون فى الترديد نوعا من الموسيقى تضفى على الاسلوب رنينا عذبا ، فان ذلك يدل على سذاجة وبدائية وفقر فى النفس :

« آن الاوان لأن تنتقل موسيقى الأسلوب من موسيقى الهمج يرقصون على دق الدفوف التى تعزف لحنا رتيبا ، الى موسيقى هارمونية لها ايقاعات مختلفة لكل مجال فى النص الواحد ، متشابكة ، ولكن يتمشى فيها كلها من أولها لآخرها لحنها الاساسى الاوحد المتعدد الالوان ... موسيقى تسمو عن هذا الأثر الساذج الفقير ، البسيط ، الى لحن غنى أعمق متشابك » .

ولا بأس أن نختم مقالنا بهذه الصرخات الهادئة المضيئة :

« آن الأوان لأن يكون لنا فى الأدب أسلوب اسميه بالاسلوب العلمى يعتمد على تحديد المعانى ، وبالتالى اختيار الفاظ محددة لها ، بل أقول الفاظا حتمية بحيث لا يكون المكان صالحا الا للفظ واحد ، ويتعذر أن يستبدل به لفظ آخر . فاذا فعلنا ذلك أزلنا عن أسلوبنا كل علل الزيف والبهرج الفارغ والتزويق الذى لا طائل تحته .. »

خطوات فى النقد .. ولكنها خطوات جريئة ، ثابتة ، غير متعثرة ، وهى على كل حال ليست خطوات تائهة على رمال .

سوزان

سوزان ، ديوان شعر جديد للاستاذ حسن عبد الله القرشي ، وهو حصاد تجربة عاطفية ملأت على الشاعر نهاره وليله ، فى فترة خصيبة من حياته .

أه لو يعلمـــون ماذا اداري   من غرام معربـــد فى فؤادي
نعمـوا بالـكرى ولــكن طرفى   طاعـم بالدمـوع فوق وسادي

فالعواطف الثائرة ما برحت تصخب فى عروقه ، وتقلقه ، حتى انسكبت فى ابيات عذبة فهدأ الشاعر واستراح ...

ومن هنا كانت لذة الشاعر والقارىء على السواء ...

الشاعر ، لانه حط عن كاهله عبئا ثقيلا كان تحته يرزح ، والقارىء ، لانه يجد فى الشعر بلسما لجراحه ، ومتنفسا لمشاعره ، ولسانا يفصح عن تجاربه دون حرج ولا أثم ..

ولعل الشاعر هو الوحيد الذى يستطيع أن يبوح باشياء قد نستهجنها من غيره ولكنه بظلاله وألوانه ، بفنه الساحر ، يجذبنا اليه ، فنقبل عليه فى لهفة واستمتاع ، وما ذلك الا لان شعره صدى لعواطفنا المكبوتة التى لا يسمح لنا المجتمع بابدائها عارية من الظلال والالوان ..

وسوزان ، تدور اشعاره جميعها على الحب بما فيه من غيرة وندم ، وقلق وانتظار وصد ووصال ، وعواطف متباينة متداخلة ، عذبةومعذبة فى آن واحد ، لا يعرفها الا من ارجحهم الشوق ، وهزهم الغرام .

ولاشك ان الحب هبة سماوية كبرى ، فهو يرقق الشعور ويجنح الخيال ، ويعمق الاحساس ويفتح المواهب ، ويفجر العبقريات ، ومن هنا كان الحب زاد كل فنان ، وينبوع كل شاعر ، من نميره العذب يستقى ومن عبير ازهاره يطيب اشعاره وحياته ، ونظرته الى الكائنات ...

وقلما خلا ديوان شاعر من الغزل ، حتى ان الشعراء القدامى كانوا به يستهلون قصائدهم ، على اختلاف اغراضها ، وما ذلك الا ليجعلوا نفس السمع اكثر انشراحا ، واشد اريحية واهتزازا ، وبالتالى اكثر تقبلا لما يقصد اليه الشاعر ..

ولما كان الحب لغة مهموسة بين العين والعين ، ونجوى متبادلة بين القلب والقلب كان من أول شروط الغزل ، الرقة والسلاسة والبساطة .

وكل شعر غزلى خلا من هذه الخصائص كان بعيدا عن التأثير والامتاع ، ولو شحن بالفلسفة والتفكير شحنا ...

من منا مثلا يطرب لغزل سعيد عقل المتفلسف :

لو قعك فوق السرير مهيب — كوقع الهنيهة فى المطلق
كشلال ورد هوى من عل — فلا نجم فى الافق لم يشهق

وما ذلك الا لأن هذا الغزل وليد مخاض ذهنى عسير ، وليس وليد تدفق عاطفى عفوى .

فالغزل لكى يصب فى القلب ينبغى قبل كل شىء ان ينبع من القلب وأشهد ان الاستاذ القرشى قد وفق فى ديوانه الجديد هذا الى كثير من الشعر الصافى الذى يليق بالغزل ..

فديوانه ، الى بساطة بثه ، وصدق ادائه ، يتشح برنين عذب يفيض عليه جوا رقيقا من الاحلام .. وهو على صغر حجمه ينبض بالحب النقى ، الصافى ، الذى يبعث النشوة فى الروح اكثر مما يبعث اللذة فى الحس ، وهو ينم عن نفس احبت الجمال اكثر مما احترقت فى لظاه ، وان كان هذا الحب لا يخلو من العنف والطغيان :

سواك وان احببت حينا فانما — عبرن بقلبى كالطيوف من الذكرى
ولكنما ألقى اليك قياده — فؤادى فهذا الشوق يغمرنى غمرا

ولقد استطاع الشاعر : ان يجمع فى ديوانه هذا بين ملامح الشعر القديم والحديث ، فله من القديم رصانة التعبير ، ووضوح الاشارة ، وله من الحديث لفتات تذكرنا بالشعر المهجرى الذى يعتمد فى ادائه ، على الصور الطبيعية المتجركة ، اكثر مما يعتمد على الخيال المجرد الجاف .

ومهما يكن من أمر ، فان للاستاذ القرشي اسلوبه الخاص في التعبير الشعرى الذى ينم عليه ، وبه يعرف .

وكم كنت أحب ان يخلو ديوانه من بعض الهنات التى لا تتلاءم مع ما فى شعره من رقة وصفاء ، ولا سيما وان ديوانه صغير ، وشفاف ، فأدنى غيمة عابرة تترك ظلها عليه . يقول فى قصيدته : طائران .

ستنهل اشعارى على الكون فرحة يموسقها قلبـــى وتصـــدح آمالى

فهذه الموسقة ، على ما اذكر ، من نحت الاستاذ الزيات ، ولئن كنا نقبلها فى النثر فلا اظن انها تستساغ فى شعر صاف كشعر الاستاذ القرشي .

ويقول الشاعر :

زهرة الحسن قد حللــت بقلبى فانعمى فيه بـــين خمـــر وجام

واعتراضى هنا على الشطر الاخير من البيت ، فالجام قد ملأ تماما فراغ القافيه ، ولكن هل استطاع ان يزيد شيئا من التوتر الشعرى فى البيت ؟

القافيه ، ينبغى ان تفاجئنا بجديد ، لكى تهزنا وتروعنا ، ولا سيما وأن القصيدة هنا .. قصيرة النفس ، فهى لا تتجاوز خمسة ابيات ، وليس من العسير على الشاعر اختيار قافية اغنى ولو كانت القصيدة طويلة لا لتمسنا له بعض العذر ..

ويقول فى قصيدة اخرى :

نأيـــت فأيقظـــت كل الأسى وعـــدت فكنـــت المنـــى الباسمة

فكل الأسى ــ هذه جعلت البيت مثقلا بالجمال ، ولكن العجز جاء فاترا اشبه بنغمة تقطعت اوتارها فجأة ، والقارىء كان ينتظر بعد صدر البيت الجميل شيئا كثيرا ، ولكن العطاء جاء دون ما كان يتوقع ..

وفى الديوان بعض الاخطاء النحوية ، التى لا يمكن ان نغفرها لشاعر مثل الاستاذ القرشي ..

يقول فى قصيدته ــ جذوة :

سارعى نقتطف زهــور شبابينا ونقض الحيـــاة فى احلام
ونناغى الاطيار فى زهــوة الرو ض ونجتــاز جسر هذا الزحام

والصحيح جزم ـ نناغى ـ ونجتاز ـ لانهما معطوفــان على نقتطــف المجزوم .
ويقول فى نهاية قصيدته ـ خلود الحب ـ :

نظــل معــا فى رحــاب الحياة وفى الموت روحى هوى،توأمان

والصحيح نحوا هو ــ توأمين على النصب وليس على الرفع ، والاصح لغة ان يقال توأم بدون تثنية ..
واخيرا احب ان اهمس فى اذن الاستاذ القرشى ، لماذا يترك اللفظة ــ زها ــ كل هذه السيطرة الطاغية على قصائده ؟ فلقد عمت فيها حتى خمت ، على حد تعبير الاستاذ مارون عبود . وبعد ، فان ديوان سوزان رغم مافيه من هنات كنا نتمنى لو خلا منها ، يعتبر من الطف الدواوين الشعرية الحديثة ، نضارة بث ، ورقة شعور ، واناقة تعبير .. فشكرا للصديق الاستاذ القرشى .

أخي الدكتور حسن

تحية طيبة وشكرا جزيلا على هديتك الرائعة[1] لا أقول هذا مجاملة ، فعالم الادب والفكر هو الوحيد الذى لا تصح فيه المجاملات .

حسب هذا الكتاب خصوبة أنه أخذ بأوتار قلبى منذ طالعت الصفحة الأولى فيه ، ولم يدعنى اتملص منه حتى أنهيته فى هزيع متأخر من الليل ، وما أكثر الكتب التى ترمى بها قبل أن تتمها .

لقد جعلتنى أبتسم فى أكثر الاحيان ، ولكن حين بلغت بى ، فلسفة الفلسفة ، جعلتنى أقهقه من الضحك ، والتفت حولى لئلا يسخر أحد منى .

لم ترحم فى هذا الكتاب أحدا ممن عرفتهم ، حتى نفسك لم تبخل عليها بالسخر الرفيع ، فقد انهلت عليها انهيالا .

ولكن هذا القفاز الحريرى الذى تلبسه فى يديك جعل اكثر ضرباتك قسوة ، لمسات ناعمة ، فبدلا من ان يتأوه المضروب راح يبتسم وكأنما كانت تدغدغه .

لك عين ثاقبة تجرد الشخص من ملابسه ، وتجعله عاريا من أول نظرة ، فلله كم أنت مخيف !

ولله أنت فى دقة تصويرك ، واجادتك الحبك ، وخلع ظلال الفن على سطورك حتى كدنا نصدق ان سلطان زمزمى وعلوى جفرى يكيلان الشتائم لبعضهما وهما نائمان ، وانهما بلغ بهما الحماس ان قاما ليتضاربا دون ان يشعر احدهما بشىء ...

صحيح ان الجاحظ كان يسخر ولكنه لم يبلغ ما بلغته فى تصوير التحريش بين علوى جفرى وسلطان زمزمى ...

كان الجاحظ يطيل ويسهب وانت توجز وتقفز ، والايجاز أكثر بلاغة وروعة .

أنت كيماوى ماهر ، تتقن فن كيمياء الضحك ولو اطلع على كتابك هذا ، الفيلسوف الفرنسى (برغسون) ، مؤلف (الضحك) ، لاقتبس منه نماذج لشرح فلسفته ..

---

(١) مذكرات طالب سابق للدكتور حسن يوسف نصيف .

فبالله يادكتور حسن ، لا تحرمنا من هذه اللمسات الفنية الموفقة ، وان الذى يستطيع ان يرسم الابتسامات على الشفاه ، ويطلق الضحكات المجلجلة من الاعماق لا يقل فى نظرى فضلا عن الطبيب الذى يعالج المرضى ، فالضحك ، كما تعلم ، بلسم القلوب ، وشفاء النفوس .

والسلام عليك من المخلص ،

الدكتور عارف قياسه

دموع وكبرياء[1]

(دموع وكبرياء) أول ديوان للشاعر حسن الصيرف ، وهو ينم عن شاعرية رقيقة تتسم بالبساطة والعفوية ، فالشاعر يرسل الشعر ارسالا ، وكأنه يرتجله ارتجالا ، لا بهرجة فيه ولا زخرفة ، ولا تنميق وانما هو فيض الخاطر والفؤاد .

والشاعر الصيرف فى هذا يذكرنى بالشاعر الصافى النجفى ، فكلاهما لا يحتفل بشعره ويقذف به كما تجيش به نفسه ، وان كان الصيرف أكثر رقة ، والصافى النجفى آكثر عمقا وابتكارا واسلم لغة . واذا كانت عفوية هذا الشعر قد تقربه من القلب ، فأن ضآلة جهد الفن فيه تجعله فى بعض الاحيان بعيدا عن الشعر النقى الرفيع .

وديوان الشاعر الصيرف خليط من الشعر الوجدانى ، والشعر القومى ، والشعر الاصلاحى ، وشعر المناسبات ، والشعر الفكاهى ، حتى الشعر العامى له فيه حظ ونصيب ، فكأن هذا الديوان بعض دكاكين العطارين التى يجد فيها السائل كل ما يطلبه .

والذى يبدو لى ان الاستاذ الصيرف قد مارس الشعر العامى اول الامر ، ثم انتقل منه الى الشعر الفصيح ، فلم يستطع ان يتخلص من وطأة العامية هذه ، حتى فى بعض اشعاره الفصيحة .

وشعر الصيرف لا يسير على نسق واحد فى الجودة والارتفاع ، فبينما نراه محلقا فى افاق صافية ، اذا به يهوى فجأة وبدون انذار فيلامس الحضيض بجناحيه وأنه يؤمن كالأصمعى ، بأن الشعر كساحة الملوك فيه الخزف والحصى والجوهر .

ففى قصيدة (ليالى العقيق) ، بينما نرى الشاعر يصدح كالبلبل الغريد بهذه الاشعار المرحة المرقصة :

تعالى نرقب الامواج كيف تعابث الضفة
تداعبها وتلثمها كلثم (الشفة للشفة)
وتفنى فوق مبسمها ضحية هذه الرشفة

اذا بالجو يكفهر ، وبالسماء تتلبد بالغيوم والعواصف ، واذا بالطائر الغرد مكتوم الصدى ، يجمجم بالغناء فلا يكاد يبين :

اين لحن السوانى
وحنان الاغانى
وانبثاق الامانى
وانطواء الطريق
......
ذكريات الاماسى
أترعت سم كأسى
والرجا والتناسى
منهما لا افيق

كما ان الصيرفى تنقصه الجرأة ، فهو يحب دائما ان يسير فى طريق ممهدة سار عليها غيره من الشعراء فلا يحيد عنها الا نادرا ، واذا حاد فسرعان ما يعود .

يقول حافظ ابراهيم فى قصيدته المشهورة (مصر تتحدث عن نفسها :

انـــا ان قدر الالـــه مماتى   لن ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

ويقول الصيرفى فى مطلع ديوانه (أمجاد المدينة) :

أنـــا ان بدد الزمـــان شعاعى   لن ترى النور هذه الارض بعدى

وهكذا نرى اطياف شعراء عابرين او حاضرين تتعاقب امامنا فى هذا الديوان ، مما يجعلنا نتخيل ان الشاعر الصيرفى لم يستطع بعد ان يشق بيديه طريقه الخاص به وحده .

ولما كان الشاعر قليل العناية بصقل شعره ، غير مهتم كثيرا بصفائه ونقائه ، فقد سمح لكثير من الكلمات العامية ان تدخل الى شعره .

واخشى ضجيج النهـار المنرفز   للشاعـــر الساهـــر الملهم

واعتقد ان النثر الجميل تشوهه هذه (النرفزة) فكيف الشعر .

ويقول فى قصيدة "بورسعيد"

هناك (رجال المطـاف) هلموا بنـا نحوهــم زاد هذا العيار

فزيادة العيار هذه أكثر من عامية ...
وفى القصيدة نفسها يقول :

قد انقض بعضهــم يا اخى اذن هذه غارة يا زميل
لدينـــا جزاء وفاقـــا لمن يكونـــون من نوع هذا القبيل

فيا زميل هنا باهتة جدا ، ولا محل لها وانما هى ضرب من الحشو كما ان (يكونون من نوع هذا القبيل) من الكلام الدارج بين الناس ، ثم ان الشاعر لا يتقيد بقواعد اللغة وكان ... المفروض ان يقول :
(لدينا جزاء وفاق) وليس (لدينا جزاء وفاقا ...)
وفى قصيدة اخرى يقول : ..

اسقيـت نيرانـى شرابـا باردا وصببـت فيـه ماء كأس ثانى
لم يستطيعا رغـم برد شرابهم تخفيـــف حدة ثورة النيران

والصحيح ان يقول : رغم برد شرابهما ...
والشاعر يلجأ الى الحشو الذى لا مبرر له ، فيفقد شعره الخفة والرشاقة .

وهاتيـــك أم وفى حضنها صغـــير تدثـــره بالدثار

فالدثار هنا زائد ولاضرورة له ، لانه لا يضيف الى معلوماتنا شيئا جديدا ..
وانى ذكرت هذه الشواهد على سبيل المثال لا الحصر ، فالديوان لا يخلو من امثالها .

ورغم كل هذه العيوب التى نراها فى الديوان ، والتى كان فى استطاعة الشاعر ان يتلافاها ويتجنبها لو اولى شعره شيئا من التنقيح والتدقيق ، واجرى عليه بعض التهذيب والتشذيب ، ولم يترك الطحالب فى حديقته تنمو وتتكاثر حتى لتكاد تحجب رونق الازهار ، اقول رغم كل هذا فان للصيرفى شعرا راقيا صافيا مشبعا بحرارة الاداء ، يتجاوب مع اصداء النفس فى سهولة ويسر ، ويكفى ان نذكر من شعره هذا قصيدة (الامل الكاذب) :

قد شربنا دموعنا وارتوينا / وحطمنا كؤوسنا وانتهينا
ووأدنا غرامنا وهو مازال / كعمر الزهور منذ التقينا
وبنينا قصورنا شامخات / وهدمنا بكفنا ما بنينا
ونظرنا الى الغيوم نرجي / مزنها ان تهل فى جنتينا
فأشاحت بوجهها واستدارت / ثم القت بقوس قزح الينا
وأماتت زهورنا واباحت / للجفاف المخيف غرس يدينا
واحتفظنا بها تؤجج ذكرانا / اذا ابقت الحياة علينا ..

وختاما فان للصيرفى انفاس شاعر حق ؛ وديوانه (دموع وكبرياء)شجرة طيبة ميزتها انها تعد بأكثر مما فيها ، فهى تعد بالازهار والثمار والظلال لو تعهدتها يد البستانى بالعناية والسقيا وتشذيب الاغصان .

وليس ذلك بعزيز على شاعر موهوب كالاستاذ الصيرفى ..

صقر لبنان

صقر لبنان هو اللقب الذى اطلقه النقاده مارون عبود على احمد فارس الشدياق ... فبين صقر قريش وبين صقر لبنان وجه شبه .. فر عبد الرحمن الداخل من الشام فأسس مملكة طريفة هى ما يسمى اليوم بالفردوس المفقود ، وفر الشدياق من لبنان هاربا من بطش الأميرين الشهابيين ، الأمير يوسف وابن اخيه الأمير بشير الكبير (فقد درجا على خطة الطغاة الذين يطيرون الرؤوس عن هاماتها كأنها فقاقيع صابون يتلهى بها الصبيان ، ويقهقهون عند انفلاقها) فأحيا دولة ادبية محتضرة ، وكان له اثر كبير فى نهضتنا الفكرية الحديثة .. والنفوس الكبيرة لايهدأ لها بال .. ولا يقر لها قرار حتى تعيد الى الأذهان المبدعة مجدها السليب ، وترد اليها حقها الهضيم ، وتعطيها نصيبها من الانصاف والتكريم .

وهكذا كان مارون عبود ، حتى اخرج هذا الكتاب ، فانزل من على كاهله هذا العبء واستراح ..

لقد ظل ادب الشدياق ينام تحت الثرى ردحا طويلا من الزمن ، مجهولا الا من صفوة الصفوة ، حتى كاد النسيان يرخى عليه سدوله ، لولا ان جاء (ابو محمد) فنفض عنه التراب ، وابرزه جوهرة نادرة تتألق تحت ضوء الشمس ..

عاش الشدياق فى زمن كانت فيه الركاكة فاشية ، والأدب جافا محنطا ، فاعاد اليه الحياة والصفاء والعافية ..

لقد مات والد الشدياق ولما يشب فجود خطه ، وشرع ينسخ الكتب ، ليكسب قوت يومه . ولكن النسخ لم يصلح من حاله وكأنه كان يردد فى نفسه قول الحريرى :

أف لرزق يرتجى من شق تلك القصبة

فهجر النسخ واتجه الى حرف اخرى ولكنه لم ينجح ، وظل فارغ اليد ، واخيرا ابتسم له الحظ ، واقبلت عليه الدنيا فاعارته محاسنها ، فقد صدف ان زار باريس احمد باشا باى تونس واحسن الى فقرائها بسخاء ، فمدحه الشدياق بقصيدة اولها « زارت سعاد » ثم بعث بها اليه بعد عودته إلى بلاده ، ففتن بها الباى وارسل يستقدمه اليه على بارجة حربية وجهها خصيصا ليبحر الشدياق وعائلته ، فذاق لأول مرة طعم المجد الذى طالما تاق اليه ولم يظفر به ، فعجب لهذا الاكرام العظيم حتى انه قال : (لعمرى ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقا رابحة)..

وجاء الى تونس فأغرقه الباى فى نعمه ، عهد اليه برئاسة جريدة الرائد التونسية ومديرية المعارف ، ثم أسلم وتسمى احمد ، وتكنى بأبى العباس .

وطار صيته فى الشرق والغرب ، وطمعت الأستانة به ، فطلبه جلالة السلطان عبد الحميد من سمو الباى ، فجاء الأستانة وعاش فيها حتى مات ، مبجلا مكرما ، موسعا عليه فى الرزق ، بعد ان قاسى فى مستهل حياته ما قاسى من شظف العيش ، ونكد الطالع .

كان الشدياق بحرا من اى الجهات اتيته ادهشك : كان عبقرية متعددة الجوانب ، متنوعة الثمار ، فقد كان ناسخا وكاتبا اجتماعيا ، وقصصيا ، وشاعرا وناقدا ، ومترجما وسياسيا ، وصحفيا ولغويا حتى صح فيه قول ابى نواس :

ليس على الله بمستكثر ان يجمع العالم فى واحد

أما نثره فكان فى غاية الجودة والسلاسة ..

قل ان تلقى احدا لا يتغنى بوطنه اعذب الغناء ، ويفخر بالانتساب اليه اشد الفخر ، ولكن قل ان تلقى من يجب جاره ، او يمسك لسانه عن ثلب ابناء وطنه

وامتهانهم ، والطعن عليهم ، كأن الوطن سهول وجبال ، ورياض وانهار ، وغابات واشجار فقط ، وليس مجموعة افراد يعيشون تحت سماء واحدة ، يتعاطفون ويتعاونون فى السراء والضراء ، ويرتبطون بمصير مشترك واحد ، فتأمل كيف عالج الشدياق هذا الموضوع الاجتماعى بريشته الساحـرة الساخرة :

« من الناس من يبالغ فى مدح وطنه ، ويحن اليه حنينه الى سكنه ، فيصف بقوله وثماره ودوحه واطياره ، وطيب هوائه ، ولذيذ مائه ، يزعم ان فصوله كلها كالربيع حسنا ، وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا .. ثم يزفر زفير الهائم الحيران ، ويصرخ صراخ الولهان ، الا ان حب الوطن من الايمان .. فاذا قلت له كيف جارك الأدنى لعله كان لك عونا وخدنا ؟

قال ويلى : انه شر جار ، وهو على البلاد عار وشنار .

ــ فكيف اهل الحارة طرا ؟ قال ويلى : انهم كانوا على شرا ، ولم اجد منهم إلا ضرا .

ــ فكيف اهل البلد اجمعين ؟ قال ويلى : وما منهم أمين او معين ، فما كأنهم خلقوا من ماء وطين .

ــ فكيف اهل المدن والأمصار ؟ قال ويلى : اولو غبن وغش واخفار ، ما تعامل منهم احدأ الا ويمينك بالكمد والنكد والخسار ..

فكيف اهل الجبال ؟ عسى انهم ممن صفت طويتهم ، وطاب منهم البال ، فتلك خلة قد اختصوا بها فى جميع الأزمان ؟

قال : ويلك : ومن أين لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء ، فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بها جوعه ، ويسلب صديقه فى اكلة ويحرمه هجوعه .. الخ ..

ويستمر الشدياق على هذ النمط الجميل من التصوير والتعبير حتى يصرخ اخيرا فى وجهه :

لو كنت من الصالحين لما رأيت فى غيرك خلقا يشين ، فانما ينظر فى عيوب الناس من هو اسوأ منهم حالا :

ومـــن يك ذا فم مر مريض يجـــد مراً بـه الماء الزلالا

ولا يحسبن القارىء ان الشدياق كان ميالا الى السجع فى كل ما كتب فقد يؤثر عليه الترسل ، وإن لم تخل منه كتاباته ، وذلك مجاراة منه لعصره ، واظهارا لبراعته ، ومقدرته على العزف على اوتار الفنون الأدبية .
اليس هو القائل : « السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشى ، فيبغى ان لا اتوكأ عليه فى جميع طرق التعبير ، لئلا تضيق بى مذاهبه ، او يرمينى فى ورطة لا مناص منها .
والشدياق من ابعد الكتاب عن التزويق والتنميق ، فقد كان يرسل نفسه على سجيتها ويرخى العنان لقلمه ، ليصول ويجول ، ويقول ما يقول ، معتمدا على اشعاع الفكر اكثر من اعتماده على بريق اللفظ . يقول فى (الفارياق): وبعد فانى قد علمت بالتجربة ان هذه المحسنات البديعية التى يتهور فيها المؤلفون ، كثيرا ما تشغل القارىء ، بظاهر اللفظ عن باطن المعنى ».
ولكن هذا لم يوهن من لغته فقد كان اسلوبه ، على سهولته وسلاسته ، متين الأسر ، صحيح التركيب ، فصيح العبارة ، دقيق اللفظ ، ولا غرو فقد كان الشدياق لغوياً من الطراز الأول ، لا تمر به لفظة دون ان يحللها تحليلا ، ويمحصها تمحيصا ..
يقول فى (سر الليالى فى القلب والابدال):
« من فوائد سر الليالى اذا اتخذت الفعل المضاعف اصلا وفرعت عليه جميع الأفعال وجدت بينه وبينها تناسبا وتجانسا .. مثال ذلك لفظة : فت فان معناه الدق والكسر بالأصبع ، ولازمه التفتح لأن كل ما انكسر انفتح ثم تقول فتأكمنع كسر واطفأ .
وما فتأ مثلثه اى ما زال ، وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع ثم فتقه شقه ، ثم الفتك ان يأتى الرجل صاحبه وهو غافل حتى يشد عليه فيقتله وهو غير منقطع عن معنى الكسر ... ثم الفتى الشاب ، والفتا الشباب ، وحقيقة معناه تفتح الصبى فى سنه .. الخ)

فتأمل تلك الدقة فى التمحيص ، وذلك السعى المتواصل الى اكتشاف العلاقات الخفية بين الفاظ اللغة . وقد انكشف له فى هذا الميدان اسرار لم تنكشف لغيره ، وكل من بحثوا بعده فى هذا الباب كانوا عيالا عليه ، وان لم يشيروا فى ذلك اليه .

أما فى الصحافة فان (جوائبه) التى شرقت وغربت ظفرت بشهرة واسعة قل نظيرها ، وكانت مثال الديباجة العربية الصحيحة ، كما كانت مثالا حيا سارت على نسقه جميع الصحف العربية التى تلتها .

كان الشدياق ، الى نثره البارع ، ولغته الدقيقة الغنية ، شاعرا مجيدا وان كان شعره اقل جودة من نثره ، واضعف ابتكارا . فقصيدته (زارت سعاد) كما اسلفنا هى التى فتحت امامه ابواب المجد المغلقة ، فغرق فى النعمة والشهرة والجاه بين عشية وضحاها .

لقد كانت هجرة الشدياق من لبنان خيرا وبركة على الأدب العربى . فقد هاجر الى مصر ومالطة وباريس ولندن ، واستقر اخيرا فى الاستانة حتى وافاه اجله .. وقد انشأ خلال هذه الهجرة الطويلة : الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، وكشف المخبأ عن فنون اوروبا ، والساق على الساق فيما هو الفارياق ، وغير ذلك من الآثار الأدبية الرائعة .

كتب الشدياق كل ذلك بأسلوب عربى مبين فيه ظرف وفيه سخرية ، وفيه فكاهة ، بينما كانت الركاكة طاغية فى عصره ، وكان التعلق بالقشور اللفظية اكبرهم ادبائه وكتابه ، حتى اصبح قبلة الأنظار فى التأليف والانشاء مدة نصف قرن .

لقد جعل مارون عبود الشدياق يعيش بيننا بلحمه ودمه وظرفه . اطلعه من غياهب القرن التاسع عشر فاذانا نراه يكتب كما نكتب نحن اليوم ، بلغة سهلة واضحة ، لا تقعر فيها ولا تشدق ، ولا غموض ولا ابهام ، هدفها قبل كل شيء البيان ، والتعبير عن الأفكار بعبارة سليمة مفهومة ، اضف الى ذلك خفة فى الروح ، وسعة فى الادراك ، واطلاعا كبيرا على الآداب العالمية ، ومعرفة عميقة بدخائل النفس الانسانية ، كسب كل ذلك فى ترحاله وتجواله فى شتى البقاع

والأمصار .

لقد اظهر لنا مارون عبود كل ذلك ، بأسلوبه الخاص الذى يعتمد على القفز والجمز وخفة الحركة ، فهو لايدع الملل يتسرب الينا ، وما ان يشعر بشىء من ذلك حتى تراه فجأة ينتقل إلى نادرة لطيفة ، او حكاية طريفة ، تعيد الى القارىء نشاطه ، وتنعش شوقه الى متابعة مطالعة الكتاب . لم يسر مارون عبود على دروب التراجم المرسومة كغيره من المؤلفين المحدثين ، بل كان يسير على هواه ، فهو يستطرد حين يحلو له الاستطراد ، يرى فى ذلك امتاعا للقارىء ، واشباعا لنهمه الفكرى ، وهذه الطريقة عرف بها مارون عبود وعرفت به ، كما عرف الجاحظ من قبل بطريقته المعهودة . فمارون يكره دائما المشى على الطرق المعبدة والاستعانة بعكاكيز الاخرين ، ولا يمشى الا على ضوء عقله ، ولو ادى ذلك الى التعثر فى المسالك الوعرة .

طيب الله ذكراك يا أبا محمد ، فقد اخرجت لنا الشدياق من الظلمات الى النور وعرفتنا بمآثره ، وماله من يد بيضاء على الأدب العربى ، واللغة العربية ، واعدت اليه حقه السليب من الانصاف والتكريم ، فهل من باحث يعيد اليك حقك كما اعدت اليه حقه ؟

شاعر من جزائر اللؤلؤ

لم اقرأ من قبل شيئا للشاعر غازى عبد الرحمن القصيبى ، ولم أسمع عنه ، وهذا لا يضيره فى شىء ، ولا يغض من قيمة شعره ، وكم فى عالم الأدب ، من أسماء ضخمة لا تجد عندها سوى رنين الطبل الأجوف . قلت هذا لأؤكد أن الشهرة لا تقدم ولا تؤخر فى قضايا الفن ، والذى يهم قبل كل شىء هو ما يمنحه الأثر الفنى من انطباع .

والذى يبدو لى ، بعد أن طالعت ديوان (القصيبى) (أشعار من جزائر اللؤلؤ) أن الشاعر لم ينشر هذه القصائد إلا بعد ممارسة طويلة للشعر ، فقد يكون هذا الديوان باكورة شعره ، ولكنه حتما ليس أول شعره ، وأنا أعتقد أن الشاعر قد جاهد كثيرا حتى بلغ هذه الدرجة من الصفاء والشفافية ..

يبدأ الشاعر ديوانه الأنيق بالحنين الى وطنه ، فالشاعر فى ديار الغربة ريشة تلفظها الدروب ، بعيد عن أهله واحبائه وأرضه الطيبة :

« حيث المساء يطل فى صمت ، ويخطر فى دعة »
« ويعانق الآفاق .. يمنح كل قلب اذرعه »

ولكن ما أن تلوح أمام عينيه (المنامة) ويرن فى أذنيه (نداء مئذنة مضوأة ترفرف كالحمامة) حتى يهتف من أعمق أعماقه فرحا بلقاء أرض الوطن ، موطن الأصداف ..

ويتدرج بنا الشاعر فى ديوانه من الحنين الى عواطف مختلفة يسكبها من قلبه فى صدق وحرارة وحلاوة ، فمن اللوعة الى القلق ، ومن القنوط الى الرجاء ، ومن

الرضى الى النقمة ، شأنه فى ذلك شأن كل شاعر حساس يمر بانفعالات شتى ، فى خلال حياته المتلئة بالاحلام والأوهام والحب .

وديوان الشاعر (القصيبى) مزيج من الرومانتيكية والرمزية ، فعلى أكثر أبياته تطفو مسحة خفيفة من الكآبة ، كما أن فيه بعض ملامح الرمزية ، من قفز فى الصور وتركيز لها،على أن ذلك لم يمنع أن يكون شعره واضحا كالشمس لا غموض فيه ولا إبهام ، وهو يذكرنا فى شعره ببعض الشعراء المحدثين فى لبنان ، ففيه سهولة ذلك الشعر ، وايقاعه ، وهدهدته ، واعتماده على العاطفة المتدفقة أكثر من اعتماده على الذهن المولد ، وأننا لا نعدم فيه مقطوعات تذكرنا بشعر نزار قبانى ، وعمر ابو ريشة والياس أبو شبكة ، على أن هذا التذكير لا ينتقص من شعره ، فالشاعر يسلك دربه الخاص ، وهو شاعر متمكن من فنه ، لا غبار على شاعريته :

تعـــالى غدا ستجـــف المنى ... وتذبـــل أوراقهـــا المزهرة
أخاف على الـــورد فى الوجنتين ... إذا هبـــت الريـــح أن تنثره

ولعل من أجمل ما فى شعر (القصيبى) هو هذه (الغنائية) التى تنساب فى عروق شعره ، فى صفاء ورقة وهدوء ، حتى لتجىء الصورة والعاطفة والنغم ، فى إطار متماسك وكأنها فلذة واحدة مغمورة بالجمال .

وما أحرى هذا الشعر أن يلحن ويغنى ففيه كل مقومات الشعر الغنائى .

وإذا كان لنا من مأخذ على هذا الشاعر الغنائى الرقيق فهو لجوءه أحيانا الى الشعر الحر ، مما جعلنا نشعر بانقطاع فى أنغامه المسترسلة ، وارتخاء فى توتره الشعرى .

فالقصيبى الشاعر الرقيق الأنيق الذى يختار ألفاظه وألحانه فى دقة ، ومهارة ، يدخل الى قصائده ، حين يلجأ الى الشعر الحر ، التوافه التى قد تسمح بها القصة ولكن الشعر الحق يرفضها ويأباها كل الاباء ..

وإلا فما هى الشاعرية مثلا فى قصيدته الحرة « شباب » حيث يقول :

فيقفز فى وجهنا سائل ويهتف (ادعـــوا الالـــه العظيم
يديم عليكم ليالى الشباب)

فيذكرنا بقصيدة « البياتى » الطيبة الذكر (الشمس والحمر الهزيلة والذباب) .

ألا يشعر الشاعر القصيبى بغصة الألم حين يسمح لهذا الحشو الركيك بأن يتصدر فى ديوانه الى جانب أبياته المرقصة ؟

وفى الديوان بعض التعابير التى لم يستسغها ذوقى وهى ـ ولله الحمد جد قليلة ، مثل :

ويا جنـــة لم أذق خمرها ويا شفـــة لم تدسهـــا القبل

فأنا أحب الابتكار فى الشعر ، وأرى فيه ملحه الذى لا يصلح إلا به ، وأحب الصور الجريئة التى تجعلنى أقطع مطالعتى وأذهل ، والتى تغنى تجربتى فى الحياة ، ولكن على شرط أن تكون موفقة ، حلوة ، يستسيغها الذوق والفطرة .

ولكن دوس القبل للشفاه ينأى بنا كثيراً عن مواطن الحسن ، أن لم نقل إن فيه كل القبح ،فالقبلة قد تلامس الشفة برفق أو قد تلتهمها فى عنف ، ولكن لا تدوسها أبداً ، ولاسيما أن الشاعر جعل القبلة هنا قبلة اشتهاء ، وليست قبلة نفاق أو ازدراء ، إذا صح هذا التعبير ..

ورغم هذه الهنات القليلة فان ديوان القصيبى (أشعار من جزائر اللؤلؤ) يبشر بشاعرية خصبة ، وفيه كثير من صفاء لؤلؤ تلك الجزائر ، وهو ديوان حافل بالرقة ، والنغم ، ويزيد من ثروتنا العاطفية والنفسية ، ويجعلنا نحيا معه ساعات مجنحة ، ممتعة ، وهو من الدواوين القليلة التى اخرجتها المطابع فى هذه الأيام ، والتى تستحق أن تسمى شعرا ..

الرائد : هذا الديوان بعث الينا كهدية وأن لم يحمل ألفاظ الاهداء التى اعتادها الناس حين تسجل على إحدى صفحات كتاب ما وقد رجونا استاذنا الدكتور قياسه دراسته والكتابة عنه فقدم هذا الموجز الجميل فشكرا لصاحب الديوان والكاتب .

أطياف من الماضى

مجموعة شعرية لطيفة للشاعر محمد عبد القادر فقيه ، وهى من منشورات المكتبة الصغيرة .

فالصديق الاستاذ عبد العزيز الرفاعى لا يدع مكرمة تفوته ، فهو كما يساهم بقلمه النير فى شتى المجالات ، يساهم فى بعث النهضة الادبية ، ونشر الآثار الفكرية ، ورفع الغطاء عن المواهب الاصيلة ، وازالة الحواجز من طريقها لتبث اشعاعها .

والاستاذ الرفاعى وفى يحب الوفاء ، مرهف بحب المرهفين ، لذلك اختار هذه الاشعار ، فكان له الفضل فى اطلاعنا على هذه الطاقة العطرة من شعر الاستاذ فقيه ولو أنى رحت أرسم صورة للشاعر من خلال شعره ، لما استطعت ان ازيد على الصورة التى رسمها هو لنفسه بنفسه ، بهذين البيتين :

الآن لا سكن لدى ولا رفيـــق أو حبيب
متوحـــدا كالنسر ســـا لت من قوادمـــه الندوب

لقد تناثر رفاق الشاعر فى الدروب ، وغاب احبته فى الافاق ، فهل امامه غير الماضى وذكرياته واحلامه يلتمس فيه البرء من الاحزان ، أو يجد فيه على الاقل ، بعض العزاء والسلوان .. (اطياف من الماضى) تكاد تكون قصيدة واحدة تدور ابياتها جميعا على الحب والوفاء ، والحنين والأنين .

وشعر الاستاذ فقيه شعر هادىء كأنسام العشيات ، يسير الهوينى ، لا ضجة فيه ولا صخب ، فكأنه الساقية تنساب بين الاعشاب ، ليس له هدير النهر ، ولا جرجرة البحر ، ولا زئير العواصف ، ولكنه شعر صاف ينم عن نفس وديعة ، وفيه ، محبة للخير والسلام ، مقدرة للجميل ، منطوية وراء احلامها ،

كأنها بنفسجة الحقل الخجول ، لا تكاد تراها لولا شذاها .

تأمل كيف يخاطب النبع :

يا نبع ان بردت مياهك فى الهواجر والاصيل

وتعطرت منك الخمائل وازدهى فيك المقيل

واتاك ملهوف ضننت عليـه بالنـزر القليـل

عهد على بأن يجف ثراك مادمت البخيل

فهى ابيات فياضة بمشاعر انسانية خيرة ، تذكرنا ببيت ابى العلاء :

فلا هطلــت على ولا بأرضي سحائـب ليس تنتظـم البلادا

فالاستاذ فقيه ليس شاعرا هنا بألفاظه فقط ، وانما هو شاعر بانسانيته ايضا .

فهو بثورته على البخل ، وحدبه على الظامئين ، وعطفه على المحرومين ، لا يقل شاعرية عنه فى شعره .

وشعر الاستاذ فقيه شعر واضح وصريح ، رقيق البث ، لا لف فيه ولا دوران ، فهو يأخذ بزمام الكلمة ويتحكم فيها ، ويصرفها حسب مشيئته فلا حشو ولا ترقيع ، ولا قسر للقافيه ولا اعنات .

وقصيدته (حب الطفولة) توضح ذلك احسن توضيح ، وهى فى رأيى من أروع ما فى المجموعة من قصائد ومطلعها :

طفــلان فى عمــر الزنابق ما لهــم فى الحــب حيلة

انها تمثل حقا الحب البرىء ، الحب الذى نبت فى اعماق هذين الطفلين كما نبتت فى الراحتين الاصابع ، ولكن الزمان المشتت يمر وتتزوج الفتاة .. ويلتقى بها الشاعر صدفة ذات مساء ، وامامها طفلان كالأزهار ، وما ان تقع عينه عليها ، حتى يتضرج وجهها بشفق الخجل ، فيحس الشاعر ان حبهما اقوى من الزمان والموت ، ويرى انها لا تزال تحتفظ لذلك الحب بزاوية عزيزة من قلبها ، فيكبر وفاءها لعهد بعيد مضى وانقضى ، ويختتم الشاعر قصيدته بهذا البيت

المؤثر :

ومضـــت تلـــم زهورها والـــم من قلبـــي فلوله

الشاعر مشبوب العاطفة ، مرهف الشعور ، يغنى فيجعلنا نفرح لفرحه ، ونأسى لأساه .. ومعنى ذلك اننا أمام شاعر يتنفس الشعر ملء رئتيه ، ويمتلك موهبة حقيقية لا زيف فيها ، وان كان شعره يستمد تأثيره من دفء العاطفة ، وصدق اللهجة ، وصفاء الديباجة أكثر مما يستمده من جرأة الخيال ، وطرافة الصور .

فخيال الشاعر متحفظ غالبا ، فهو لا ينبثق انبثاقا ، ولا يندفع اندفاعا ، وانما يبدو وكأنه مكبل ، أو مثقل بشيء ما .

فالوثبات الخيالية التى تومض كالبرق فى ثنايا القصيدة ، هى التى تزيد الشعر روعة ، وتضفى عليه سحرا وجدة .

ولو ان الاستاذ فقيه اطلق لخياله العنان ، وحاول الاتيان بالصور الطريفة ، والتشابيه الذاتية المبتكرة أكثر وأكثر ، لكان لنا منه شاعر رقيق وعميق فى آن واحد .

وليس ذلك عليه بعزيز اذا شاء ، فالامر لا يحتاج الا الى جرأة منه وانطلاق ، وشاعرية الاستاذ فقيه الشفافة تجعلنا لا نسكت عن بعض اخطائه النحوية واللغوية .

يقول الشاعر :

طفـــلان فى عمـــر الزنابق ما لهـــم فى الحـــب حيلة

والصحيح (ما لهما) فهى مثنى ويقول : ياشعب سميها انكســار ، والصحيح (سمها) بحذف الاخر ، ويقول : ولم ينتابها الفزع والصحيح (لم ينتبها) ، ويقول

والآن لا سكن لدى ولا رفيـــق أو حبيب

متوحدا كالنسر سالت من قوادمه الندوب ..

ولا ادرى لماذا نصب الشاعر (متوحدا) على الحال ، ولم يرفعها لأنها خبر لمبتدأ محذوف .

ويقول : اسمعتها جملا مطولة ، والصحيح (جملا طويلة) .

ولا شك أن الشاعر كان بامكانه تلافى ذلك ، فالشعر يجب أن يكون براء من العيوب ، فهو كالثوب الناصع البياض ، أقل بقعة فيه تبدو للعيون صارخة ، جلية .

ومهما يكن من شىء فان (اطياف من الماضى) طاقة شعرية شذية ، جديرة حقا بالحفاوة ، وحسبها مزية انها تعد بثمار أشهى وابهى .

أمين نخله.. شاعر الاناقة

الشاعر امين نخله هو ابن الشاعر الزجلى رشيد نخله الذى تغنى بجمال لبنان فأعجب واطرب ، حتى قيل انه بشعره جعل القمر احلى من القمر ، والنسيم ارق من النسيم ، فلا غرو ان ينشأ شاعرنا امين وبين جوانحه ذخيرة طيبة من الشعر الرقيق الانيق ، ولست تلمس هذه الرقة والاناقة فى شعره فحسب ، وانما تلمسها ايضا فى نثره واضحة صارخة . فأسلوبه فى الكتابة نسيج وحده يدل عليه ، كما يدل على البنفسجة عرفها الذكى ، فلا تخفى على العيون ، مهما امعنت فى الاختباء بين الاعشاب . وهذا الاسلوب المتميز الخاص به يشهد له بالاصالة الادبية . فالاديب الحق قد يتلقى الانطباعات الخارجية ، كما يتلقاها غيره من الناس ، ولكن سر تفرده هو فى هذا الرداء الخارجى الذى يضفيه عليها من نفسه ، فاذا هى جديدة كل الجدة ، طريفة كل الطرافة . حتى لتحسبها قد اخترعها اختراعا ، وابدعها ابداعا . وما عليك الا ان تفتح (مفكرته الريفية) لتلمس بعينيك اناقة امين لمسا ، ولترى أي اسلوب هو اسلوب امين فى الكتابة ، هو اسلوب ، كل لفظة من لفظاته تقطر فى الحلق حلاوة وطلاوة ، وكل جملة من جمله تسيل سحرا وشعرا ، تقرأها فاذا انت فى روضة بهجة ابان الربيع ، لا تدرى : أأنت نشوان من رفيف الازهار ، ام من تغنى الاطيار ، ام من رقصة الشعاع على ذوائب الاشجار ، ام من انتشار الشذا فى الافكار ، فتتمهل فى المطالعة ، وتستأنى وتقف عند كل حرف كأنك تخشى ان يفر منك هذا العالم المسحور . وامين نخله ، على هذه الموهبة الشعرية التى تتدفق فى عروقه شاعر مقل ، فليس له الا قصائد معدودة ضمنها دفتى كتاب صغير اسماه (دفتر الغزل) ومجموعة شعرية اخرى ، رغم انه قال شعرا جيدا منذ زمن بعيد جعل شوقى يقول عنه عام ١٩٢٥ :

هــــذا ولى لعهــدى وقيـــم الشعـــر بعـــدى

وهذا يدل على ان شاعرنا لا يرسل الشعر ارسالا ، وانما يمحصه ، ويدققه ، ويزن كل كلمة من كلماته ، وانه يقول الشعر تنفيسا عن عواطفه المضطرمة ، وتعبيرا عن أحلامه المتموجة ، واستجابة لتوتره النفسى ..

والشعر لا يقاس بالطول والعرض ، او بالضخامة والكثرة ، فكم من شاعر خلدته قصيدة واحدة ، وآخر طواه النسيان ، ولو جمعت ما قاله فى حياته من شعر لملأت به المجلدات الضخام . ألست ترى الفراشة على ضالة جرمها ، تحمل من فنون الجمال ما يدهش الخيال ، والزهرة الرقيقة ، على بساطتها ، آية فى الابداع والكمال .

وشعر امين مزيج من الرومانتيكية والرمزية والاصالة العربية ، ولكن رمزيته ليست مفرقة فى العتمة ، فهو يبرز التجربة الحيوية ، التى تمرس بها تحت جو من الايحاء والايماء ، ولكنه جو شفاف يرخى عليه الشاعر بعض الظلال ليزيده فتنه ورونقا ، لا كغيره من الشعراء الذين كما قال عنهم « نيتشه » : يعكرون مياههم باقدامهم كى يوهموا الناس انهم يسبحون فى لجج بعيدة الاغوار .. فحين يعبر امين كما يعبر الرمزيون :

كأن الصحو يلمـــع فى ضلوعى ويخفق فى فؤادى ألـــف غصن

نراه يقدم شعرا واضحا شفافا كالزجاج ، رغم انه ينقل حالة نفسية معقدة ، لا صورة شكلية بسيطة ، لكن الذى يساعد امين على الوضوح هو ما فطر عليه من فصاحة فى اللسان ، وقوة فى البيان ، ورشاقة فى التعبير ، تذكرنا برشاقة الجاحظ ، فأمين مهما اوغل فى الادغال الملتفة المتكاثفة أو غاص فى القرارات السحيقة المعتمة لا يغيب عن ابصارنا ، بل ترانا نتابعه فى شوق ولهفة .

واذا كان امين يقول فى احدى قصائدة :

انظم الشعر مثلما يورق الغصن ويهمى النـــدى ويسرى العبير

فأنا لا أرى انه ينظم الشعر بسهولة فائقة مثلما يهمى الندى او يسرى العبير ، فشعره وان كان له رقة الندى ، ورائحة العبير ، هو وليد عمل بطىء متمهل ، كل لفظة من ألفاظه تحتل فى وقار مكانها اللائق بها فلا احد يستطيع زحزحتها ، وهذا لا يؤتى الا بمزيد من اختيار الالفاظ وصقلها ، وملازمة اكيدة للكدح الشعرى الذى لا هوادة فيه ، وقصائد امين نخلة عمائر كاملة ، ان لم تكن كناطحات السحاب شموخا وذهابا فى الفضاء ، فهى مقاصير انيقة ذات رونق ورواء ، قليلة الارتفاع الا انها مستوفية الشروط الصحية ، فمن كل جانب من جوانبها تهب نسمات منعشة من الهواء النقى ، وعلى كل جدار من جدرانها تنهمر دفقات سخية من الضياء ، الغصون العليلة تحف بها ، وروائح الورود الجميلة تنبعث من حولها ، ولا ننسى الطراوة والماء والنداوة ، فهى ملازمة لشعر امين ملازمة الظل للنور .

نظلم امين نخلة اذا فرطنا قصائده ، ونظرنا اليها كأبيات منفردة ، فليس كل الجمال فيها ، وانما قصائده سياق شعرى آخذ بعضه برقاب بعض ، وتدرج عذب ملون يرتفع بك فى دعة وهدوء ، وفى جرس خافت مؤثر حتى يبلغ ما يريد ، فكأنها امواج البحر الساجى تحملنا على اعرافها المهدهدة حتى تصل بنا الى شاطىء الجمال .

والرنة الموسيقية فى شعر امين وان كانت هادئة غير مصطخبة ، صافية كل الصفاء فكأنها ترجيع ناى حنون فى ليلة مقمرة .

ولست ادرى لماذا يساورنى شعور كالطرب حين اردد هذا البيت :

يا غصن يا مضنـــى بلا سبب   مل نحونـــا يا غصــن يامضنى

مع انه شعر بسيط ، كأبسط ما يكون الشعر او النثر ، لا يحوى أى التماعة تقفز بالخيال . ولعل ما يوحيه من الطرب ناجم عن هذه النونات المتلاحقة ، وما يسلسله تلاحقها فى النفس من موسيقى عذبه ،

أو عن هذه اللهجة الشجية المؤثرة التى يستقيها الشاعر من قرارة ذاته ، فتختلج فى شعره ، فاذا هو يمازج النفس بالاسى والحنين . ومن ذا الذى ينكر ما

للهجة من اثر بليغ ؟ فكم من شعر منسجم الملامح ، عذب الايقاع والرنين ، مرصوف بالتشابية البديعة ، يروق السمع ويعجب الخيال ، ولكنه لا يترك صدى عميقا فى انحاء النفس ، لان لهجة قائلة لم تستطع ان تجاوز الحواس فتخالط اللحم والدم .

يقول الناقد الكبير « مارون عبود » فى صدد حديثه عن غزل امين نخلة وكأنه يتعمد الغض منه :

« ليس الغزل فى معانيه الطريفة ، ولا فى لغته اليابسة . الغزل ملاكه عاطفة متقدة .. يسعرها الحرمان ، ويذكيها التحرق ، ويعبر عنها « بكلام بسام غير متجهم » .

اما ان الغزل ملاكه عاطفة متقدة يسعرها الحرمان ، ويذكيها التحرق فهذا صحيح ، ولكن ليس من الضرورى ان يتلظى الحب نارا آكلة فى الشعر ، ويظهر دخانه على الالفاظ ، وليس الغزل كله هيجانا وفورانا واشتعالا وحريقا ، فمنه ما هو هادىء ناعم ، وغزل امين نخله من هذا النوع ، واذا كان يخلو شعره من العاطفة التى تتوقد حتى تحرق ، ومن الزفرات التى تقتلع الاخضر واليابس ، ومن النفس التى تذوب حسرات ، والعيون التى ترسل الدموع كلما لاح بارق فى محيا ، فانه مترع باللفتات الوجدانية العبقة ، والاشارات اللطيفة المبتكرة . فما الطف الامين حين يتغزل باسم الحبيب قائلا :

يطيب بأسمك ريقى فى مدار فمى ويستقر لسانى فوق سكرة
وكم تذوقت بعد اللفظ احرفه كأنها ما مضت من بعد ان مضت
حرف من اسمك اشهى لذة وشذا فى سرحة الحب من ريح معطرة

ويصف امين صوت موسى المغنى :

صوتك ذو الغنج دونما كلف زهدنى فى الدلال والحور
كأن فيه من حسن غانية كل المعانى من غير ما صور
يصب فى الروح ام يلالىء أم ينشر فيه روائح الزهر ..

فيصور وقع الغناء فى الروح وما يثير من تموجات لذيذة ، واحاسيس ممتزجة مختلفة ، بالفاظ مختارة رشيقة كلها غناء وايحاء . والذى يصف صوت المغنى بانه يلالىء فى الروح وينشر فيه روائح الزهر هو ولا شك شاعر زرع الربيع فى قلبه جماله السخى ، ولا غرو فأمين ابن (الباروك) ، ابن الربى الضاحكة والمروج الزاهية ، والمياه الدافقة . أليس هو القائل :

وأنا ابن الغمام والسفح والدوح بلادى حيث الربــى والهدير .

حكاية عمر

لبولس سلامة

بولس سلامه ، ابن الجبل الملهم لبنان ، له قلم ناضر البث ، شهى الثمر . اديب متضلع ، رحب الجوانب اخذ من القديم وضوح العبارة ، وفصاحة البيان ومن الحديث بعد النظرة ، وطرافة الفكرة ، ومن الجبل الاشم لبنان ، الاباء والعنفوان ، وظل دائما عامر القلب بالاخلاص لعروبته ، والحب لوطنه والوفاء لانسانيته .

كتب فى الشعر فترك فى دنيا الادب العربى دويا ، واضاف الى قيثارته وترا جهيرا جديدا ، وتر الملاحم والبطولات . « فعيد الغدير » و « عيد الرياض » ملحمتان فذتان بل تحفتان رائعتان لم يسبقه اليهما احد من العرب قديما او حديثا . ملحمتان ليستا شعرا مجنحا رفيعا فحسب ، بل هما ايضا خلاصة نفس مرهفة معذبة تمرست بالحياة ، وغاصت تحت اثباجها ، فعرفت خيرها وشرها ، وذاقت حلوها ومرها ، فزرعت افكارها وتجاربها واحلامها فى هاتين الملحمتين حتى غدتا منجما غنيا للفكر ، ومسرحا رحبا للتأمل والخيال .

ومن العجب ان شعر بولس سلامه لا تذبل جدته ، ولا تنصل الوانه على اختلاف الفصول وتباين الاحوال ، وتكرار المطالعة ، بل يزداد عطاء ورونقا مع نمو الانسان ويتكشف كل آن عن حلاوة جديدة .

ذلك هو الشعر الخالد الذى ينهل من الثقافة العميقة ، والبصيرة النفاذة ، ويظل بعد كل ذلك مغمورا بما يشبه براءة الطفولة وغضارة الرياحين ابان ميعة الربيع .

ونثر بولس سلامه توأم شعره فى البهاء والرواء ، بل هو فلذة من صميمه وان كان لا يزدان بالقوافى والاوزان .

و « حكاية عمر » كتابه الاخير شاهد على ذلك . والكتاب جزآن اولهما رسالة مسهبة وثانيهما مقالات مختلفة .

والرسالة ليست سوى صدى لبعض ذكريات الاديب الكبير ، منها ما يمتد الى عهد الصبا اللاهى الخصيب ، ومنها ما يرجع الى امد غير بعيد ، يرويها بولس سلامه فى حدب وحنو لحفيده (فادى) ليبصره بالحياة ، وينير امامه الطريق ، وليفيد من العظة والعبرة وليعرف اشياء واشياء عن جده الاديب الشاعر ، واخيرا ليتخذ منه مثلا فى الصبر والرجولة والعبقرية ...

والذى يقرأ سيرة بولس سلامه يعجب لايوب القرن العشرين ، كيف اعطى كل هذا العطاء المبارك وهو يتلوى على نيران الألم ، أليس هو القائل :

حطمت سورة العذاب يراعى ... واستباحت فمى وغلت يديا
اتلوى على الجراح صباحا ... ويفت الناسور عظمى عشيا
فتعجب لسابح فى جحيم ... رده الخطب زورقا بشريا ..

لكن الألم جعل آثار بولس سلامه جميعا أعلق بالنفس ، واسرع الى القلب لما فيها من توهج فى العاطفة ، وتغلغل فى صميم الحياة .

اما المقالات فنظرات فى النقد وتأملات فى الطبيعة والكون ، تنم عن حس مشبوب ، وذوق مرهف ، وجرأة محببة لانها لا تتوخى غير الحق ، وعين كلفة بالجمال قلما تخطىء الهدف .

ولا ريب ان هذا الكتاب ، ان لم يكن ترجمة كاملة لحياة مؤلفه ، فهو على الأقل يلقى كثيراً من الضوء على بعض منها ، وقد كتب بأسلوب انيق رشيق يعرف كيف يخرج السوانح والافكار من الظلمات الى النور .

ولله ما ابدع الطبيعة بين انامل هذا الكاتب ، فهى تختلج حية كأنها فى مهدها الممتد من الازل الى الابد .

ولا عجب فالكاتب ابن الجبل بين ينابيعه وصخوره نشأ ، وفى غاباته ومروجه ترعرع ، رأى العاصفة وهى تضرب القمم الشامخة ، والضباب وهو ينسج

بأصابع اللألاء ، والعشايا وهى تسفح الهدوء والشذى ، والطيور وهى تتواثب من اعشاشها المطلولة بالندى ، فانطبع ذلك كله فى خياله ، وانعكس على آثاره ، فجاءت تختال فى غلالة شفافة من سحر الطبيعة الذى لا يحد ولا ينفد .

« حكاية عمر » مزيج من الفلسفة والشعر والتربية ، وهى قبل كل شىء ، حكاية نفس بصيره ملأها الزمان بالخبره ، وأثقلها التأمل بالمعرفة ، فطاب جناها .

فبورك ذلك القلم الذى ضم المجد من طرفيه : الشعر والنثر ، وفى آن واحد ذاب حلاوه وتفجر عمقا .

وعسى ان يتاح للصديق بولس ، عمر مديد ليطلع علينا بحكاياته وطرائفه وشعره حينا بعد حين ، طلوع الشمس على ذرا لبنان ، فنقرأ ونطرب ونستزيد .

أيام في الشرق الأقصى

كان اول معرفتى بالاستاذ على فدعق فى لحظة غير سعيدة .

ففى هاجرة قائظة ، جاءنى الصديق الشهم الاستاذ عبد العزيز الرفاعى متلهفا ، وطلب منى مرافقته لمعالجة صديق له مريض ، أثير لديه .

وما ان دخلنا حديقة البيت حتى شعرت بروح تهوى الجمال ، وتحب التنظيم والتنسيق ، فهنا مجموعة من الطيور الغريبة المختلفة الالوان تتواثب مرحة فى عش اصطناعى كبير مزخرف ، وهناك ازهار بهيجة تصطف فى ارتال بديعة وكأنها تحيى بابتسام كل قادم ، وهناك اشجار فتية متدلية الأغصان تشكل فيما بينهـا زوايا حميمة تصلح للسهر والسمر ...

وولجنا غرفة المريض فاذا دواوين شعرية حديثة ، بعضها تكدس على منضدة صغيرة الى جانبه ، وبعضها تناثر فى فوضى محببة على السرير . فعرفت اننى ازاء رجل شاعر ، او متذوق للشعر على الاقل . فالدواوين الشعرية لا يقتنيها الا شاعر ، أو موله بالشعر .

وتمر الايام ، وفى لحظة من اللحظات السعيدة يهدى الى الاستاذ على نسخة من كتابه الحديث (أيام فى الشرق الأقصى) واطالعه فى نهم ولذة ، فأجد فيه ما وجدته سابقا فى حديقة بيته : روحا تهوى الجمال وتكره القبح ، وتحب التنظيم والتنسيق : روح شاعر حق .

ومن هنا لم يكن تدوين هذه الرحلة فى رأيى ، الا تلبية لرغبة ملحة طالما جاشت فى اعماق المؤلف ، ولم يكن هذا الكتاب سوى صدى لانطباعاته واحاسيسه المرهفة وهو يطير من بلد الى بلد فى الشرق الأقصى .

فالاستاذ فدعق لم يعتمد على ما سمع ، او قرأ ، بل اعتمد على ما رأى بعينيه المحملقتين الراصدتين ، ولذلك كان يقف طويلا عند بعض المشاهد ليصفها لنا وصفا واقعيا دقيقا فيه كثير من الجدة والطرافة ، وفى بعض الاحوال

نراه لا يطيل الوقفة بل يمر خطفا ولكنه يترك لنا من ريشته بعض الظلال الموحية التى تغنى عن التعبير الكثير .

ومن طرائف هذا الكتاب ان المؤلف لا يقبع فى زاوية معتمة ، ثم يبدأ بالشرح والقص والارشاد بل يندمج فى البيئة التى يتحرك فيها اندماجا كليا ، كأنه بطل من ابطال القصص ، فتراه حينا مبتسما ، وحينا متبرما ، تارة مرحا وطورا متألما ، مما ابعد كتابه هذا عن الاملال ، وخلع عليه كثيرا من الحيوية ، وجعله مشحونا بالظرف والفكاهة والامتاع حتى ليتمنى القارىء لو كانت صفحات الكتاب اكثر امتدادا .

جاب المؤلف كثيرا من بلدان الشرق الأقصى ، فلقد عرج فى طريقه على الهند واندونيسيا ، وبورما ، وسنغافورة ، والملايو ، وهونج كونج ، واليابـــان ، وسيام ، وتحدث عما شاهده واحسه فى تلك البلدان حديث الخبير ، وكان فى حديثه احيانا كثير من الغرائب والعجائب .

فمن المعروف ان بعض الهنود يحرقون جثث موتاهم ثم يذرون رمادها فى الهواء ، ولكن الغريب حقا هو ما رواه الاستاذ على عن تقطيع بعضهم الآخر لتلك الجثث ، واعدادها وجبة سائغة لكواسر الطيور : « فى الهند بلد العجائب والفلسفات ، وبلد الخرافات أيضا ترى قسما من الديانات تقوم بحرق ميتهم وتذر رماده فى الهواء . وقسم آخر يقوم بالقاء الرماد فى النهر المقدس ، وقسم آخر يقومون بكسر عظام (وتقليح) أى تشقيق جثته وذلك بعد ان يوضع على ما يشبه الشبكة وتحتها بئر صغيرة ، وما ان ينتهى الكاهن من عمله هذا الذى يشبه عمل الجزار القاسى حتى تكون الطيور والكواسر منتظرة الوجبة الشهية الجديدة ، فتنقض عليه وقد سهل لها الكاهن أكل اللحم الانسانى اللذيذ كما قال دكتور من السودان : ثم يتساقط بعد ذلك العظم الى قاع البئر الصغيرة بعد ان تكون الطيور نسورا وغربانا ، وغيرها قد اتت على اللحم والجلد معا .

وبعضهم يبالغون فى تكريم ميتهم العزيز فيضعون لبنا محل الشقوق التى يحدثها الكاهن بسكينه فى جثة الميت ، حتى ان الكلب اذا أكل منها بعد ان يشم الروائح العجيبه لحما ولبنا يعتبر ذلك فالا حسنا للميت فى آخرته العجيبة » .

والمؤلف لا يقتصر على السرد والمشاهدة ، بل يبث فى كتابه كثيرا من الآراء النيرة ، والنظرات الصائبة ، والملاحظات الدقيقة ، وما أصدق قوله فى سياق حديثه عن اندونيسيا:

« ان الاستقلال شيء جميل ، وهو أمنية الشعوب الغالية ، ولكن ثمنه ضخم ومرتفع جدا تدفعه الشعوب من قوتها اليومى ، ومن سعادتها مرغمة لانه اثمن من حياتها أيضا .

ولم يترك المؤلف شيئا يستحق الانتباه ، يعتب عليه ، حتى فتيات الجيشا فى اليابان فقد تحدث عنهن حديثا كله طلاوة وغزل ، ولم ينس ان يأخذ حماما تركيا فى طوكيو لانه ضرورة من ضرورات الزيارة التى لا تتم الا به .

وختاما فان الاستاذ على فدعق ، فى رحلته هذه ، قد رأى وأحس وجرب ، وسعد وتألم ، فجاء كتابه نابضا بالحياة ، وقد اضفى عليه من روحه المرحة ، ونفسه الشاعرى ، ما جعله سهل التغلغل فى النفس ، سريع النفاذ الى القلب . لقد اتاح لى هذا السندباد الجوى جولات طيبة فى صحبته ، وفتح امام عينى نوافذ سحرية على اقطار بعيدة فى العالم ، وانا مستلق على سريرى دون أى عناء .. فشكرا له ..

مَدخل إلى القرآن الكريم

هذا كتاب ثمين حقا ، ألفه العالم الجليل المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، وهو احدى رسالتين كتبهما المؤلف باللغة الفرنسية .

فقد سافر ذلك العالم الجليل عام ١٩٣٦ الى فرنسا فى بعثة أزهرية ، وبعد أن درس الفلسفة وتاريخ الاديان وعلم النفس والاخلاق ، كتب رسالتين : رسالة رئيسية عن الفلسفة الاخلاقية فى الاسلام ، ورسالة فرعية هى (المدخل الى القرآن الكريم) حصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه فى الأدب من (السوربون) .

وما أحوج القراء الى الاطلاع على هذا الكتاب النفيس الذى يغذى العقل والقلب فى آن واحد ، فهو يدخل الى القرآن الكريم عن طريق الفكر ، بعد أن يلقى مزيدا من الضوء على شخصية الرسول الاعظم ، وهو كتاب يعتمد على التحليل والمناقشة والمقارنة ، ويخلص فى النهاية الى نتائج ثابته لا يعتورها الشك من أمام ولا من خلف .

لقد سلك المؤلف فى بحثه هذا منهجا خاصا ، فلم يعتمد على آراء السلف ، ولكنه اعتمد قبل كل شىء على النصوص التاريخية ، فشرع يناقشها بروح القاضى العادل ، وضمير الباحث المنصف ، دون ان يترك لعاطفته مجالا للتدخل ، فجاءت حججه قوية ، واحكامه مقنعة حتى بالنسبة لغير المسلمين ، كما ترك القرآن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، ويقدم الحجة تلو الحجة ، والدليل بعد الدليل ؛ فالدراسة اذن دراسة موضوعية للقرآن بقدر ما يستطيع أى مفكر أن يتجرد من ظروفه الذاتيه الخاصة ، وقد أعان المؤلف على ذلك ذهن متوقد ، وثقافة واسعة ، وذكاء لماح ، مما جعل آراء المستشرقين تتهاوى كأوراق الخريف ، وتتطاير فى كل اتجاه ، أمام قوة حجته ، .. ودقة نظرته .

لقد جعلنا نرثى لهؤلاء المستشرقين الذين فهموا الاسلام فهما سطحيا مضحكا ، او أدلوا بآراء مبتكرة ظاهرها الاجتهاد ، وباطنها الاغراض .

لقد كشف زيف هؤلاء الباحثين ، وعراهم من الاوراق التى كانوا يسترون بها جهلهم أو أغراضهم ، كل ذلك بأسلوب علمى هادىء رصين ، لاغاية له الا إظهار الحقيقة ، وحب الانصاف .

وهكذا يظل الاسلام الشعاع الهادى الذى هبط من السماء على أشرف الخلق فكانت الحضارة الاسلامية التى امتدت من الجزيرة العربية الى مشارق الارض ومغاربها ، .. وأنقذت الانسان من جاهليته وأوهامه ، وأعادت اليه كرامته ونضارته .

لقد بدأ المؤلف دراسته بالاستناد على صعيد صلب ، فبين أن محمدا لم يعرف عنه الكذب قط ، مؤيدا ذلك بالوثيقة التاريخية التى سجلت الحوار الذى دار بين هرقل وأبى سفيان ، أعدى أعداء رسول الله فى ذلك الوقت .

فأبو سفيان رغم ضراوة عداوته له ، وشدة حنقه عليه ، لم يستطع أن يجد فيه مطعنا ، .

حتى أن هرقل استخلص من جوابه أن محمدا (لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله) .

ثم انطلق المؤلف يبرهن على أن النص القرآنى الذى بين أيدينا اليوم لا يرجع الى الخليفة عثمان بن عفان كما يقال ، ولا الى الخليفة الاول أبى بكر ، (وانما هو مطابق مطابقة حرفية للنص المكتوب باملاء الرسول عليه الصلاة والسلام والذى حفظ بعناية وتقديس فى صدور الصحابة وقرائهم) .

ولعل أروع فصول الكتاب ذلك الفصل الذى أثبت فيه المؤلف بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أن القرآن مصدره إلهى ، وأنه من المستحيل أن يصدر عن قلب رجل ، أو عن قلب رجال ، ولو اجتمعت الانس والجن على ذلك :

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

وتحدث المؤلف الجليل فى فصل ممتع عن أسلوب القرآن فقال :

(لغة القرآن مادة صوتية تعبر عن طراوة أهل الحضر ، وخشونة لغة أهل البادية ، وتجمع فى تناسق حكيم بين رقة الاولى وجزالة الثانية ، وتحقق السحر المنشود بفضل هذا التوفيق الموسيقى البديع بينهما) .

(ويمتاز القرآن بالايجاز العجيب فى الكلام اذ يعبر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها فى العادة الا بجمل مطولة نسبيا) .

وميزة فريدة للاسلوب القرآنى هى (أن كلا من النبيل والحقير ، والسطحى والباحث الدءوب يلتقون على فهم القرآن كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلا بما يناسب عقلية كل منهم بحسب درجته فى العلم والمعرفة) .

ويؤكد المؤلف بعد ذلك أن ظهور القرآن ، من الناحية اللغوية البحتة ، كان خلقا للغة جديدة ولاسلوب جديد .

وبعد فهذه بعض ملامح ذلك الكتاب القيم ، أردت بها التعريف أكثر مما أردت بها التمثيل ، لعلها تغرى القراء بمطالعته ، فيجدوا من لذة الفكر ، وامتاع القلب مثلما وجدت .

وحي القلم

وقع فى يدى منذا أيام كتاب وحى القلم . وكنت قد اطلعت على أكثر مقالاته منشورا فى مجلة الرسالة منذ اربعين عاما تقريبا ، يوم كانت سجل العرب الذى يصل الحاضر بالماضى ، ويربط بين الشرق والغرب .

وكنت أنذاك فى ميعة الصبا ، ومطلع الشباب ، فكان جناحى الهش يقصر عن اللحاق بالرافعى فى اجوائه البعيدة ، الا اننى كنت على يقين ان أذنه ، وان كانت صماء ، كانت تستمع الى شىء من ترتيل الملائكة .

واليوم ، وقد اعدت قراءة تلك المقالات بين دفتى كتاب ، اجد فيها ما لم اكن اجده بالامس البعيد واذوق فيها نكهة فاتتنى تذوقها وانا فى غرارة الصبا ، ومطلع الشباب .

الرافعى منجم غنى بالذهب ، ولكنه يحتاج احيانا الى اليد التى تنفض التراب عن ذلك الذهب ليشع بريقه .

عجيب أمر الرافعى هذا ، يرتفع بنا حينا حتى يبلغ الاوج ، وينحدر بنا حينا آخر حتى يبلغ الارض ، ولكن صعوده وانحداره هذين لا يكونان الا من ناحية صفاء العبارة ، وبراعة العرض ، أما الفكرة فهى ابدا سامية ، سامية كأنها تأنف ان تمس الثرى بأحد جناحيها ، ويظل فيها دائما شىء من ارتفاع الشمس وزرقة السماء .

ولكن كيف يفهم أكثر قراء هذا العصر الهازل أدب الرافعى الجاد ، وكيف يمكنهم تذوق حلاوة وطلاوة هذا الأدب الذى جعل السمو فى كل شىء ، لقد جعله فى الفقر وجعله فى الحزن وحتى فى القبح أيضا .

لقد كان من فرط ولع الرافعى بالسمو أن اطلق على أول أبنائه اسم سامى ليظل يتنفس دائما فى جو السمو ويحيا تحت نجوم السمو ، فلا يفارق السمو طرفه عين .

ولم يكن فرط ولعه بالسمو الا من اتساع عقله ، وامتداد آفاق نفسه .

وأنا لم أعرف فى ادباء العرب المعاصرين ذهنا له توقد ذهن الرافعى ، ولا عقلا فى مثل نفاذ عقله . فقد كان له ذهن جبار يشق صلد الصخر ، ويطلع فيه ندى الزهر .

كان له ذهن جرىء ، مقدام يقتحم المجهول بأجنحة قوية ويعود منه محملا بالغنائم والاسلاب .

كان للرافعى ذهن توفرت له كل عناصر التركيب والتوليد والاختراع فأبدع الفكرة ، والصورة والعبارة ، لنتأمل كيف يفرق الرافعى بين الفن العقلى والفن الادبى ، بين الكاتب العادى والكاتب البيانى ، وذلك بأسلوبه الملون الاخاذ :

« وفى الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى الفاظهم ومعانيهم فنا عقليا غايته صحة الاداء .... وسلامة النسق ، فيكون البيان فى كلامهم على ندرة كوخز الخضرة فى الشجرة اليابسة هنا وهناك ولكن الفن البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الاداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وابداع الصورة زائدا جمال الصورة . أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ، ويدف ولا يطير ، .... وهؤلاء كالطير الاخر له جناح يطير به ويجرى .. » ..

وما ابرع الرافعى فى تناوله للمعانى والأفكار : : فهو لا يفتأ يحاورها ويداورها ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ، وينظر اليها فى زواياها المتعددة صاعدا بها حينا ، نازلا بها حينا ، ذاهبا بها مرة ، آيبا بها اخرى ، حتى تلين له اخيرا وتخضع ، كما تخضع الفريسة المجهدة للاسد المطارد .

لنقرأ ما كتبه الرافعى عن الحب واثره فى البيان :

« تلك احدى عجائب الحب ، كلما كان قفرا ممحلا اخضرت فيه البلاغة وتفننت والتفت ، وعلى قلة المتعةمن لذاته تزيد فيه المتعة من أوصافه ، ولكأن هذا الحب طبيعة غريبة تروى بالنار فتخصب عليها ، وتتفتق بمعانيها كما تروى الارض بالماء فتخصب وتتعطى بنباتها ، فان روى الحب من لذاته ، وبرد عليها ، لم ينبت من البلاغة الا اخفها وزنا واقلها معانى ، كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه تراه فتحسبه مسحة لون اخضر ، او لم ينبت الا

القليل القليل كالتعاشيب فى الارض السبخة » .

وللرافعى حالات من شفافية الروح ، وصفاء الفكر ، ونورانية العبارة تشبه لحظات الالهام التى لا يمكن ان تأتى من كد الطبع ، أو براعة الصنع ، وانما تهبط من الاعالى كما يهبط الغيث من السحاب ، او كما ينسكب النور من جبين القمر .

ولكن عيب الرافعى هو انه يتعب قارئه ويشق عليه كما اتعب هو نفسه وشق عليها ، فهو لذلك لم يخلق ليكتب لمن يتسلى فى القراءة أو يتلهى ، وانما يكتب لمن يتفكر ويتدبر ألم يقل هو :

« وربما عابوا السمو الادبى بأنه قليل ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، وبأنه محير ولكنه الحسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .. » .

فالادب الحق كثير التكاليف بالنسبة للكاتب والقارىء على حد سواء ولكن الا يستحق الجمال كل ما يبذل فى سبيله من عناء ؟

وهل تكون اللذة الا على قدر المشقة ، وهل تأتى الراحة الحقيقية الا بعد الجهد الحقيقى ؟

ومن المألوف ان كل ما يجىء بسهولة يذهب بسهوله ؛ الا ترى الشجيرة الطالعة التى عمرها اشهر تقتلعها الريح بنفخة واحدة ، بينما تبقى السنديانة العتيقة تصارع العواصف ، وتهزا بثورتها وجبروتها ، وما ذلك الا لان الطبيعة قد انشأتها على مهل ، وتعبت فيها ونصبت .

ولكن من اين لمثل هذا الزمان العجول النزق ان يعجب بأدب مثل ادب الرافعى ، مادام هم اكثر قرائه القفز بين السطور ، والجرى وراء الحوادث ؟

لم يكن الرافعى مدرسة واحدة بل كان مدارس متعددة : كان مدرسة ادبية لها الوانها الفصيحة وصورها الفذة ، وكان مدرسة دينية فهمت الدين على حقيقته ، ونفذت الى لبابه وجوهره .

وكان مدرسة اخلاقية اهوت بمعولها على كثير من الاوثان الزائلة والاوهام الباطلة ، وسعت دائما الى اعلاء شأن الانسان ، والارتفاع به عن أدران

الارض .

ولم يكن ذلك الا لأن الرافعى تأدب بأدب القرآن ، وتخلق بأخلاق الاسلام ، ونظر الى الدنيا نظرة الحكماء ، واهتز للحسن اهتزاز الشعراء ، فكان لنا منه هذا الأدب الرفيع الوضاء .

مابهذا المبضع يشرح الشعر

لم يكن يخطر فى بالى أن أخوض فى غبار هذه المناقشات التى تدور على صفحات الرائد الاغر ، حول الشعر ، وحول جدارة شاعر مثل ايليا أبى ماضى بأن يقف على قمة من قمم الشعر أو ينبطح على سفح من سفوحه لولا مقال الاديب الخصيب الاستاذ محمود عارف (طلاسم أبى ماضى والفرشوطى) « الرائد عدد ٢٩ » فلم أجد بدا من أن ألقى بدلوى بين الدلاء ، وأحاول أن أطرح على الشعر بعض الأضواء .

وقبل كل شيء يطيب لى ان أذكر أن لا شيء يختلف فى تقديره الاذواق كالفن . فللفن زوايا متعددة ، وصور متجددة ، ووجوه مختلفة متنوعة ، كل ينظر اليه بعين تجاربه التى مارسها ، وعلى ضوء فطرته التى جبل عليها ، وحسبما اتخذه من موقف ازاء الحياة والكون .

ولا شك أن تعدد زوايا الفن ، وتجدد صوره ، واختلاف وجوهه لما ينم على حيويته ، وعمق حركته فلو كان الشعر ذا وجه واحد ،لكان باهت الملامح ، لا يوحى بأى جدة أو طرافة أو متعة .

لذلك أيضا لم أجد بأسا فى أن أسرح رأيى بين الآراء ..

يقول الشاعر المبدع ايليا أبو ماضى :

كن غديـرا يســير فى الارض رقراقا ويسقى من جانبيه الحقولا

لاوعاء يقيد الماء حتى تستحيل الميـــاه فيـــه وحولا

ويعلق الاستاذ الجليل محمود عارف فى مقاله السالف على هذين البيتين فيقول :

« ويطلب الشاعر أن يكون الانسان متقلصا حتى يصبح كالوعاء وهذا الوعاء طبعا فى حجم القدر أو الصحن أو الكأس وهو مفهوم الوعاء عند الناس . ولكن الشاعر يستبعد تقييد الماء فى هذا الوعاء حتى لا يستحيل الماء وحلا ...

وهذا الاستعمال أكتع . لان التقييد الذى يتصوره الشاعر بالنسبة للماء فى الوعاء لا ينسجم فى مدلوله مع الاستحالة . ولانه (لا يعقل) أن ماء الوعاء يستحيل الى وحل .. » .

لا يا أستاذنا محمود ما بهذا المبضع يشرح الشعر . أنا معك اذا وجدت أن كلمة الوعاء هنا عليلة ، ضيقة ، متبرمة ، خجلة من الجلوس فى غير مكانها ، وانه كان على ايليا أبى ماضى أن يختار أحسن منها تعبيرا ، وأطلق وجها وأرحب امتدادا . نعم أنا معك فى هذا الدرب اذا شئت وانى أحس فى هذا البيت بشىء كالعاهة ، بسبب هذا الوعاء الخلق .

ولكن دروبنا تختلف حين تقول « ولانه لا يعقل ان ماء الوعاء يستحيل الى وحل .. لان الوحل من مخلفات الارض التى يسير عليها الغدير ، ولا علاقة له بالوعاء على صغر حجمه . وكان الاجدر أن تكون الاستحالة بالنسبة للماء والوعاء فى معنى العفونة ، أو التغير من لون الى لون بفعل الركود أو فقدان الهواء الذى يثير الحركة فى الماء .. » .

نعم تختلف دروبنا لاننى لا أومن بتقييد الشعر ، ولو كان هذا القيد رباط العقل المقدس .

الشعر أخيلة وأحلام ، وتصاوير وأوهام وطيران الى الاجواء العليا النائية وليس هو دبيب الزاحف على صدر الارض .

الشعر لا يمكن أن يوزن بميزان العقل والا احلنا اكثر عباقرة الشعر العمالقة الى مصحات الامراض العقلية للاستشفاء .

ان اجمل ما فى الشعر فى نظرى هو هذه الوثبات الجنونية الخلابة ، التى تمزج الصباح بالمساء ، والعطر بالضياء ، هذه الوثبات البارعة الرائعة التى لا يتقنها الا الاطفال والشعراء .

الشعر فى نظرى يظل نثرا تافها كسيحا ما لم تترقرق فى أوصاله براءة

الاطفال ، وعذوبة أحلامها ، وعفوية تخيلاتها ، وهل عذب ، فى غير الشعر ، الكذب .

ان أى تدخل من جانب العقل فى حقل الشعر يقضى على تموجه ويسلب منه لهب الحياة ، ويحد من انطلاقة جناحه ، والشعر الجميل لا يسكت على هذه الاهانة ولا يرضى بها ...

والشاعر حزمة من الاحاسيس المتداخلة ، والعواطف المتشابكة ، والاصداء المتنافره المؤتلفة ، والشاعر الحق من يتحرك فى الحياة ، ويجرى فيها الحركة ، ويجعلها أخصب مما هى عليه ، ويكشف ما خفى عن العيون من أسرارها المستكنة ، وآفاقها الرحبة .

ففى الشعر لا ضرورة لتطابق الصورة مع الاصل تطابقا كاملا ، كالناظر الى وجهه فى صفحة المرآة المجلوة ، فقد يكون وجه الشبه فى لمحة خفية ، او خط دقيق لا تميزه كل العيون .

يقول الشاعر سعيد عقل :

الى البلد الحلو حيث الغمام بلون هديل الحمام ..

فما هو هذا الغمام الذى بلون هديل الحمام ؟ هو هذا اللغز الرائع فى الشعر ، هو هذا الامتزاج فى الاحاسيس حتى لتصبح العين تشم ، والاذن ترى ، وحتى ليصبح للعطر صدى وللحرف رائحة وطعم ولون ...

أتقول ما الجامع بين الغمام وهديل الحمام ، ومضة خاطفة لا يدركها الا المتمرسون بروائع الفن ، فالغمام أبيض شفاف رقيق يوحى فى النفس ما يوحيه هديل الحمام من هدوء ، وصفاء وانشراح . هذه الصورة المتواثبة المترعة بالتموجات النفسية تنوء بالكنوز الشعرية .

نريد الكلمة التى تنقلنا الى عوالم لا تحد ، وتفرغ فيها مشاعر لا يقوى عليها الوصف ، ومن هنا كانت ميزة الشعر ، وسره ولذته .

ويقول الشاعر نزار قبانى فى قصيدته الذائعة الصيت أيظن ؟ ..

وبدون أن أدرى تركت له يدى　　　لتنــام كالعصفــور بــين يديه

اطرد هذا العصفور من خميلة هذا البيت ، وانظر ماذا يصبح بعد ذلك ؟

قاعا صفصفا ...

ان يدها التى تنام بين يديه كالعصفور فيها كل الثروة التى يمكن أن يمنحها الشعر للقلب ، ففيها الرقة وفيها النعومة وفيها الحنان ، وفيه اللجوء الى الحضن الحدوب ، والأمن الكامل .

ويقول الشاعر أمين نخلة :

نعيم حبنا فانظر بعينى — وعرس للمنى فأسمع بأذنى
كأن الصحو يلمع فى ضلوعى — ويخفق فى فؤادى ألف غصن

فهل يعقل أن يلمع الصحو فى الضلوع ، وتخفق الاغصان فى الفؤاد ؟ كلا لكن العاطفة تبتهج لهذا الشعر الغض وتطرب وتصفق .

وينتقل الاستاذ محمود عارف الى ايليا أبى ماضى وبيتيه فى وصف الشاعر :

هو من يراه سائرا فوق الثرى — وكأن فوق فؤاده خطواته
هو من يعيش لغيره ويظنه — من ليس يعرفه يعيش لذاته ..

ويعلق الاستاذ محمود عارف على هذين البيتين فيقول :

« أما خطواته فوق فؤاده فهذه بهلوانية شعرية لا يعرف مدلولها الا الرياضى البهلوان »

رفقا يا أستاذ محمود لا تهشم هذا البيت هكذا بسهولة ، وأنا أربأ بك أن تكون جائرا فى الحكم والتقدير .

ان فى « وكأن فوق فؤاده خطواته » لألطف تشبيه ، وأدق تعبير ، وحيوية لا توصف .

فالشاعر يمشى فى دروب الحياة وكأنه يسير فوق فؤاده ، متأنيا رفيق الخطو ، متأملا ما فى الكون من أسرار ، وما فى الطبيعة من حسن عجيب ليأخذ منها ألوانه واعطاره وألحانه ، ويقدم للاجيال هدية عبقة ..

ويعلق الاستاذ الاديب على هذا البيت من شعر أبى ماضى :

هو من يعيش لغيره ويظنه من ليس يعرفه يعيش لذاته » ونحن نقول بأن هذا النعت يصلح بكل رائد فنان ولا تقتصر هذه الحكم على الشاعر فحسب ولو كان ما يقول أبو ماضى صحيحا لأخرجنا كثيرا من الخالدين الذين عاشوا لغيرهم ولم يعيشوا لذواتهم الخاصة » .

أشم فى هذا الكلام رائحة التحامل . نعم لا يعيش الشاعر لذاته . انه لفنه ، للاجيال المقبلة التى تهزج بشعره ، للحسن الذى يسكبه فى قسمات التاريخ ، أليس هو الذى يغنى والناس يشربون ، ويبح صوته والناس يطربون .

أليس هو الذى يكحل الابصار برؤى الجمال ، ويدخل الى النفوس البهجة والسحر الحلال .

لو كان الشاعر يعيش لذاته فقط لا قتصر على الاستمتاع لوحده بمفاتن الوجود ، ولكتم ضحكه ، وأخفى بكاءه ، ولم يصب أسراره فى أبيات من نور ، لتبلغ من يهوى النور والحياة .

أما شعر ايليا أبى ماضى ، الشاعر المبدع ، وأما ماله وما عليه ، فلنا عودة قريبة اليه .

إيليا أبو ماضى

شاعر الطبيعة والجمال

أراد الله ان نعشق	لما اوجد الحسنا
وألقى الحب فى قلبك	إذ ألقاه فى قلبى
مشيئته وما كانت	مشيئته بلا معنى
فان أحببت ماذنبك	أو أحببت ماذنبى
أراد الحب أن نضحك	فلنضحك مع الفجر
وان نهتف فلنهتف	مع البلبل والقمرى
فمن يعلم بعد اليوم	مايحدث او يجرى؟

كانت هذه الابيات العذبة هى أول عهدى بشعر أيليا ابى ماضى ، لم أعد اذكر اين قرأتها ، ولا من أين سمعتها ، ولكننى حتى اليوم لا أزال اشعر ، وأنا اردها بينى وبين نفسى ، بشىء يشبه النشوة ..

ولعل هذه الابيات المرحة هى التى حببت الى أبا ماضى ، وجعلتنى ابحث فى الصحف وراء شعره ، كما يبحث الطفل فى الحقول الخضر ، عن الفراشات الملونه ، ويعدو خلفها .

ولا غرو فى ذلك ، فشعر ايليا أبىماضى قطعة من الطبيعة الحسناء ، يعشقه من يعشقها ويهيم بها .

كان الشعر العربى قبل شعراء المهجر ، فى حالة ركود ، اشبه مايكون بالغدران الآسنه ، فقد كان هم الشاعر منصرفا قبل كل شىء الى انشاء شعر موزون مقفى ملىء بالاستعارات المتكلفة الباردة التى فقدت لونها من فرط التداول وكثرة الاستعمال والتكرار ، فلم تعد قادرة على ان تبعث فى النفس أية

رعشة عذبة . ولم يكن الشاعر ليبالى حينئذ ان جاء شعره جثة محنطة ، أو وجها مثقلا بمساحيق التجميل ، يثير النفور والاشمئزاز ، اكثر مما يبعث على الارتياح والانشراح ، لا حياة فيه ولا روح ، وليس فيه أية لمحة من لمحات التعبير الصادق ولا أية نفحة من نفحات الحرية والانطلاق مادام شعره متين الاسر ، جزل التركيب ، مستوفيا لشروط البلاغة المعروفة .

وجاء شعراء المهجر واذا بنا نسمع اصداء صافية جديدة ، تنحدر الينا من وراء البحار ، فتطرب لها نفوسنا ، وتجعلنا نحس فى اشعارهم الطلاقة والتفتح ، ونلمس فيها الدفء والحياة ، واذا بنا نحس ان الطبيعة ليست فى قصائدهم دمية باردة محبوسة بين جدران ، أو صورة جامدة مصبوبة فى حروف وأنما هى طبيعة حية ، متحركة ، متموجة يتفاعل الشاعر معها ، وتتفاعل معه ، وهو جزء منها ، وهى جزء منه ، وكان فى طليعة شعراء المهجر ايليا أبو ماضى ، فهو أخصبهم شعرا ، وأرقهم لحنا ، واعذبهم صدى ، واحرهم عاطفة ، وأصفاهم ديباجة ، ولايستطيع احد ان ينكر ان ايليا أبا ماضى احدث هزة جديدة فى شعرنا العربى ، واضاف الى اوتار قيثارته الخالدة ، انغاما رائعة لم يكن لها بها من عهد .

فنحن فى شعر ابى ماضى مع شاعر أدمن عشرة الطبيعة الخلابة ، درج فى أحضانها وترعرع وشاب ، وظل لها وفيا ، وبها مسحورا حتى جاد بأنفاسه الاخيرة مرغما .

لقد تغلغل ابو ماضى فى زوايا الطبيعة ، وتعرف الى خفاياها ، وراح يتأمل كل شىء فيها بنهم واعجاب ، وقف طويلا امام بنفسجة خجول مندسة بين الاعشاب ، وعصفور نزق يتواثب فوق التلال ، وفراشة طائشة ترفرف فى الحديقة ثم تأوى لاهثة الى ظل نافذة ، ونحلة دؤوب تنتقل بين صنوف الازهار لتملأ كأسها بالرحيق ، ولم ينس الشاعر ان ينحنى أمام عليقة مهملة لها شوك كالحراب تقطع الطريق على المارة ، فيناجيها بعمق ، ويستوحى منها قصيدة خالدة .

نعم كان ايليا ابو ماضى محبا للطبيعة بكل مافيها ، يستمد من لوحاتها ألوانه ، ويجمع من أصدائها الحانه ، ويبث فى شعره كل مايراه فيها ، حتى ليشعر القارىء أن شعره كتاب للطبيعة مفتوح ، يتضوع عبيرا ، فيه تمرح مخلوقاتها الجميلة وتسرح وكأنها بين احضان أمها الحنون الرؤوم .

لقد كان ابو ماضى صديقا حميما للندى والزهر ، والنجوم والقمر ، وكان محبا للوديان والتلال ، والغدران والظلال ، وكان مولعا بالخمائل والجداول والصخور والحقول ، كان عاشقا للطبيعة ، متيما بكل مافيها ، يناغيها وتناغيه ، تبوح له بأسرارها ، ويبوح لها بشكواه وهواه ، ويستمد منها دائما العزاء والعون والرجاء ، حتى انه يطلب الينا فى لحظة من لحظات الحب والالهام ان نكرس حياتنا للجمال المبثوث فى أرجائها ، دون أن نفكر فى اى شيء آخر فيقول :

عش للجمال تراه العين مؤتلقا — فى انجم الليل او زهر البساتين

والشاعر من فرط حبه للطبيعة ، واعجابه بها يرى فيها ثروة لاتحد ، ومباهج لاتنضب ، فهو يعجب اشد العجب ممن يشكو الفقر والحرمان ، والطبيعة أمامه تنبسط فى سخاء ، وتبذل للجميع خيراتها على السواء :

كم تشتكى وتقول انك معدم — والارض ملكك والسما والانجم
ولك الحقول وزهرها واريجها — ونسيمها والبلبل المترنم

وقد استمد ايليا ابو ماضى من الطبيعة الصافية ، السمحة فلسفته وهى فلسفة الرضى والمحبة والتمتع بالجمال ، فتراه يذوب اسى على فراشة محتضرة هشمت اجنحتها رياح الخريف ، ويهتف من اعماق قلب يفيض بالعطف والكآبة :

فيارياح الخريف العاتيات كفى — عصفا فقد كثرت فى الارض قتلاك
كيف اعتذارك ان قال الآله غدا — هل الفراشة كانت من ضحاياك ؟

وهو ينظر الى الحياة نظرة فيها كثير من نضارة الطفولة وبراءة احلامها ، فهو لايفكر فى يوم ولا غد ، يعيش كما يعيش العصفور ، ولذلك لايعرف الهم والحزن الى نفسه سبيلا :

يا أيها الشادى المغرد فى الضحى — أهواك ان تنشد وان لم تنشد
طوبـاك انـك لاتفـكر فى غد — بدء الكآبـة أن تفـكر فى غد

ولما كان ايليا ابو ماضى قد اخذ عن أمه الطبيعة فلسفة القناعة والرضى ، فقد امتلأت نفسه بالغبطة الصافية ، ولازم الابتسام شفتيه ، وأراد ان يشرك الآخرين فى هذه الفلسفة التى اطمأن اليها ، فراح يبشر بها فى قناعة تامة ، وفى كل مناسبة ، حتى لأصبح يبتئس ان رأى وجها يعلوه التقطيب :

قلت ابتسم مادام بينك والردى — شبـر فإنـك بعـد لن تبتسما
كن بلسما ان صار دهرك ارقما — وحـلاوة ان صار غـيرك علقما

وانطلق يدعو الى الاحسان ، ويحث على عمل الخير ، دون أمل فى ثواب او انتظار لمكافأة ، وهذه الطبيعة افضل مثال ، فهل يطلب الزهر اذا فاح ، والبلبل اذا ترنم جزاء او ثناء ...

أحسن وان لم تجز حتى بالثنا — أى الجزاء الغيث يبقى ان همى
من ذا يكافىء زهـرة فواحة — او من يثيـب البلبـل المترنما

هذا هو شاعرنا ايليا ابو ماضى وتلك هى فلسفته فى الحياة مزروعة فى كل شعر من اشعاره ، لقد صب عواطفه واحلامه فى أبيات بلورية لاتحجب الضوء ، وفى ألفاظ حريرية لاتعرف الخشونة ، وترك للادب العربى شعرا رقيقا يجرى فى سهولة منقطعة النظير ، كأنه السواقى تتدفق بين صخور الغابات ، وكأنه البلابل تصدح على الاغصان ، وكأنه النسيم يهب فى الاصائل فاستحق – عن جدارة ان يكون شاعرا من أكابر شعراء الطبيعة فى ادبنا العربى ، ورائدا جليلا من رواده ، وذروة من ذرواته الشامخة التى تتألق على مر الاجيال ، لتهدى النفوس الظامئة الى كوثر الخير والحب والجمال .

مع الدكتور قياسه وايليا أبي ماضي (١)

للاستاذ محمود عارف

تجدد الحديث عن شعر أبى ماضى ومسألة اعتباره شاعر القمة .. وقد راقنى فى هذا التجدد حديث الدكتور قياسه المنشور فى الرائد عدد ٣٧ ، فهو شاعر ممتاز ومن أدلة امتيازه انه جمع بين كفاءة الطب وموهبة الادب ، وهو بهما قد دلل على تفرده فى خصائص الادب ولوازم الطب . وليس هذا التفرد بعزيز على أصحاب المواهب الخارقة .

فقد سبق أخ له من قبل فى مصر جمع بين الطب والشعر وهو الدكتور ناجى صاحب ديوان الطائر الجريح وما وراء الغمام . ولكن الشىء الذى أريد أن أقوله هو أن موهبة الادب أبرز من كفاءة الطب فى مجموعة الخصائص التى تمثل (الكيان الفنى) فى شخصية الدكتور قياسه . وهذا المفهوم طبعا من زاوية نظر الادباء ولعله غير ذلك من وجهة نظر الاطباء . وأعتقد أن مقالا يكتبه الدكتور قياسه عن شاعر مبدع كأبى ماضى يعتبر كسبا للشعر بشتى أشكاله ومذاهبه . لان صناعة نقد الشعر من الصناعات التى لايصل الى دقائقها وخصائصها غير صاحب المهنة . وكل صناعة تحتضن أسرارا لايدركها غير المحترفين .

وهذا هو المطلوب من الناقد . وقل من يصلح ناقدا للشعر غير الشعراء .

ماهيـــة الفـــن

يقول الدكتور قياسه فى مقاله «أنه لم يجد بدا من أن يدلى بدلوه بين الدلاء وانه يحاول أن يطرح على الشعر بعض الاضواء ... ولهذا تحدث عن الفن

بصورة عامة فقال : (وان الفن له زوايا ... وصور ... ووجوه ... وهى طبعا متعددة ومتجددة ومختلفة ومتنوعة على حسب نظرة الفنان .. لايادكتور هذا الكلام لايعنى «الفن» وانما يعنى «الحياة» والحياة هى التى يصح أن تكون لها هذه الزوايا والصور والوجوه .. تناسقا مع الجوانب المتعددة فى الحياة .. والكون جزء من الحياة كما ان الفن جزء من الكون .

ولكل من الحياة والكون والفن صلات متقاربة أو متباعدة على حسب مايملك الفنان من طاقة للتعبير عما احتشد أمام «زاويته» الخاصة من «صور» حية من صور الوجود على كثرة أو قلة مافى الوجود من «وجه» باسم أو عابس .. ومعنى هذا وهو ما أعتقده ان الفن زاوية وصورة ووجه واحد ولاتكرار فى منطق الفن .. لان تعدد الزوايا والصور والوجوه من لوازم الحياة التى هى بمثابة «الام» بالنسبة للفن والكون ... ومايصدق عن الفن يصدق على الشعر بصورة عامة .. ولو لم يكن كذلك لما استغربنا وجود شعراء من فصيلة « العفاريت » الى جانب شعراء «الانس» لانه من المحتمل ان يصح لشاعر من «الجن» أن يستلهم الشعر بحشود « من الزوايا والصور والوجوه » ولايستغرب لخفته وسرعة استجابته فى دوامة الالهام أن يقول «شعرا» فيه كل الزوايا والصور والوجوه التى يطلبها الدكتور قياسه ، فهل هذا هو معنى الفن ؟ ... وهل هذا هو المطلوب من الشاعر «الانسان» ؟

اعـــــتراف

وأعجبنى اعتراف الدكتور عارف قياسه حين قال فى صدر نقدى لقصيدة أيهذا الشاكى ... وبالاخص لكلمة «وعاء» التى شوهت جمال القصيدة . ويصرح فى عتاب رقيق «لا يا أستاذ محمود مابهذا المبضع يشرح الشعر ؟ ... » ثم يقول : «أنا معك اذا وجدت ان كلمة «الوعاء» هنا عليلة ضيقة متبرمة خجلة من الجلوس فى غير مكانها » .. وانه كان على ايليا أبى ماضى أن يختار أحسن منها تعبيرا وأطلق وجها وأرحب امتدادا .. نعم أنا معك فى هذا الدرب وأنا أحس فى هذا البيت بشىء كالعاهة .. بسبب هذا «الوعاء» «الخلق» والى القراء ما

قاله أبو ماضي :

كن غديرا يسير فى الارض رقرا قا ويسقى من جانبيه الحقولا
لا وعـــاء يقيـــد الماء حتى تستحيـل الميـاه فيـــه وحولا

وليتصور القراء معنى «العاهة» فى كلمة « لا وعاء» وحرص الدكتور قياسه على ضرورة استبدالها بكلمة تكون ألطف وأرحب امتدادا . ولكن ماذا يصنع أبو ماضي وفى نفس القصيدة عدة عاهات سكت عنها الدكتور قياسه رحمة بشاعر القمة ... على حد تعبير بعض الحواريين ..

موضـــــع الاختـــــلاف

وقد اعترف الدكتور قياسه تلميحا أو تصريحا بكل ماقلته فى نقد قصيدة أيهذا الشاكى .. وبقى أن يعرف الناس موضع الاختلاف فيما بينى وبين الناقد .. والاختلاف ليس جديدا بالنسبة لى وانما هو اختلاف وقع بين نقاد الشعر قديما وحديثا .. ومبدأ الاختلاف هو ان الدكتور قياسه يقول : «نعم تختلف دروبنا .. لأنى لا أومن بتقييد الشعر .. ولو كان هذا القيد رباط العقل المقدس» والشعر عنده «أخيلة وأحلام وتصاوير وأوهام وطيران» .

وفى النهاية يرى «ان الشعر لايمكن أن يوزن بميزان العقل .. والا أحلنا أكثر عباقرة الشعر العمالقة .. الى مصحات الامراض العقلية» .

ورأى الدكتور فى عدم تقييد الشعر خروج عن المألوف كما يرى أيضا **ان** الشعر لايمكن ان يقاس بمقياس العقل .. وعندى ان الكيان الانسانى لايعتبر كاملا الا بوجود العقل .. والله لم يخلق العقل عبثا .. لان تركيبه فى الانسان هو الميزة الفارقة بينه وبين الحيوان ، وكل حركات وسكنات الانسان واعماقه وأقواله مرتبطة بالانفعالات التى تتصل برابطة العقل والعاطفة .. فاندفاق العاطفة فى أى قالب من قوالب التعبير الانسانى سواء كان نثرا أو شعرا أو تصويرا أو نحتا أو غناء .. لاينسجم فى تدفقه التعبيرى بحيث يصبح معقولا ومقبولا الا اذا تساوق مع ميزان العقل باعتباره القائد والموجه للعاطفة تفاديا

من الانزلاق .. أو الشذوذ أو الاسفاف .. وانصياع الشعر للعاطفة فى تصوير مطالب النفس والروح والقلب والفكر منطق ناقص ومتأرجح وأعرج ، لفقدان التوجيه والقيادة من العقل الواعى المسيطر .. وشعر العاطفة الذى يرتضيه الدكتور عارف قياسه هو عندى احد مطالب النفس والروح والقلب والفكر .. فلماذا لايرتضى له التأثير ؟ ومن ضرورة التأثير مشاركة العقل فى تنسيق خلجات العاطفة حتى تكون منسجمة مع قانون العقل ، وبهذا يصدق الشعر بحيث يكون قادرا على النفع فى الحياة والتأثير فى النفوس تأثيرا حقيقيا وهذا هو مطلب الحقيقة التى نسميها «الصدق» .

العقل سيد العاطفة

الحقيقة غير «الأحلام والتصاوير» كما ان الصدق لايعنى «الاوهام والطيران» لأن الحياة ليست كلها أحلاما وتصاوير وأوهاما وطيرانا ، بل الحياة قصيدة بل ملحمة كبرى متدفقة كالذخائر العلمية والفنية والجمالية تنساب فى الطاقات التى وسعت العلوم الكونية من مخترعات مذهلة انطلقت بوحى العقل والعاطفة من قواعد العالم الارضى الى ماوراء الفضاء الخارجى بحثا عن الحقيقة الصارخة .. الى جانب القوى المبدعة فى نماذج الفضاء الخارجى بحثا عن الحقيقة الصارخة .. الى جانب القوى المبدعة فى نماذج الفنون والجمال جريا وراء الصدق الرائع .. وهذه الطاقات والقوى تمثل مطالب الانسان بشتى انفعالاته التى اشترك فى إيحائها وتدفقها « فى قوالب مبدعة » العاطفة والعقل معا ، وكلاهما لاينتج غير الصدق والحقيقة .. ونحن لانريد شعرا .. يعبر عن عاطفة فقط لان العاطفة لاتولد غير الاحلام والتصاوير والاوهام والطيران .. بل نريد شعرا يشترك فى انتاجه العقل والعاطفة لانهما يولدان الصدق والحقيقة .. وعندى ان العقل هو سيد العاطفة وهذا هو اعتقادى الذى لا اتزعزع عنه ، وأنا أكره شعر التهاويل والاوهام لانه فارغ وتافه ولايصور غير فراغ الفضاء ... وتوافه الحياة ..

أضواء علـى الشعر

فى الشعر . العاطفة هى السيد ..والعقل خادم لها

أشكر للاستاذ الجليل محمود عارف ما أضفاه على من ثناء قد لا أستحقه ، وان كنت اعتبره عاطفة طيبة نابعة من قلب أخ كريم .

لنبدأ الآن الحساب ، ولنضع النقاط على الحروف .

يعقب الاستاذ محمود على قولى : فللفن زوايا متعددة ، وصور متجددة ، ووجوه مختلفة ، كل ينظر اليه بعين تجاربه التى مارسها ، وعلى ضوء فطرته التى جبل عليها ، وحسبما اتخذه من موقف ازاء الحياة والكون ..)

فيقول : (لا يادكتور ، هذا الكلام لايعنى «الفن» وانما يعنى «الحياة» والحياة هى التى يصح أن تكون لها هذه الزوايا والصور والوجوه ...)

ثم يضيف : (ومعنى هذا ، وهو ما أعتقده ، ان الفن زاوية ، وصوره ، ووجه واحد ..)

ولا أدرى لماذا يحصر الاستاذ محمود الحركة والتموج والتجدد فى الحياة فقط ، ويحرم الفن من هذه النعمة المباركة ، أليس الفن مظهرا من مظاهر الحياة ، وتعبيرا جميلا عنها ، واذا كان الاصل متحركا ، متجددا ، فهل يبقى الظل ثابتا كالجماد ؟ ..

ان ما أردت ان اقوله هو ان الشعر لايمكن ان يقيد فى مذهب ، ولا يحصر فى قوقعة ، وان جميع المدارس الشعرية على اختلاف اتجاهاتها ، قد منحت الشعر ثروات مختلفة ، وسكبت فى عروقه دماء جديدة ، تختلف قيمتها ، ولكن فضلها لاينكر ...

فلماذا لانجعل ذهننا مضيافا يتقبل كل الاتجاهات الفنية مادامت تحمل السحر والجمال .

وأعتقد ان المهم قبل كل شيء هو أن يستطيع الشعر أن يحدث رعشة جمالية فى نفوسنا ، واذا قصر عن ذلك لم يكن شعرا جميلا ، أو لم يكن شعرا ..

وينتقل الاستاذ محمود الى تعليقى على «وعاء» أبى ماضى فيقول (وليتصور القراء معنى «العاهة» فى كلمة «وعاء» وحرص الدكتور قياسه على ضرورة استبدالها ، بكلمة تكون ألطف وأرحب امتدادا ، ولكن ماذا يصنع أبو ماضى وفى نفس القصيدة عدة عاهات سكت عنها الدكتور قياسه رحمة بشاعر القمة على حد تعبير بعض الحواريين ...)

لم أسكت يا أستاذ محمود عن (عاهات) قصيدة أبى ماضى رحمة بشاعر القمة ، فشاعر مثل ايليا أبى ماضى لايحتاج للرحمة ، واذا كان فى شعره الرائع بعض الضعف ، فهو ككل كائن حى مزيج من الضعف والقوة ، وأى شاعر خلا شعره من الضعف ، حتى فى الطبيعة ألست ترى الورقة اليابسة الى جانب الوردة الزاهية ، فهل هذا يغض من جمال الوردة ، ويجعلنا نقول ان هذا البستان قبيح ، لا يوحى المتعة ولا الانشراح ؟

ويقول الاستاذ محمود عارف تعليقا على قولى (اننى لا أومن بتقييد الشعر ولو كان هذا القيد رباط العقل المقدس) العقل سيد العاطفة وعندى ان الكيان الانسانى لايعتبر كاملا الا بوجود العقل ، وانصياع الشعر للعاطفة المطلقة بدون رقابة العقل يؤدى الى تشوية الحياة ..)

العقل يا أستاذ محمود سيد العاطفة فى العلم ، لان العلم غايته الحقيقة أما فى الشعر فالعاطفة هى سيدة العقل ، لان الشعر غايته الجمال فقط ..

أنا لا أقول بان الشعر يجب ان يخلو من العقل ، كلا ، بل يجب ان يكون العقل منظما خفيا للشعر ، يعمل ، وكأنه الجندى المجهول ، ولكنه لايلقى ظلال جفوته ، وصرامته وتجهمه على محيا الشعر الغض ..

العقل فى الشعر كالنسغ فى الشجرة ، لاتعيش الا بوجوده ، ولكننا لانرى هذا الدم الخفى الذى يمد الشجرة بالنضارة والزهو ، والذى لولاه لما نمت الشجرة ورفت حسنا وعافية ..

أما ان ندخل المنطق ، والعلم الى الشعر لان العقل ضرورى ، ولان الله لم

يخلق العقل عبثا ، ونقيس الشعر بمقاييس العلماء ، ونجرى عليه الفحوص المخبرية ، كأنه جرثومة تحت مجهر ، فهذا تشويه عميق لمفهوم الشعر ، وتمزيق ظالم لأوصاله ، وكل شيء تضعه على مائدة التشريح ، وتجرى فيه المبضع ، تجرده من جماله ، حتى أجمل الاجسام .. وانا لا ازال اعتقد ان الشعر ، كلما تقيد برباط العقل ، كلما بعد عن النفس ، وعن عالم الجمال .

ولا أحب أن أذهب بعيدا فديوانك «المزامير» بين يدى ، فلنختر لك بيتين ولنقارن :

انا الوتر الباكى من الهم والاسى   انا الكوثر المعسول فى شفة الصادى

★★★

قال سقـــراط وهـــو جد عجول   جوهـــر النســـل من دم الاخلاط

فهل ترى فى بيتك الاخير ، وهو مشحون بالعقل ، من الجمال ماتراه فى بيتك الاول وهو مترع بالعاطفة ..

واذا سلمنا جدلا بصحة نظريتك الشعرية ، فهل يعقل ان يبكى الوتر ، وأين هى دموعه ، وأين هى عيونه ؟

ولكن بكاء الوتر فى نظرى فيه أكثر من شعر ..

أعود فأقول مابهذا المبضع يشرح الشعر يا أستاذ محمود . وأنا فى انتظار حكمك العادل ، وحكم القراء والاعزاء .

وبعد ألا يحق لنا أن نقول : فى الشعر العاطفة هى سيدة العقل واذا تخلت هذه السيدة يوما ما عن عرشها فقد البيت رونقه ونظافته وروعته ...

مع الدكتور قياسه وايليا أبى ماضى (٢)

للاستاذ محمود عارف

سبق ان نقدت بيتى ايليا أبى ماضى فى وصف الشاعر : هو من يراه سائرا فوق الثرى هو من يعيش لغيره ويظنه ... وقلت فى هذا النقد ، أما خطوات الشاعر فوق فؤاده فهذه بهلوانية شعرية لايعرف مدلولها الا الرياضى البهلوان «وقال الدكتور قياسه تعليقا على نقدى ان فى » وكأن فوق فؤاده خطواته لألطف تعبير وأدق تصوير وحيوية لاتوصف «وقال» ان الشاعر يمشى فى دروب الحياة وكأنه يسير فوق فؤاده متأنيا رفيق الخطو متأملا ما فى الكون من أسرار الخ وانا لا أرى هذا (التأنى) من لوازم الشاعر ليتسنى له التأمل فى اسرار الطبيعة . وكل انسان فنان يستطيع التأمل فى الكون والحياة والطبيعة بخصائص شتى ليس من اولها السير فى الحياة «بالتؤدة» وكثيرا ما قرأنا تأملات شعرية لعمر أبى ريشة ونزار قبانى كانت من وحى الراحة والاستجمام فى الدار او المصيف او العمل الصاخب فى المكتب او الرحلة على طائرة نفاثة .. وكذلك كان شوقى بك ينظم روائعه الشعريه الخالدة بين ضجيج الناس وجلبة القطار السريع .. ومن هذا يتضح ان خطوات الشاعر لم يكن يقصد بها السير الرفيق للتأمل .. وانما هى صورة موزعة فى خاطر الشاعر تحركت فى شكل خطوات ليست متأنية ولا سريعة ، وانما هى جامدة بالتأمل الراكد فى المعنى الذى قصده الشاعر «وهو البهلوانية الشعرية التى لايعرف مدلولها الا الرياضى البهلوان» .

تهمـــــة التحامـــــل

ويتهمنى الدكتور قياسه حيث قال «اشم فى هذا الكلام رائحة التحامل» ويقصد برائحة التحامل نقدى للبيت الثانى .. ولا ادرى ماهى دواعى التحامل سامح الله الدكتور ، أترانى اذا قلت نقدا فى كاتب او شاعر ولم يكن بينى وبينه أية صلة غير رابطة الفكر وعلاقة الادب يعتبر هذا فى حكم النقاد «تحاملا» ليس لى عليك غير العتاب يادكتور قياسه لانك عارف وانا ايضا عارف ، وسبيل المعرفة هو الانتصار للحق والدفاع عن حرية الفكر ولعلك تجد من يشفع لك فيما رميتنى من تهمة «التحامل» ولكنى اقابل هذا بالابتسام لانه ضريبة الفكر الحر واتاوة الحق الصراح .

مـــن هـــو الشاعـــر الحـــق

وقلت فى نقد البيت الثانى «ونحن نقول بأن هذا النعت يصلح لكل رائد فنان ولايقتصر هذا الوصف على الشاعر فحسب .. ولو كان مايقول أبو ماضى صحيحا لأخرجنا كثيرا من الخالدين الذين عاشوا لغيرهم ولم يعيشوا لذواتهم الخاصة» وهذا هو موضوع التحامل الذى اتهمنى به الدكتور قياسه . وبعد تهمة التحامل صرح الدكتور بقوله «نعم لايعيش الشاعر لذاته . انه لفنه ، للاجيال المقبلة ، للحسن» ، وقال أيضا «لو كان الشاعر يعيش لذاته فقط .. لاقتصر على الاستمتاع لوحده بمفاتن الوجود ، وكتم ضحكه وأخفى بكاءه ، ولم يصب اسراره فى ابيات من نور ، لتبلغ من يهوى الحياة والنور » هذا كلام جميل فى اطار مزخرف ، ولكن اين هو الشاعر الذى تريده يادكتور ان يعيش لذاته وللحياة معا .. ؟ بل أين الشاعر الذى يعيش للناس فحسب .. ؟ وانت الذى تقول فى وصف الشاعر «والشاعر حزمة من الاحاسيس المتداخلة ، والعواطف المتشابكة» ثم تنتقل فى لمحة وتقول «الشاعر الحق من يتحرك فى الحياة ويجرى فيها الحركة . ويجعلها اخصب مما هى عليه ، ويكشف ماخفى عن العيون من

اسرارها المستكنة وآفاقها الرحبة» وانا ارى فى هذا الوصف للشاعر مرونة «المطاط» يتقلص ويتمدد على حسب رغبة الواصف الماهر .

واعتقد ان الدكتور قياسه يعنى بهذا الوصف شاعر العاطفة ، ويرى ان الشعر محض عاطفة لا سلطان للعقل عليها كما اجزم ان العاطفة لاتصلح ان تقود موكب الشعر بحيث يمكن لهذا الشعر ان يكون صالحا للبقاء مع التراث الفكرى الخالد للانسان المتحضر . وشعر العاطفة على سهولة تجاربه قلق وهائم يحلق دائما فى اجواز الفضاء ، ويتوارى بين الاغوار ، ويجرى وراء السراب ، ولو كان العقل مسيطرا على العاطفة فى لحظة الاستلهام لانتفت تهويمة الشاعر وبدأ المخاض ثم النتاج فإذا هو مولود حى من الشعر العالى فيه رقرقة العاطفة واتزان العقل ، وهذا ما يجعله نابضا بحيوية الاحساس السليم ومستنيرا بقيادة العقل الواعى . وكل شعر فيه عاطفة لايسيطر عليها العقل فهو فى رأيى هذيان وتهريج . والعقل ميزة الانسان . وماذا بقى للانسان اذا تعطلت فيه هذه الميزة الكبرى اولم يستعملها فى كل عمل يمارسه سواء كان عملا ماديا ، او مجهودا فنيا واذا الفينا العقل فى مجهود الشعر فمعنى ذلك اننا اضعنا اثمن جوهرة فى منجم الشعر . وماذا يبقى للشعر العاطفى بعد ضياع جوهرة غير فراغ المبادىء وفوضى الاهداف وانحلال الافكار وضحولة الشعور ؟ وهذه هى لوازم العاطفة التى تنطلق بدون رقابة من العقل ، لان العقل هو صاحب القيادة والتوجيه . والتفكير فوق الاحساس ولاتوسط بينهما .

وعندى ان الشاعر الحق هو من يملك العاطفة الثرة ويحرز العقل الرزين . وبعد ذلك تأتى التجربة الحية عن طريق الفطرة المهذبة والموهبة الكاملة . وما الكون والحياة والطبيعة الا مصانع لتجارب العاطفة ومناجم لكنوز العقل . وما كان او سيكون فهو من المبدعات التى صاغتها ريشة الفنان المتكامل سواء كان كاتبا او شاعرا او موسيقيا او مصورا على اختلاف مابين فنان وفنان من تجارب وصور ووجوه وزاويا .

كل فى حدود مرآته الخاصة وظروفه وملابساته ومكانه وزمانه . والتعبير فى هذا كله هو تعبير «عن الحقيقة» فى الفن . وتصوير عن «الصدق» فى الحياة .

مع الدكتور قياسه وايليا أبى ماضى (٣)

للاستاذ محمود عارف

يقول الدكتور قياسه «فى الشعر لا ضرورة لتطابق الصورة مع الاصل تطابقا كاملا» .

كالناظر الى وجهه فى صفحة المرآة المجلوة .. فقد يكون وجه الشبه فى لمحة خفية .. او خيط دقيق لاتميزه كل العيون (ومثاله فى هذا المعنى عند سعيد عقل حيث قال الشاعر «الى البلد الحلو حيث الغمام بلون هديل الحمام») .

الشعـــــر البازرميكـــــى

وأرى ان هذا اللون من الشعر يصح أن يسمى «الشعر البازرميكى» أو البزرميطى نسبة الى بزرميط .. وهو مذهب جديد فى الشعر الحديث اخترع قوالبه ومطالبه ومفهومه الاستاذ «عبد السميع الزين» .. وهذا المذهب الحديث ينقض مفاهيم المذهب الرومانتيكى والمذهب الكلاسيكى . ومفهوم المذهب «البازرميكى » هو الخروج بالشعر عن نطاق الشكل والمضمون الى عالم الفضاء الخارجى حيث لاتوجد هناك صورة ولا حدود محصورة . واعتقد ان سعيد عقل حين استلهم شعره قصد «بالبلد الحلو الذى يظهر فيه الغمام بلون هديل الحمام» مدينة فى القمر .. لانه من المحتمل أن يكون هناك غمام شفيف بلون هديل الحمام الرقيق ... ولايمكن أن يعقل ان يكون وراء عاطفة الشاعر تفسير لمعنى مألوف غير أنه اراد ان يعبر بعاطفة سكان القمر .. لان عواطفهم طبعا غير انسانية كما ان عقولهم من غير جنس عقول الآدميين .. ولهذا يعسر على سكان الارض ــ وأنا منهم ــ معرفة وجه الشبه «أو اللغز الرائع» الذى يكمن وراء

شعر سعيد عقل .. واذا كان هذا هو شعر العاطفة فعلى العاطفة السلام وعلى هذا الشعر البازرميكى العفاء لأنه من غير المعقول أن تنتج الاحاسيس المتداخلة معنى مستقيما فى الشعر العاطفى بحيث (يصح للعين ان تشم .. وللاذن ان ترى .. وللعطر صدى .. وللحرف رائحة وطعم ولون ..» وصدق الشعر لايتحمل الصبر على هذه المعانى اللولبية والافكار الزئبقية لانها لاتزيد فى ثروة الشعر الرفيع وان كانت من دلائل تعطيل الفهم والاصالة فى الشعر الذى يعبر عن صدق الحياة .. كما وقع مثلا فى شعر أمين نخله الذى يقول :

نعيم حبنا فانظر بعينى وعرس للمنى فاسمع بأذنى
كأن الصحو يلمع فى ضلوعى ويخفق فى فؤادى ألف غصن

ويقول الدكتور فى تعليقه على هذا الشعر العاطفى البازرميكى ... « فهل يعقل ان يلمع الصحو فى الضلوع ... وتخفق الاغصان فى الفؤاد .. ؟ كلا لكن العاطفة .. تبتهج لهذا الشعر الغض وتطرب وتصفق ..» ونحن نقول ان هذا هو الفساد الذوقى والافلاس العاطفى بالنسبة لهذا الشعر الراكد الذى يقوله شاعر كبير من شعراء لبنان يشار اليه بالبنان .

عذوبة الكذب
فى الشعر

ويصرح الدكتور قياسه بقوله : « وهل عذب فى غير الشعر الكذب ؟» وعندى ان الكذب سليل «العاطفة» المنطلقة البعيدة عن سيطرة وتوجيه العقل .. ومعظم شعراء المبالغة والتهاويل هم من عنصر الفاشلين لانهم من دعاة «الكذب» وكلما بالغ الشاعر فى تلوين تهاويل صوره الشعرية كان مدعاة لسخرية العقل الواعى .. على ما أحدثته العاطفة من أضاليل وترهات اعتاقت مجرى «الحقيقة» وزلزلت كيان «الصدق» فى الحياة .. وماذا ترى أيها القارىء فى قول الشاعر العاطفى ؟ :

خطـرات النسيـــم تجــرح خديه ولمس الحريـــر يدمـــى بنانه

هذا أسلوب من «الكذب فى الشعر» فقد وضع الشاعر أمامه صورة رجل ـ ظاهريا ـ وفى خياله صورة لكيان ـ امرأة ـ بدليل أن النسيم وهو طبعا رقيق يجرح خدى هذا «الرجل» فى ظاهره «والمرأة» فى خيال الشاعر لوجود صلة الرقة والنعومة والميوعة فى هذا الانسان المشكوك فى رجولته بتأثير عاطفة الشاعر الجامحة والمنطلقة بدون قيادة ولا توجيه من العقل الصاحى .. ثم يؤكد الشاعر المبالغة ـ وهى وسيلة الكذب العذب ـ فيصور هذا الانسان المسترجل أو المستأنث .. صاحب نعومة مفرطة بدليل ان لمس الحرير يدمى بنانه ... فماذا ترى يادكتور قياسه فى هذا الشعر العاطفى الموشح بالكذب العذب .. ؟ وهل هذا الشعر يشرف التراث الفكرى للانسان العاقل المتحضر ؟ .. أم انه عبث العاطفة المهومة ينقض على الشاعر ساعة لهوه فيتدفق بالشعر التافه العابث وملؤه الكذب الممقوت ... وبعد ذلك تقال لنا هذه الحكمة المأثورة التائهة «أعذب الشعر أكذبه» انها حكمة خادعة ومخدوعة أليس كذلك يادكتور عارف قياسه ؟

عصـــفور نـــزار قبانـــــى

يقول الدكتور قياسه «نريد الكلمة التى تنقلنا الى عوالم لاتحد .. وتفرغ فيها مشاعر لايقوى عليها الوصف» وضرب مثلا لهذه الكلمة «بالعصفور» الذى تحدث عنه الشاعر نزار القبانى فى البيت الآتى الوارد ضمن قصيدة أيظن .. المشهورة .

وبدون «أن أدرى» تركت له يدى لتنام «كالغصفور» بين يديه وبالغ الدكتور قياسه فى تصوير معنى «اليد» التى نامت «كالعصفور» ويقول فى هذا التصوير «ان يدها التى تنام بين يديه كالعصفور فيها كل الثروة التى يمكن ان يمنحها «الشعر» للقلب . ففيها الرقة والنعومة والحنان . وفيه اللجوء الى الحضن الحدوب والامن الكامل والذى فهمته أنا من معنى البيت : ان الشاعر كان فى حالة غيبوبة بدليل قوله «وبدون ان ادرى» تركت له يدى .. وهنا فجوة فنية بين

هذه اليد المتروكة .. وبين الشاعر الفاقد العقل .. لعدم وجود حالة ارتباط بين عاطفة الشاعر المغشى عليه .. وبين رغبته بوسيلة حركة اليد المتروكة .. أما الرغبة فى ان تنام هذه اليد «كالعصفور» بين يدى الحبيب .. فهى رغبة تافهة لان الاستمتاع بالدفء أو الحنان أو التلذذ بعاطفة الحب ليس فى صورة «العصفور» لأنه من فصيلة الطيور وليس فى الطيور مايثير معانى الدفء أو الحنان أو التلذذ او الحرارة او البرودة بالنسبة لعاطفة الحب عند الانسان .. ووجود العصفور فى خميلة بيت نزار قبانى كوجود «الخفاش» فى ثقوب البيوت المتداعية .. لا معنى ولاتصور ، وانما تلاعب ظاهره بالالفاظ الرنانة لتصوير الجانب المادى من حبه المتقلب على الشفاه والوجنات والنهود والصدور والاعجاز كما يتضح من ديوانه «طفولة نهد» .

ســبيلان مختلفـان

يلوح لى اننى والاستاذ محمود عارف كما يقول الشاعر الانجليزى (كبلنغ) : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان ...

فهو فى واد ، وأنا فى واد آخر ولسنا على مفترق الطريق لنطمع بالتلاقى ، ولكن اختلاف الرأى ـ كما يقول شوقى ـ لايفسد للود قضية ...

فالاستاذ محمود عارف يتخذ من العقل فى الشعر نقطة انطلاق له ، وأنا اتخذ من العاطفة نقطة انطلاق لى ، وشتان بين الدربين .

فالقضية بينى وبينه قضية ذوق ، وليس من شىء كالذوق يختلف فيه الناس ، فأنا اعشق الزهر ، وخضرة الشجر ، وهو يهوى الثمر ، وحتى علــب «الكونسروه» . فهل من تثريب عليه ؟

وانا اقول ان العقل فى الشعر كملح الطعام ، ينبغى أن لانذر منه الا بمقدار مايفتح الشهية ، ويجعل الطعام سائغا مقبولا ، واذا زاد مقدار الملح فى الشعر أصبح هذا الشعر ممجوجا ، مقززا للنفس ، وهو يردد قول أبى العلاء :

لا امــام ســـوى العقـــل ...

وأنا اقول ان الشعر زهرة لطيفة ، هشة ، لاتخضع للتحاليل الكيماوية ، ولاتتحمل التجريح والتشريح ، وجمال الشعر يؤخذ ككل ولايؤخذ كجزء ، كما ان المليحة الحسناء تسحر للنظرة الاولى ، ولايمكن ان يحكم العقل فى سحرها ، فيقال لماذا هذا الانذهال ، وهل هى سوى لحم وعظم ودم ، وبالتالى جثة حقيرة عرضة للدود والتفسخ .

كما أنه لايمكن ان يقال لمن تغزل بضوء القمر وهو يفرش نوره على الرمال فى ليالى الصيف ، ماهذا الوهم والسخف ، ألم تعرف بعد ان العلم قد أثبت ان القمر أبشع من وجه المجدور ، وانه تلال ووديان وبراكين وصخور ...

ولايمكن ان يقال للشعراء : الام تظلون فى اوهامكم واحلامكم سادرين ، وحتام تتلهون كالاطفال الصغار بفقاقيع الصابون الملونة ، وتبنون بيوتكم على الرمال المتحركة ؟ لا لا يا أستاذ عارف ، أنا اعرف جيدا ان الحياة فى حقيقتها قبض ريح ، وباطل الاباطيل كما يقول سليمان الحكيم ، وأنك اذا تعمقت فى أى شىء وجدته لاشىء ، أنا اعلم ذلك جيدا ، ولكن بربك يا استاذ عارف دع لنا هذه الاوهام الحلوة التى تعتبرها أنت لاشىء ، لانك تحكم العقل ، واسمح لنا فى بعض اللحظات ان نحيا كما يحيا الاطفال ، فهذه اللحظات الممتعة ، وتلك الاوهام الحلوة ، هى التى تجعل الحياة خصبة ، مضيئة ، وهى التى تشيع الحلاوة والنضارة فى ثناياها ، وهى التى تجعلنا اكثر تآلفا مع الكون ، وأوثق تضامنا مع الطبيعة ، وأخيرا هى التى تنسينا بعض الشىء ان الحياة تافهة وانها قبض ريح وباطل الاباطيل .

أما الكذب يا استاذ محمود فهو صنو الخيال فى الشعر وهل تستطيع ان تدلنى على شاعر مجيد فى الدنيا لايعرف الكذب ..

ان الشاعر الذى يخلو شعره من الكذب هو شاعر عقيم الخيال ، محنط ، قليل الخبرة الفنية . حتى فى النثر فاننا لانستغنى عن هذا الكذب العذب المباح .

فالتشبيه الذى هو عنصر من عناصر الفصاحة ، ووجه من وجوه البيان ، والذى هو فى الشعر دمه الذى يؤمن له استمرار الحياة ، ورئته التى تمده بالهواء ، هل هو الانوع من الكذب .

يقال : هو فى الرقة كالنسيم ، وهو فى البهاء كالبدر ، فهل هذا التعبير صدق محض لا يأتيه الكذب من أمام ولا خلف ، من فوق ولاتحت ؟

فالمبالغة التى هى وليدة الكذب ضرورة شعرية لاغنى للشاعر عنها فى اكثر الاحيان ، ولكن مايؤخذ على المبالغة هو ان تكون قلقة ، غير مستقرة فى موضعها المناسب ، فعندئذ تتعطل فعاليتها ولاتستطيع ان تفرغ اية شحنة جمالية فى النفس .

اما ان (معظم شعراء المبالغة والتهاويل هم من عنصر الفاشلين لانهم من دعاة الكذب) فهذا ما تنفيه الحقيقة والواقع .

فأبو الطيب المتنبى أكبر كاذب فى الشعر العربى ، واكبر مبالغ فيه ، ولكنه ايضا اكبر شاعر ، ولعل من اهم اسباب ارتفاع شعره ، واخذه بأوتار القلب هو هذا الكذب العذب .

ولا أحب ان اثبت ذلك بالادلة والبراهين فديوان أبى الطيب يضج بالكذب ، ولكنه يضج بالروعة ...

لا تجعلوا من الشعر طائراً مقصوص الجناح

مما لاريب فيه ان لكل جديد لذة وبهجة ، وان الانسان بفطرته ميال للسأم فلذلك نراه دائم الصبوة لكل جديد ، وهذه النزعة الاصيلة هى التى تدفعه الى الخلق والابتكار . والطبيعة ذاتها تتجدد وتتغير فى كل فصل من فصولها ، وفى كل موسم من مواسمها ، ولو توالت على وجه واحد لفقدت الكثير من حبنا لها ، ولألفيناها باهتة الرونق والبهاء .

وكذلك فى الشعر ، الجدة هى الدم الذى يغذيه ، والجناح الذى به يطير ويخفق ويحلق . وكل شعر خلا من الجدة والابداع هو شعر شاحب عليل وان كان قوى الاسر ، مفتول العضلات .

فقد تقرأ قصيدة مطولة جيدة الحبك والسبك ، ولكنها تمر من الاذن الى الاذن ، كأنها الكلام العادى الذى تسمعه فى كل آن ، دون ان تهزك او تثير فيك آية عاطفة ، ويهزك بيت واحد فى قصيدة اخرى ، أو فلذة من بيت ، أو ومضة شعرية ، أو صورة آسرة تسيطر عليك كما يسيطر النغم الجميل فلا تستطيع ان تتفلت بسهولة من ذلك الاسر الساحر .

فليس طول القصيدة ـ كما يخيل الى بعضهم ـ ضروريا حتى تكون القصيدة حسناء ، وليس قصرها مدعاة للتنقيص من شأنها ، فقد يستوعب الموجة الشعورية بيت واحد ، وقد تستوعبها قصيدة قصيرة ، وقد يحتاج طول الموجة الى قصيدة مطولة ، كل ذلك يتبع حركة النفس وتموجها . المهم قبل كل شىء ان يكون الشعر قادرا على نقل الدفقة الشعورية فى صدق ولذة وجمال .

والشعر كما قلنا أكثر من مرة هو بأمس الحاجة الى الهواء الطلق وتنشق عبير

الحرية ، فأذا رسمنا له الحدود ، ووضعنا فى عنقه الاغلال والقيود ، ذوى وضمر .

واذا كنا نصر على التقيد بالاصول الشكلية للشعر العربى القديم فليس معنى ذلك اننا نشجع الجمود ، أو نحث عليه ، أو نرى ان يبقى الشعر الحديث نسخة طبق الاصل عن الشعر الماضى ، فالحياة فى تطور دائم وفى تجدد مستمر ، والشاعر الحديث أكثر ثقافة ولاشك من الشاعر القديم ، وينبغى ان نرى ملامح هذه الثقافة بارزة فى الشعر الحديث .

إن الشاعر الذى يتقيد بتعبير القدماء ، وصورهم ، وطراز تفكيرهم وتخيلهم ، ويرى فى ذلك اسمى أهدافه ، لهو جدير بأن يوضع فى متحف أثرى ، لا أن يعيش فى عالم كل مافيه متجدد حى ...

والقالب الشعرى القديم ليس غاية فى حد ذاته ، وانما هو وسيلة لنقل الشعور ، أعجبنا به وتمسكنا ، لانه يتلاءم مع بيئتنا ولغتنا ، ولانه قبل كل شىء يزيد حقا من جمال الشعر وروعته . وهذا القالب كالاناء الشفاف الذى يبرز صفاء الماء ، ويفتح الشهية للشرب ، ولكنه مهما كان شفافا لايستطيع أن يجعل من الماء الآسن المتغير الطعم ماء عذبا طيب النكهة ...

لقد أثار فى نفسى هذه الخواطر ما أقرأه فى الصحف كل يوم من هجوم عنيف على الشعر الحديث بشتى ألوانه ، بقنابل صاروخية مدمرة تتركه قاعا صفصفاً ، فنرى الكاتب المتهجم لايتئد فى أحكامه ، ولاينصف ، وانما يرمى الشعر الحديث بكل قصور ، وقد يستغل بعض مافيه من تنكر للاصول الشعرية القديمة ، فيمحوه بجرة قلم ، غير آبه لما قد يكون فيه من جدة فى التعبير ، وجرأة فى التصوير ، وروعة فى الابتكار قد لا نراها فى الشعر القديم – ومن الضرورى أن لا نراها – فالشعر القديم كان صادق التمثيل لعصره ، وشعرنا الحديث ينبغى أيضا أن يمثل عصره بما فيه من فتوحات فى العلم مذهلة ، ومافيه من تقارب بين الامصار والاصقاع ، مهما كانت نائية ، وما يتبع ذلك من امتزاج سريع فى الحضارة والثقافة ، ومايتلو ذلك من تشابه فى الآمال والاحلام والآلام بين ابناء العالم جميعا .

وكما ان الفاكهة التى لم نعرفها ولم نذقها لانستطيع أن نحكم على طعمها ، كذلك التجربة الشعرية .

فالناقد ينبغى ان يكون واسع الثقافة ، رحيب الصدر ، عميق الاصغاء لأصداء وخوالج النفس البشرية ، كثير التجارب النفسية والروحية والعقلية ، حتى يكون منصفا فى حكمه على تجارب الآخرين .

ولذلك نلمس اختلافا بينا فى آراء النقاد وأذواقهم ، فالبيت الواحد لايعطى انطباعا واحدا لجميع الناس ، وانما يختلف لون ذلك الانطباع ، ومداه وعمقه ، حسب ضحولة القارىء أو عمقه .

وانها لجناية كبرى على الادب العربى أن يخضع الشعر لآراء ناقد محدود الثقافة ، لاتتسع نفسه للمشاعر المتعددة ، او ان تجعل من النفس البشرية المتنوعة آلة تلفظ النسخ المكرورة المتشابهة .

والشعر هو المطالب قبل غيره بالابتكار كل الابتكار ، واذا شئنا ان نلتمس قوة الخيال عند اية امة فلن نجدها واضحة مثلما نراها فى الشعر .

والمذاهب الشعرية المتعددة ـ على اختلاف مناهجها ـ دليل بين على ان الشعر لايمكن ان يعيش فى قوقعة ، ولا ان يخضع لرأى موحد .

فلنفتح النوافذ والابواب ، ولنجعل نسمات الحرية تهب علينا من الجهات الاربع ، ولا بأس ان يمتزج بشعرنا بعض شعر الامم ، فالاغتراب ـ فى علم الحياة ـ يمنع الضوى ، ويمد الذرية بنسل جديد متين ، وكذلك فى دنيا الشعر .

ولايجوز ان نقول ان هذاالشعر سخيف ، لأنه بعيد الملامح عن الشعر العربى الذى عرفناه فى عهوده المتقدمة ، والا جعلنا الشعر طائرا مقصوص الجناح يزحف على الثرى وهيهات ان يحلق فوق الذرى .

قصائد منثورة

طاقة غزل

من الوديان المعشبه ،
من سفوح الجبال ،
من ضفاف الغدران ،
حملت لك ياحبيبتى
ذات مساء ،
ازهارا رائعة شتى :
اقحواناً له ضحكة عينيك ،
بنفسجاً له خفر خديك ،
شقائق لها حمرة شفتيك ،
رياحين لها شذى انفاسك ،
ياسميناً له لطف اناملك ..
نضدت اطفال الربيع الصغار
فى طاقة بديعة منسقة .
حملتها ، وانا اطير من الفرح
لأزين بها مفرق شعرك ،
لكنها جميعها ذبلت عند
الصباح ..
لاتحزنى ياحبيبتى !
لاتحزنى !
لك عندى باقة احلى واغلى !
طاقة لاتذبل فى صبح أو مساء ،

فى صيف أو شتاء ،
طاقة ايضاً شذيه ،
نضدتها لك هذه المرة ،
من أزهار قلبى
من حبى ..

وحـــــــدة

بلا ظل ولا ثمر ،
أمام الافق الاوسع ،
كشجرة الخريف ،
أنا وحدى ..
ذرة صغيرة تائهة ،
نبتة على شفا هاوية ترتجف ،
ورقة جافة نثرتها العاصفة ،
ارجوحة فى مهب الريح ،
الشمس اللعوب .
تتعرى وتتعرى ،
فى خفة وغنج ،
تلقى على ثيابها البرتقاليه ،
واحدا بعد الآخر ..
لكن الزمهرير الضرير
كنحلة غضبى ،
لايكف عن وخزه ..
النسيم الطفل ،
على جبينى يمرغ ،
خصائله الشدية ..
لكننى فى ذهول و اشمئزاز
اصرخ فى وجهه المتهلل :
الا ابتعد عنى ، أيها الطفل العابث ،
واسترد شذاك ..
فأنا حقل مهجور ،
وقيثارة اوتارها مقطعة ..

فوق رأسى يمر ،
طائر ابيض الريش غريب ،
رف جناحيه أثقل من الضباب
فى عشية بنفسجية لزجه .
وزعيقه الاهوج
يحفر فى سويداءِ فؤادى
أودية للدموع ..
واذا مانهض المساء الجريح ،
ليشعل فى الجلد الحزين ،
شموعا ابدية الحنين ،
تكسرت على شفتى المتثائبة ،
موجة أمر من الحنظل ..
وفى الليل الممتد بلا شاطىء ،
فى هذه اللانهاية السوداء
الخرساء ،

حيث فى السهول الجليدية
تلفظ انفاسها النجوم المنفية
تنهشنى الوحشة ،
كأفعى ضارية ..
فيا زبد البحر المتطاير !
ياحلم اللآلىء العذراء !

أين الاصابع الزنبقية ،
وأصداء الضحكات البلورية ؟
أين اجنحة الهنيهات النشوى ؟
وانت يامكنسة النجوم الذهبية ،
يانسيج الاعوام المثقلة
بأزهار الامل ، وبهجة الانتظار ،
اجرفى الى قاع البحار ،
شظايا هذا الظلام المنهار .

فالغد البكر امامى يتفتح
كمطلع اغنية مرحة ،
كبرعم موله
حظى من ثغر الربيع
بأول قبلة ..

أجنحة

مالم يكن لنا أجنحه
كالعصافير ،
وكالفراشات الملونه
نرفرف ،
تظل الحياة مرة
كلحد صغير .
من أغاني القمر ،
من بهجة السفر ،
من وشى الظنون ،
من همس العيون ،
هب لنا أجنحة ،
واقطف عناقيد النشوة ..

هب لنا أجنحة !
تمتلىء الارض بالسنابل ،
يصبح القفر خمائل .
يرجع الدهر القهقرى ..

هب لنا أجنحة ،
لنعبر البحار كالزوارق البيض ،
لنشق الفضاء كالنيازك الهاوية ،
لنبل غليل الشوق ،
لنثقل الايدى بالكنوز المرصودة ..

أنمل الزمان غافله
حركها على الاوتار ،
تساقط الانغام
كلآلىء الندى ..

اجر كالرياح فى السهول ،
اصعد الجبال كالوعول ،
اجمع النجوم فى السلال ،
فالبنفسج خجول ، لايبتسم
مالم تزح الاوراق ،
عن محياه ..
عيون لاتحصى
تجذبنا ،
واذرع لاتعد
تمتد الينا مفتوحة ..
وراء كل اجمة نداء ،
وخلف كل نجمة رجاء ،
وفى عروقنا لهب
فلنعانق الغمام ، ولنثمل ،
ولنحطم الكؤوس الفارغة ،
فهى قد ملت الانتظار ..

مالم نمزق شرانق الحرير
لاتباركنا الشمس ؛
لا النسمة المتهللة تحيينا ،
ولا عبير الآباد نشم ..
مالم نحترق كالهشيم ،
لانضىء ...

فلنعبث بالاشياء ،
لنعبث كالاطفال .
لنهدم فى لحظة ، ولنبن فى لحظة
بيوتا على الرمال .
ولننزع اللحاء
عن جذوع الشجر
فالثمار فى الخفاء تلتمع ،
كالقمر ...

مالم يكن لنا اجنحة
كالعصافير ،
وكالفراشات الملونه ،
نرفرف ،
على ينابيع الماء ،
وكالنسور
نحوم فوق القمم ،
تظل الحياة
كالممات ...

مؤلفات للكاتب الدكتور عارف قياسه

١ ــ البرعم الأشقر	« ديوان شعر »	١٩٥٥ م
٢ ــ عبير القلب	« ديوان شعر »	١٩٦١ م
٣ ــ شمس وجديد	« ديوان شعر »	تحت الطبع

كتب جديدة من اصدرات النادى

١ ـ أطياف العذارى ـ ديوان شعر للاستاذ مطلق مخلد الذيابى

٢ ـ فى معترك الحياة ـ مقالات للأستاذ عبد الفتاح ابو مدين

٣ ـ عندما يورق الصخر ـ ديوان شعر للاستاذ ياسر فتوى

٤ ـ اوهام الكتاب ـ استدراكات للشيخ العالم ابى تراب الظاهرى

٥ ـ كبوات اليراع ـ تعقيبات لغوية للعالم الشيخ ابى تراب الظاهرى



الفهرســـت

الموضــوع | الصفحة

على الهامـــــش

قصائد منثورة :

تصويب الاخطاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الكلمـــــة	تصويبهـــــا
١١	١٤	الطهو	لطهو
١٢	٧	الجدارن	الجدران
١٧	٨	تحليفة	تحليقه
١٧	٩	قوافية	قوافيه
٢٥	٨	الصورة	الصور
٤٠	١٨	لا شعر	لاشعراً
٤٤	٤	التكوين	التلوين
٤٨	٢٠	المتوج	المتموج
٥٥	٢	بصورة	بصور
٥٥	١٣	أكثرها	وأكثرها
٦٣	٤	احزان	احزانه
٧٠	١٣	عليه النفوس	عليه الى النفوس
٧٥	٧	أم يلتزم	أن يلتزم
٨٩	١٤	العريض	الغريض
١٠٥	٤	لا نمك	لا نملك
١٠٩	٢	الشعب	العشب
١١٤	٢	وتكون	ونكون
١١٥	٤	أيدهم	أيديهم
١١٨	٢	همة	همه
١٢٦	٧	الغاضبين	الغاصبين
١٢٨	٧	الفقار	القفار
١٤٣	٣	وهمس	ولمس
١٥٠	١٠	فى الأخ	فى أن الأخ
١٥٢	٥	معنى	مغني
١٥٤	١٠	انه	إن
١٥٩	٣	ازدارها	ازدراها
١٦٠	١٥	كلة	كلمة
١٦٣	٢٠	الروائد	الرائد
١٦٥	٢٠	يؤخذ	يؤكد
١٧٢	٥	وقول	ويقول
١٨٥	١٦	انطباعه	انطباعة
٢٢٥	١٢	الهادئة	الهادية
٢٢٧	٣	السمع	السامع
٢٣٧	٢٣	يجب	يحب
٢٣٨	١٧	ويمينك	ويمنيك
٢٣٩	٣	يؤثر	كان يؤثر
٢٤٠	٥	(جوائيه)	(جوائبه)
٢٦٤	٢٤	وتتعطى	وتتغطى
٢٦٥	١٠	ولكنه	ولكن
٢٧٢	١١	ولا من اين	ولا اين
٢٧٥	١٥	يبقى	يبغى
٢٨٢	١٧	والأعزاء	الأعزاء

AL.BILAD دار البلاد
طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة
ت : ٦٦٩٢٨٠٥/٨٠٦

الأشراف الفني/سيد هاشم